عود على بدء

د . شاكر الفحام

في مجلس ضم نخبة من المثقفين والقراء المعنيين بالقضايا القومية والتاريخية أفضى بنا الحديث الى ذكر مجلة (دراسات تاريخية) ، وبدأ الحاضرون حواراً طرحت فيه آراء وأفكار تناولت هدف المجلة وغايتها ، وناقشت ضرورتها ودواعي صدورها ، وعرضت لما تضمنه عددها الأول من مقالات • وتشقق بنا القول ، والحديث ذو شجون ، الى مناح وجوانب شتى أثارها من مكامنها الحوار والنقاش ، يتصل بعضها بجوهر الموضوع، ويلامس بعضها أطرافه • وامتد نَفَسُ الكلام وتعددت المواقف : ما بين مشجع متفائل يدعو الى العمل الجاد ومواصلة السير ، الى متسائل مستفسر قد تراءت له العقبات الجمة التي تعترض الطريق ، أو التبعات الثقال التي يتطلبها تحقيق مثل هذا الهدف الكبير ، فالى مثبط لم تقنعه الفكرة ولم تتبين له جدواها ، أو لم يرضه توقيت صدورها ، فهو يعدد لك وينفض أمامك جملة الأسباب والعوائق التي يراها جديرة بالتقدير ، بل لعلها تقف في رأيه حائلا دون المتابعة والمضي قدماً لبلوغ الغرض •

ولاح لي أنها فرصة ثمينة أن أضم ما تفرق من هذه الأحاديث ، وأعرضه لقراء المجلة مرتباً منسقاً مهذباً ، ليروا رأيهم في هذا الحوار ، وليغنوه بمشاركتهم وكلماتهم ، عملا بالحكمة القائلة : « ربَّ مبلَّغ أوعى من سامع »(١) • وهل أحب الينا من أن نتلقى من رجال الفكر وحملة الأقلام ، ونحن في أول الدرب ، نوراً يسعى بين أيدينا ، يهدينا الى سواء السبيل ؟ واذا كان قد أسعدني شيء فهو هذا الحوار الحي الخصب يتلاقى عليه أهل المجلس ، لا تثيرهم عصبية ، ولا يستفزهم الف لفكرة ، أو

★ اعتمدنا الترجمات العربية في جميع الشواهد المستمدة من مؤلفات كتبها أصحابها بغير العربية• ولم تكن العودة الى المصادر في اغلب المواضع لتعزيز راينا فحسب بقدر ما كانت لرغبتنا ان يشاركنا القارىء في الاطلاع على راي المؤلفين في المساق الذي ورد في هذه المصادر •

يتملكهم هوى ، ولا يستبد بهم حب مغالبة، وانما هو الرأي يبسطه صاحبه ، والوجهة يدافع عنها ليصل الى الحق في القضية • ألا ان نهر المعرفة العظيم انما يتغذى بهذه الروافد الصغيرة التي تمده بمائها على طول الطريق •

لا أزعم أني استوفيت في كلمتي هذه كل ما قيل في المجلس ، فذلك فوق وسعي وطاقتي ، ولكني لخصت رؤوس المسائل التي قالوا ، وأوجزت وشذبت حيث أفاضوا وأطالوا ، مغضياً عن التفاصيل والجزئيات التي ينطلق بها القول في حديث وحوار ، مكتفياً بما هو رئيس وأساسي من الأفكار التي تناولت جوهر الموضوع • وقد آثرت أن أسلك طريق السرد في العرض ما استطعت ، لا طريق الحوار وما يقتضيه من مسألة وجواب ، لأن مقصدنا أن نتطرق الى جميع الأفكار الأساسية التي ألمَّ بها المجلس، وأن نضم اليها من التفسير والشرح ما يكشف عن جوانبها ، وينير من آفاقها ، حتى تبدو لمطالعها واضحة جلية • والسرد في هذا المجال يعين على ما نريد من هذه الاضافات والتنقيحات والعودة الى المصادر والتوثيق ، والتي تساعد في تجلية الغرض الذي نسعى له ونرمي الى تحقيقه • واذا كان لي من شيء أضيفه فهو أن طبيعة الحوار في المجلس ، وطريقة مناقشة المسائل المثارة اقتضتني بعض التكرار في العرض ، لم أستطع تفاديه والتفلت منه ، ولم أقو على التغلب عليه • ولعل مما يشفع لي أني بذلت ما قدرت ليكون مثل هذا التكرار في أضيق حدوده •

– ١ –

وأبدأ بموضوع التأليف في التاريخ ، وذكر التقدم الذي أحرزته الدراسات التاريخية في الغرب ، على أيدي كبار المؤرخين والفلاسفة والمفكرين الذين خطّوا طرائق النقد التاريخي ، وسنّوا مناهج البحث ، ووضعوا الأسس التي يتم بها الافادة من المصادر التاريخية : من الآثار والمخلفات والوثائق والنصوص التاريخية ، لتكوين رؤية لأحداث التاريخ بصيرة ، تمكن من استشفاف روح الماضي واحيائه • ثم مضوا في طريقهم صعدا ، يبحثون وينقبون وينقدون ويؤصلون حتى بلغوا في عملهم شأوا بعيداً سمح لهم أن يعد القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عصر نهضة الدراسات التاريخية(٢) • وقد هيأ ذلك كله أن يكتب تاريخ الغرب كتابة جديدة ناقدة ، أفادت من علوم معينة شتى ، لتغدو أعمق نظراً ، وأرحب أفقاً ، وأجود استنباطاً ، وأكثر صدقاً وموضوعية ، تتبين التيارات المستسرة التي تفعل فعلها في الحياة وفي صنع التاريخ ، وتكشف عن الخبايا

الخفية التي تتجلى عنها الأحداث والوقائع · وما زال علماء الغرب : مؤرخوه ومفكروه وفلاسفته يتابعون مسيرتهم في استكمال ما يريدون من تأصيل المعرفة التاريخية ، ومن الارتقاءبصناعة التاريخ ، وبيان ما يتطلبونه في المتمرس بها من دقة الملاحظة ، ورهافة الحس التاريخي ، والقدرة على تذكر الماضي التذكر الحي واستحضاره ، وموهبة التوقف عند المهم ، وصحة الاستنتاج ، وصدق التأويل ، مستفيدين في أعمالهم من مبتكرات العلوم ، واختراع الأدوات ، وتطور المعرفة الانسانية وتكاملها ، مستعدين أبداً أن يعيدوا نظراً فيما كانوا أثّلوه من طرائق النقد ومناهج البحث التاريخيين ، على هدي ما ينتهون اليه في مدارساتهم من كشف جديد ، كي تستجيب تلك الطرائق والمناهج لما رسموه لأنفسهم من مثل أعلى في الصدق التاريخي ، والحقيقة التاريخية يؤملون بلوغهما(٣) · وهكذا تألقت الكتب التي تقص تاريخ الغرب في دراسات ناقدة ، غاية في العمق ، تجلو لنا الماضي ، لا أحداثاً مفردة جامدة ، بل حياة نابضة يتحرك فيها الأحياء ، وتتبين لنا حوافزهم ودوافعهم بكل تعقدها وتشابكها · ان مثلا جديداً أعلى لكتابة التاريخ قد بدأ مؤرخو الغرب المحدثون يستشرفونه ويستوحونه · وما أبعد الفروق ، وما أشد التغاير بينه وبين المثل الأعلى الذي كان يستشرفه المؤرخون القدماء السابقون وهم يكتبون التاريخ :

ولكن الغرب الذي نجح النجاح الكبير في كتابة تاريخه على أحدث نظرات النقد ومناهج البحث التاريخيين ، وما يزال يكتبه ، يرجو آن يبلغ به مرتقى فوق ما بلغ ، قد حالت أسباب شتى وملابسات كثيرة دون نجاحه النجاح المرجو وهو يكتب تاريخ العالم · كان شعوره أنه سيد هذا العالم وقطبه، قد تمكن منه ، ثم تسلط عليه تسلطا حال بينه وبين الرؤية البصيرة ، والنفاذ الى حقائق تاريخ هذه الشعوب التي قهرها سياسياً وفكرياً واقتصادياً(٤) ، ففاجأنا بمزق وأسمال سماها تاريخ العالم ، لا تمثل في الحق الا نظرته الى هذه الشعوب التي غلبها واستطال عليها وود لو سحقها · يقول ارنولد توينبي : « ومن الحوافز التي دفعت الكاتب دفعاً الى ولوج هذه الدراسة ثورته على ما اصطلح عليه الناس وشاع في الغرب حديثاً وهو اعتبار تاريخ المجتمع الغربي كأنه التاريخ بصفة عامة، وقد بدا للمؤلف أن هذا الاصطلاح نشأ عن وهم التركيز على الذات ، وهو وهم وقع فيه أبناء الحضارة الغربية ··· »(٥) · ويقول ول ديورانت :

« في هذه اللحظة نرى أن التعصب الاقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان ، وتلخص آسيا كلها في سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان اخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع ، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا »(٦) • وكان تململ العالم لهذا الاجحاف الذي أنزله الغرب به ، وكان تذمره مما مُني به من الاهمال والاستخفاف والزراية يزدادان حدة ومرارة على الأيام ، وبلغ الأمر حدّاً دفع بمنظمة اليونسكو أن تتصدى لاعداد تاريخ عام لافريقيا يزيل بعض ما نابها من حيف مؤرخي الغرب وجورهم(٧) • وكان حظ العرب من هذا الحيف في كتابة تاريخهم أوفى الحظوظ • ولا يسمح المقام بسرد الأسباب واستقصاء الدوافع التي أدت الى ذلك وحملت عليه(٨) ، ولا أن أفيض بالأدلة والشواهد التي تؤيد هذا الاتجاه المريب ، وتؤذن بما اكتنف تاريخ العرب من ظلم وتنقّص بخساه حقه ومكانته على أيدي مؤرخي الغرب الذين أرخوا لبلادهم وحضارتهم ، فوفقوا وأحسنوا ، ثم جمحت بهم الأهواء حين عرضوا لتاريخ العرب(٩) ، فكانوا « يتعصبون على العرب تعصباً صريحاً في كثير من الأحيان »(١٠) • بقي علي أن أذكر أني أتحدث عن الغرب بعامة ، الغرب الاستعماري الذي سخر شعوب الأرض قاطبة لاستغلاله واستنزافه ، وكان له مفكروه وعلماؤه الذين أشرعوا أسنة أقلامهم لينصروا باطله ، ويؤيدوا عدوانه ، وراحوا يزينون في كتاباتهم أعماله السيئة الخبيثة ، ويبشرون بمزايا حضارته وحسناتها ليطمسوا حضارات الشعوب ،ويشوهوا محاسنها ، ومضوا في عناد وغرور يدافعون عن شروره وآثامه ، وما أنزله بأبناء الشعوب المستعمرة من ذل واضطهاد وقهر ، تلك الشعوب التي كانوا يصغرون من شأنها ، ويحتقرون حضارتها ، ويعملون على ازالة كل مقوماتها « ان الغرب كان كبير المعتدين في العصور الحديثة »(١١) •
ولكني لن أنسى أن ثمة ثلة كريمة من علماء الغرب ومن مستشرقيه عرضوا لتاريخ العرب بروح النصفة والنزاهة والحيدة ، وشاركوا في بعث التراث العربي وفي دراسته ، وأخلصوا للحق في عملهم ، ولن ينكر منكر فضلهم ، أو يحفي حسناتهم ، أو يجحد صنيعهم • انهم قلة نتمنى لها أن تزداد وأن يعلو صوتها على الأيام ، واننا نكبر فيهم الروح العلمية التي تحلّوا بها ، ونقدر لهم تفانيهم في سبيل الوصول الى الحق ، وان كنا لا نوافقهم دائماً على ما ينتهون اليه في دراساتهم ، اذ يبدو لنا في الحين بعد الحين وكأن الموازين القسط قد اختلت في أيديهم • وأكتفي بمثل واحد أسوقه في هذا الصدد ، كان آخر ما مر بي ، فيه الشاهد لما وراءه من آمثلة مشابهة • لقد

أثارتني حادثة الاعتداء الصهيوني على رؤساء البلديات في فلسطين اثارة بالغة(١٢) ، وطفقت أردد الفكر في هذه العقلية الاجرامية التي تميز بها رؤوس الصهيونية واسرائيل ، لا يكاد يضارعهم فيها سواهم ، وأتقصى جذورها التاريخية ، وأمسكت بالتوراة أقلب النظر في هذه الصحائف المسطورة في مثل سفر العدد وسفر تثنية الاشتراع وسفر يشوع تفيض حقداً أسود ، وتتفجر غيظاً وقسوة • وساءلت نفسي : أي عقيدة هذه التي تدعو الى قتل الآمنين الوادعين ، والى التدمير والاحراق ، لا تعرف غير السيف والدماء ، ظامئة أبداً الى الجريمة لا يروى ظمؤها ، ولا ترضى لأتباعها ومعتنقيها أن يقيموا بناءهم الا على جماجم الشعوب(١٣) ؟ ولجأت الى كتاب (قصة الحضارة) لول ديورانت لأقرأ صفحات في تاريخ هذه الشعوب التي بطش بها اليهود وأرادوا ابادتها ، وتدمير مدنها وقراها • وجدته خص اليهود في عهدهم الأول بالباب الثاني عشر من مجلده الأول موزعاً على سبعة فصول(١٤) • وكأنه حين كتب ما كتب قد خشي أن يكون أخطأ الفهم فأساء لتاريخ اليهود من حيث لا يشعر ولا يريد ، فعرض على الأستاذ هاري ولفنسن في جامعة هارفرد ما كتب ، واستجاب لنصحه وتصحيحه(١٥) • ولكنه لم يفعل مثل ذلك حين كتب تاريخ العرب وشعوب الشرق الأدنى وتاريخ المسلمين ، ولم ير العودة الى أستاذ مختص يفاوضه الرأي فيما كتب ، وفيما انتهى اليه من أحكام ، بل أباح لنفسه أن يستقل بالعبء وحده ، مع أنه بحكم نشأته وثقافته وحياته أدنى الى فهم حياة اليهود ومعتقداتهم وحضارتهم منه الى فهم حياة شعوب الشرق الأدنى والعرب والمسلمين • لا أريد أن أتوقف من كل ما قرأت في الباب الثاني عشر من مجلده الأول الا عند قوله يصف ما أنزله اليهود الذين هاجموا فلسطين بخصومهم الكنعانيين من سكان البلاد الذين حرثوا الأرض وزرعوها وعمروها فأحسنوا عمارتها : « وقتل (اليهود) المهاجمون أكثر من استطاعوا قتلهم من الكنعانيين ، وسبوا من بقي من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس : (فريضة الشريعة التي أمر الرب بها موسى) ، و (زكاة للرب) • ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلهما اثني عشر ألف رجل • ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الاسراف في القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة في تعداد القتلى الا في تاريخ الآشوريين ••• أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني ، وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذي

يبقى حياً • وبهذه الطريقة الواقعية التي لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة »(١٦) • وتلفتُ بعد ذلك أريد أن أقرأ تاريخ تلك الشعوب التي قاومت ببسالة أولئك اليهود الذين جاءوها غزاة معتدين غاصبين ففاجأتني هذه الكلمات : « وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤابيين ، والكنعانيين ، والعموريين (الاموريين) ، والادميين ، والفلسطينيين ، والآراميين في سجل البشرية الثقافي ••• ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هي نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها مثلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع »(١٧) • هذا كل ما استحقته هذه الشعوب التي بنت حضارة الانسان في فلسطين خاصة وفي بلاد الشام عامة • لم يكن للكنعانيين العظام سكان فلسطين والساحل الشامي الذي عمت مدنيتهم البحر المتوسط ، وتلألأت قرطاجة التي كانت مهاجرهم لؤلؤة هفت اليها القلوب ، ولا للآراميين موئل الثقافة في الشرق الأوسط قروناً ، اصطنعت لغتهم الجميلة البليغة الشعوب الممتدة من الهند الى أقاصي النيل(١٨) ، لم يكن لهؤلاء الكنعانيين والآراميين مكان في كتاب ول ديورانت المؤرخ المتفتح الذهن ، الواسع المعرفة ، الذي روى قصة حضارة الانسان ، والذي ألقى عن كاهله رداء « التعصب الاقليمي الذي ساد كتابة التاريخ التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان » ، ولكنه أفرد لليهود في عهدهم الأول نحو ثمانين صفحة من كتابه (الترجمة العربية) • هل مر بك مثل هذا الظلم الفادح ، أين النداء الحكيم : (وزنوا بالقسطاس المستقيم)(١٩) الذي تظاهر باتباعه وهو يبدأ كتابه ؟ لقد اضطرب ميزانه وجار عن القصد وما عدل(٢٠) • اني عرضت هذا المثل ، استقيته من مؤرخ غربي عرف بنظرته الشاملة ، وادراكه الوحدة في الحياة الانسانية ، وعرضه التاريخ على نحو تركيبي يصور مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة(٢١) ، وحاول جهده ألا يتحيز ولا يتعصب • ولكنه بحكم نشأته وثقافته وبيئته ومواريثه الأخلاقية والدينية والاجتماعية لم يستطع الا أن يجور عن القصد وينحاز، وهو يؤرخ لهذه المنطقة العربية وشعوبها • ولقد طالعتني في كتابه المذكور أشباه ونظائر لهذا الانحراف كثيرة • ان اليهود الذين اجتاحوا هذه المنطقة ، وعرفوا بجحدهم حق أهلها ، وتنكروا للصدق فيها ، لم يبلغوا مثل هذا الموقف من شعوب المنطقة ، ومن مواريثها الحضارية حين أرخوا لها في توراتهم • لقد تنكرت التوراة حقاً للكنعانيين والفلسطينيين

من سكان البلاد فجعلتهم غرباء من ولد حام بن نوح(٢٢) ، وتنكرت للشعوب الأخرى التي سكنت فلسطين أو خالطتها أو جاورتها . ولكنها لم تستطع أن تجحد كل شيء . ذكرت أن تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آت نحو جرار الى غزة ، وأنت آت نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم الى لاشع(٢٢)، اعترفت أن يبوس (أورشليم) ظلت مدة طويلة بعد اجتياح اليهود أرض فلسطين مدينة اليبوسيين ، خالصة لهم ، ليس فيها أحد من بني اسرائيل(٢٣) وقال حزقيال : « قال السيد الرب لأورشليم : معدنك ومولدك من أرض الكنعانيين ، وأبوك أموري ، وأمك حثية ... ان أمكن حثية ، وأباكن أموري »(٢٤) . لقد تناسى ول ديورانت كل المواريث الحضارية التي أخذها العبرانيون عن جيرانهم الأموريين والفلسطينيين والكنعانيين والآراميين ، وعن غيرهم من الشعوب التي خالطتهم أو جاورتهم ، وسمح لنفسه أن يتناسى تلك الشعوب فلا يذكر عنها شيئاً في كتابه(٢٥) . لا أريد أن أظلم ول ديورانت ولا أن أتجنى عليه. انه ابن الثقافة الغربية ، الابن الوفي لها : « ان للعالم الغربي وحدته في هذا التراث : في المسيحية ، وفي المدنيات القديمة لليونان والرومان والعبرانيين ، التي نمد نسبنا اليها بفضل ألفي سنة من المسيحية ... ان هذه الوحدة القائمة على العناصر المشتركة للثقافة هي الآصرة الحق بيننا على مدى قرون طويلة ... تلك الخيرات التي نشترك في الأمانة عليها : تراث اليونان والرومان والعبرانيين ... »(٢٦) . أم تراه أهملنا لأننا أهملنا أنفسنا ولم نكتب تاريخنا . أخشى أن يكون في عمله مصداق لقولة جذيمة الأبرش : « دعوا دماً ضيَّعه أهله »(٢٧) . أفلا يكون هذا حافزاً آخر من حوافز عدة تدفع لكتابة موسوعة التاريخ العربي بنظرة شاملة حية منصفة ورشيدة .

- ٢ -

ويبدو سؤال عريض : وماذا صنع المؤرخون والمفكرون العرب لكتابة التاريخ العربي ؟ وهل هناك ضرورة داعية تهيب بهم أن يتلاقوا ويتعارفوا ليكتبوا تاريخ العرب وفق الأسس التي أرساها منهج البحث التاريخي الحديث ؟

ونقول : لقد هب العرب من سباتهم على أصوات مدافع نابليون تدك القاهرة . ولم يكن العرب أحراراً حين فاجأهم الاستعمار الغربي . وقدر لليقظة العربية أن تبدأ حركتها صراعاً في داخل الدولة العثمانية لتاكيد

الذات العربية ، وقراعاً لمطامع الاستعمار الذي أعد عدته للهيمنة على الأرض العربية ، وبدأ خطوته الغادرة الأولى حين استولى على الجزائر وعدن ، وفي أقل من قرن كان قد بسط سيطرته وسلطانه على الوطن العربي يتصرف في مقدراته(٢٨) • وكافح العرب الكفاح المرير في سبيل حريتهم وفي سبيل تقدمهم • خاضوا معركة العلم والتعلم ، ومعركة التحرر ، ولم يكن بد من أن تحمل الكتب المؤلفة في التاريخ طابع هذه المرحلة النضالية ، وقد تفاوت حظها قرباً وبعداً من الروح العلمية والصدق التاريخي تبعاً للمقاصد والغايات التي كانت تتوخاها ، أو التي فرضت عليها سلطانها • لقد استلهم دعاة القومية العربية التاريخ في مؤلفاتهم وكتاباتهم فتحدثوا عن مجد العرب ، وعن مآثر الحضارة العربية الزاهرة لتكون للأجيال العربية منار هدى ، وقدوة سلوك ، وحافز نضال • وكان للتجزئة السياسية البغيضة التي فرضها المستعمر قسراً على البلاد العربية آثارها في التأليف التاريخي ، فظهر كثير من الكتب التاريخية التي تصدت لمعالجة تاريخ كل قطر من الأقطار العربية ، وكأنه وحدة مستقلة على مدى الأزمان • دع عنك تلك النزعات الاقليمية الشريرة التي بثها المستعمرون وأنصارهم ، ونادوا بها ، ودعوا اليها ، وصدر بتأييدها كتب تنضح حقداً على العروبة ، وتنفث سما • ولم يكن بد من أن تجد العقائد المختلفة ، والمذاهب السياسية في شتى اتجاهاتها صداها في التأليف التاريخي ، فسلك كل حزب منهجاً في الكتابة يعزز دعواه ، وينصر مذهبه ، ويؤيد قضيته • ثم كان للمستشرقين الذين أكبوا على التراث العربي ، ولاضرابهم من مؤرخي الغرب وباحثيه مؤلفاتهم التي حملت بصماتهم ، وعبرت عن اتجاهاتهم وأهوائهم ، وتفاوت حظها من الصدق تفاوت أصحابها يتدرجون في مواقفهم : ما بين متعصب حاقد قد أعمته عن الحقيقة أهواؤه الاستعمارية ، أو موروثه الديني المتخلف عن القرون الوسطى ، الى منصف يتحلى بالروح العلمية ، ويتصف بالنزاهة وسلامة القصد ومحبة الحق ، ويعبر عمله عن تعاطفه الصادق مع هذه الحضارة العربية العظيمة ، وان لم يكن الموفق دائماً لتبين قسمات وجهها على ما بذل وجهد •

لم يتح للعقل العربي أن يتفتح حراً طليقاً ، يتلقى المعرفة من منابعها ليبدع ، كما كان حال اليابان في نهضتها ، بل شق طريقه في زحام الكفاح من أجل الحرية والوحدة والتقدم ، وعانى من العقبات والمشاق ما يكافىء ضراوة الاستعمار الذي كان يخاصمه وهو في أوج عنجهيته

وجبروته • واستطاع العقل العربي أن يرسي دعائم النهضة العلمية في البلاد العربية ، وقامت الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية في أرجاء الوطن العربي تؤدي مهمتها • وكان للتأليف التاريخي حظه الطيب في هذه النهضة • قام مفكرون ومؤرخون قوميون يعالجون القضايا العربية القومية ، مما خلق المناخ الفكري القومي العربي ، وبدد الضياع الذي نادت به النزعات الاقليمية والتقليدية والأمية • وقام مؤرخون باحثون يضعون الأسس ، ويرسون الدعائم للتأليف التاريخي على هدي منهج نقدي تاريخي ، يسترشد بحصيلة التجربة الانسانية في ميدان الكتابة التاريخية(٢٩) • وصدرت كتب وبحوث تاريخية هامة ومبتكرة ، اضطلع بها علماء مؤرخون استلهموا هذه النزعة العلمية الجديدة التي تكتب التاريخ العربي في اطار رؤية جديدة شاملة ، رائدها الصدق التاريخي ترى فيه وحده الجمال الذي تنشده ، والحق الذي تسعى اليه ، والخير الذي تبتغيه •

وبعد ، فما دامت تباشير التأليف التاريخي قد بدأت تؤتي ثمارها ، وانطلقت الخطوات الأولى الرائدة في طريق المعرفة التاريخية العربية ، فهل بعد ضرورة لمثل هذه الدعوة التي تنادي بتكاتف جهود المؤرخين الباحثين لكتابة التاريخ العربي ؟ وأجيب بنعم • لقد كتب تاريخ الغرب المرات تلو المرات ، تضافرت الأقلام منذ عصر النهضة على تسطيره واعادة كتابته طبقاً لما تقتضيه سنة التطور العلمي وطرائق البحث • أما تاريخ العرب فلم يكتب بعد على النمط الذي تتطلبه منهجية البحث التاريخي • لم يتح بعد للمؤرخين العرب الوقت الكافي لمثل هذه الكتابة العلمية ، وعليهم أن يسابقوا الزمن ، ويطووا المراحل التي قطعها الغرب في مئات السنين منذ عصر النهضة حتى قدر له أن يكتب تاريخه • ان للتاريخ العربي من الامتداد والاتساع في الزمان والمكان ما يستدعي حشد الطاقات والخبرات تعمل بكل الجهد والصبر لتتمكن من اصدار هذه الموسوعة في التاريخ العربي • ولا بد لانجاز مثل هذا المطلب العظيم من وضع خطة علمية دقيقة تنسق العمل وتوفق بين الجهود ، وتحول دون التبدد في القدرات ، وتمنع الفوضى والخلل • من أجل هذا كله كانت هذه المبادرة العلمية التي ترمي أول ما ترمي اليه أن يكتب تاريخ العرب القومي دون اضاعة في الوقت ودون هدر في الجهود ، وما أعظمه عملا رائعاً رائداً في ميدان التأليف التاريخي العربي • كان الأسى يملأ قلبي دائماً وأنا أفاجأ بتجاهل الغرب

في مؤلفاته الكبرى لدور الحضارة العربية أو انتقاصه من شأنها ، وكنت أتطلع بعين الأمل الى اليوم الذي تكتب فيه الموسوعة التاريخية العربية بكل أجزائها وفصولها الكتابة التاريخية الناقدة ، تنبض بالحياة ، تحدثنا الحديث الصادق ، لعلها ترد الحق ، أو بعض الحق الى أهله ٠

ولكن ، هل نريد أن تقول هذه الموسوعة التي نتطلع اليها كلمة الفصل في التاريخ العربي ؟ ما أظن أحداً يطلب ذلك أو يريده ٠ انها المنطلق الذي لا بد منه ، والمتكأ الذي لا مندوحة عنه ، تضع بين يدي العربي ، وبين يدي العالم صورة تاريخ هذه الأمة العربية من خلال رؤية شاملة بصيرة ، ستغذيها من بعد وتجددها البحوث والدراسات ، وستتلوها من بعد دراسات وبحوث لا تتوقف ، فما عرف العلم التوقف ٠ وشعار المعرفة : « كم ترك الأول للآخر » يحفز الهمم دائماً لتطور وتكتشف وتتقدم ٠ وما أكثر الأسباب التي تدعو الى تجدد الدراسات التاريخية ٠ تتجدد كلما تقدمت طرائق البحث التاريخي ، بسبب تطور المعرفة الانسانية ، وظهور اتجاهات فكرية ومذاهب فلسفية جديدة ، أو بسبب تقدم المبتكرات والمكتشفات العلمية ، واختراع الأدوات التي تستعين بها الدراسة فيما يسمى بالعلوم المعينة المساعدة ٠ وتتجدد أيضاً كلما اطلعنا على صفحة جديدة من صفحات التاريخ كانت مطوية مجهولة ٠ وما أكثر الكشوف التي تطالعنا بوجوهها على مر الأيام في العالم ، وفي البلاد العربية فتغير مما كنا علمناه ، وتزيد معرفتنا بتفاصيل عن الماضي كانت مجهولة ٠

لقد قدر للانسانية في العصر الحديث أن تحظى بكشوف عظيمة رائعة ، أتاحها لها التنقيب والبحث العلمي ، ما كان يحلم بمثلها المؤرخون السابقون ٠ يقول ارنولد توينبي وهو يتحدث عن حظ الانسانية فيما تم لها من كشوف جديدة : « ولقد ذهب في الآفاق صيت العلماء الفرنسيين الذين جاءوا الى مصر مع نابليون ، بفضل كشف فذ (هو حجر رشيد) ألقى مزيداً من الضوء على قضايا التاريخ ، قدموه للمجتمع الغربي الحديث النهم الى التطلع لغزو المجهول ٠ فكان أن بعثت الى الوجود في العالم القديم منذ ذلك التاريخ ما لا يقل عن احدى عشرة حضارة بائدة ، عفّى عليها الزمن ، هي الحضارات : المصرية ، البابلية ، السومرية ، المينووية ، الحيثية ، بالاضافة الى الثقافة السندية ، وثقافة شانغ ، يضم اليها الحضارات : المايانية والياكوتية والمكسيكية والانديانية في العالم

الجديد »(٣٠) . ويقول ايمري نف : « ووسعت الكشوف الأثرية التي تمت طوال الخمسين سنة التالية في مصر وكريت وآسيا الصغرى وأمريكاالوسطى دائرة معرفتنا بالحضارات المندثرة »(٣١) . ويقول يسبرز « أعادت الحفريات أمامنا عوالم منسية . وصارت لغات ونصوص مجهولة تحدثنا منذ اليوم . وان رسوم الكهوف والتماثيل المنحوتة والأدوات لتخبرنا عن حقب لم تعرف الكتابة قط »(٣٢) . هل يعلم أحد ما يسفر عنه اكتشاف أوغاريت وايبلا من معلومات جديدة تغير في الصورة التاريخية المعروفة لشعوب بلاد الشام والبلاد المجاورة ؟ ثم هل يعلم أحد ما يسفر عنه التنقيب في البلاد العربية من كشوف جديدة في المستقبل ؟ أعود فأؤكد أن التاريخ لا يكتب مرة واحدة ، وان عوامل شتى تدعو الى اعادة كتابته لجلاء صورة الماضي على حقيقته : معرفة وقائعه المعرفة الصحيحة وادراك العوامل المحركة فيه . هذا المثل الأعلى في الصدق التاريخي الذي ينشده المؤرخ يحفزه دائماً الى تدقيق عمله واعادة النظر فيه ومراجعته على هدي ما يكتسبه من معرفة وخبرة ومعاناة يقدمها له عصره وجيله . ولن نجاوز الحق ولن نكون مبالغين اذا قلنا : ان لكل عصر تاريخه . اننا مع هنري جونسون في كلمته : « ومن النظريات المسلم بها الآن أن كل عصر يجب أن يعيد كتابة التاريخ الذي كان قد كتب في العصور السابقة ... وقد كان دائماً في تاريخ التاريخ كعلم مستقل تاريخ جديد ، جديد في تصحيحه للحقائق القديمة ، جديد في كشفه للحقائق الجديدة ، جديد في اختياره للحقائق ، جديد في قواعده العامة وفي تأملاته وفي تصوراته ... »(٣٣) . واننا مع ادوارد كار في اجابته عن سؤال ما التاريخ : « انه عملية مستمرة من التفاعل المتبادل بين المؤرخ ووقائعه، وحوار لا ينتهي بين الحاضر والماضي »(٣٤) . ولكن نقطة البدء في تقدم كتابة التاريخ العربي وتجدده وتحسنه هو كتابة الموسوعة العربية التاريخية . انها توفر الاساس الضروري لكل كتابة مقبلة في التاريخ ، منها يبدأ كل تطوير ، وبها يتيسر كل تجديد .

ان بين أيدينا التراث العريض ، والكثير الكثير مما خلفه الأجداد في مختلف ميادين المعرفة. وان الواجب العلمي، وان الواجب القومي يدعواننا جميعاً أن نضم الجهود ، لننهض بأعباء هذا العمل العلمي العظيم ، ولنضع بين أيدي أجيالنا الناشئة تاريخ الأجداد ، وقد كتبناه بنظرة ناقدة مستبصرة جادة ، وبعد قراءة جديدة ، نستنطق بها الآثار والنقوش

وما يتصل بها من مخلفات ، ونتفهم بها الوثائق والمؤلفات ، مستعينين في سبيل ذلك بكل مسعف مفيد من العلوم المساعدة والأدوات المبتكرة التي تؤازر المؤرخ في انجاز مهمته على وجه أقرب الى العلم وأرضى للحق ، مزودين في عملنا بتجربة الحاضر الواسعة ، ومعاناة وقائعه بعمقها وغناها وتنوعها ، لتتمثل لنا صورة الماضي العربي ، نستعيدها (على هدى المصادر المتوفرة ، وضمن طاقة المؤرخ) بملامحها ، ومظاهر نشاطها وحركتها على مدى الأجيال المتلاحقة ، نستمدها من هذه الأمشاج الموزعة في المخلفات والوثائق والمؤلفات التاريخية ، في الشرائع والقوانين ، في النظم الاجتماعية والاقتصادية ، في الشعائر الدينية ، في الطرائق والأنماط المتخيرة لمواجهة الطبيعة واخضاعها واستخدامها ، في الفنون ، في طرز البناء والعمارة ، في الشعر والنثر ، في الموسيقى والغناء ··· لنعيدها خلقاً سوياً ، تتلألأ بنور الحق ، ويشرق محياها بسيما الصدق ·

ثم ان هذه الدعوة لكتابة التاريخ العربي لا تعني التزمت والانغلاق، بل تتضمن التفتح على العالم والالتقاء به ، فلن يكتب تاريخ العالم بمعزل عن المسيرة الانسانية بله مسيرة الجيران · لقد كانت الحضارة العربية نموذجاً من النماذج الفريدة للتفتح والسماحة والأخذ والعطاء ، « بعثت بالحنيفية السمحة »(٣٥) · ولن يكتب التاريخ العربي ، ولن تستطاع كتابته ، الا في هذا الجو الفسيح من السماحة والتفتح والتلاقي والتفاعل مع مسيرة الشعوب في ظلال التاريخ · ما أبعدنا عن أن ندعو لكتابة تاريخ منعزل متعصب ، أو نفكر في ذلك · ما أبعد ذلك عن الروح العربية ، المفعمة بالتفاؤل والايمان بالتقدم والتعاون بين الأمم والتي يصدق عليها كل الصدق أن تقول فيها انها ترى أن « الانسانية هي الوحدة التي يدور حولها التاريخ ، لأن تضامن البشرية يجعلها مشتركة في الخبرة التي تكتسبها الأجيال السابقة · وكل مجهود يرمي الى عزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان انما يكون نتيجة عمل أبتر »(٣٦) · وأكتفي للتدليل على ذلك بالقريب القريب ، أكتفي بكلمة الجاحظ سيد كتّاب العربية : « ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه الا بهم، لقد خسّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا الى المعرفة··· وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا · على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة

أكثر مما وجدنا . فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم »(٣٧) . انها الدعوة المتفائلة بالانسان ومثله وقيمه ، ترى في التعاون بين الأمم وحضاراتها سبيل الانسان في التقدم والرقي واغناء المعرفة ، كما أن قولته : « ما على الناس شيء أضر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئاً »(٣٨) مثل لايمانه بقدرة الانسان على الابداع والاختراع والخلق . ان في كلمتي الجاحظ غنية مما عداهما في التدليل على تفاؤل الانسان العربي بالمستقبل ، وايمانه بالتقدم وان التعاون بين الأمم سبيلنا في التمكن من اكتشاف المجهول ، والتعرف على أسرار الكون ، وزيادة سيطرتنا عليه .

وليست هذه الدعوة لكتابة التاريخ العربي قاصرة على المؤرخين والمفكرين العرب لا تعدوهم الى سواهم ، بل هي الدعوة العامة لكل مؤسسة علمية أنى كانت ، ولكل باحث ملأت قلبه القناعة بالفكرة ، واطمأن الى جدواها ، ويحس في نفسه القدرة على المشاركة في هذا الموضوع الهام في حياة أمتنا العربية ، ويدرك آثاره البعيدة في تطورها الثقافي والفكري والعلمي .

أحبب بها دعوة رفيقة هادية ، تهيب بنا أن نسارع الى كتابة موسوعة التاريخ العربي ضمن هذه المنظورات والحوافز العلمية والقومية . ما أجمل أن يكون لنا تاريخنا القومي ، وما أسعدنا حين تكتحل عيوننا برؤية الموسوعة التاريخية العربية قد اكتملت . اني أراها رسالة قومية لا بد أن ننهض بها ، واني أراها رسالة علمية يجب أن نبادر جميعاً لانجازها . انها رسالة جديرة بأن تبعث فينا كل حماستنا وكل اندفاعنا ، وأن تثير فينا كل صبوتنا وكل فتوتنا . فلنقبل على أدائها والاضطلاع بها والفرح ملء نفوسنا . لقد ناط بنا القدر أن نقوم بهذه المهمة القومية والعلمية ، وما أحلاه قدراً .

- ٣ -

ورأى متحدث أن الدعوة لكتابة التاريخ العربي في هذا الوقت لم تراع المرحلة التي تمر بها الأمة العربية ، مرحلة الخطر الأكبر في حياتها ، تواجهه موزعة القوى ، على غير أهبة ولا استعداد ، تحيط بها أحوال

صعبة بالغة الصعوبــة ، وتلح عليهــا مطالب أساســية لا بد من تلبيتهــا والاستجابة لها ٠ لقد حشدت الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحـدة الأميركية وربيبتها الصهيونية كل قواها الشريرة لتشن على الوطن العربي أعتى غاراتها وأقساها عدواناً ٠ انها معركة الامبريالية الفاصلة ، بكـل ما تتضمنه مثل هذه المعركة من شراسة وقسوة ، تريد أن تمزق الوطـن العربي ، أن تنهب خيراته ، أن تشتت أبناءه ، أن تلقيهم في التيه ، يتيهون في الأرض ولا يهتدون ، أن تقتل في النفس العربية اباءها وعزتها وشممها وشموخها ، أن تنتزع منها كل أمل وكـل توق وكل تشوف وكـل نزوع الى الوحدة العربية ، أن تحرك كل النزعات الضالة، وكل الأهواء المنحرفة لتفرق وتبدد حتى لا يكون لقاء ولا اجتماع ٠ لقد صممت الامبرياليـة أن تقضي على وجود الأمة العربية ، فلا يبقى من هـذه الأمة الكريمـة العريقة الأصيلة الا شراذم مقطعة الأوصال ، وجماعات موزعة مبلبلة ، ودويلات مستضعفة مفككة قد دب اليها داء التخاذل والوهن ، وتفرقت بها الأهواء ، يناصب بعضها بعضاً العداوة والبغضاء ، ويقتتلون دون رحمــة ولابقيا ، بأسهم بينهم شديد ٠

اذا افترقــوا عن وقعــة جمعتهــم لأخـرى دماء مــا يطـل نجيعهــا

شواجـر أرمــاح تقطــع بينهــم شواجر أرحــام ملـوم قطوعهــا

وان المهمة الأولى التي علينــا النهوض بهــا أن تتجمع كل القـوى العربية ، وكل العقول والأقلام الخيرة لتخوض معركة الانقاذ والخلاص ٠ واجبنا اليوم أن نعمل ونجهد حتى يتبين العرب كل العرب ما يراد بهم وما يخطط لهم ، وحتى يدركوا الادراك العميق مــا تبيته لهم الامبرياليــة الأميركية والصهيونية من شـرور الاستئصال والتمــزق والفناء ، كـي يستفزهم ذلك أن يجمعوا قواهم صفاً واحداً لمواجهة هذه المعركة التـي تأجج أوارها ، وأن يتراصوا فيما بينهم لاحبــاط خطة الغدر اللئيمــة التي أعدتها الامبريالية والتي يلوح للرائي وكأنها في طريق النجاح ٠ ان ذلك خير لهم وأبقى من أن يبددوا طاقاتهم وقواهم في أعمــال متعـددة تحتمل الانتظار ازاء هذا الخطر الداهم الجسيم ٠

ــ والحق أن الأمة العربية تواجه خطراً ماحقاً لم تتعرض له ، ولـم تعرف شبيهاً له طوال حياتها الماضية ، على كثرة ما حل بها وما نابها من

كوارث ومصائب على مر الأيام · انه خطر الفناء أعدت له العقول الشريرة الشيطانية لتدمر هذه الأمة العربية ـ صانها الله وحفظ عليها وحدتها ـ تدميراً لا يبقي ولا يذر · انه الحق كل الحق لا مرية فيه ولا خلاف · ولكن ، أليس دعوتنا وعملنا جزءاً من هذه المعركة الضارية التي تصب حممها علينا ؟ ان الغرب حين خاض معركته الاستعمارية في بلادنا قد خاضها في كل الميادين ، واستطاع بوسائل شتى اصطنعها أن يعبث بتراثنا ، وأن يشوه تاريخنا ، وأن ينال من حضارتنا وثقافتنا ، وأن يشكك بقيمنا ومثلنا وأخلاقنا ، وأن يضائل من دورنا في المشاركة الحضارية الانسانية ليحط من شأننا ، ويضعف من ايماننا بذاتنا وأمتنا وقدراتنا فلا نقوى على المقاومة والجلاد · غايته التي يرمي اليها أن يزرع اليأس والقنوط في نفوسنا ، أن يثبط من عزيمتنا ، ويفلل همتنا ، فنستسلم له دون تأب ، ونلقي بأيدينا لما يراد بنا خاضعين خانعين ، لنظل قابعين على هامش التاريخ ، لا نشارك فيه ولا نصنعه · أفليس من مهامنا الأساسية في هذه المعركة التي يؤرث الاستعمار الأميركي والصهيوني نارها ، والتي يجب علينا أن نخوض غمارها في جميع جبهاتها أن نرفض الاستسلام لأكاذيب الغرب ، ونأبى التسليم بما قاله في حق أمتنا وحضارتنا وتاريخنا ، وأن نعيد النظر لنقرأ تاريخنا بكل صفحاته : المتألقة الزاهية ، والداكنة الباهتة ، قراءة جديدة متبصرة ، على هدي النهج العلمي النقدي الذي أرساه علماء التاريخ ورجال الفكر الكبار · لقد خلف لنا الأجداد مادة ووثائق ومؤلفات وفنوناً وصناعات وآداباً لعلها من أغنى الثروات التي تعين المؤرخ في عمله · ونحن على ثقة من أن الأيام المقبلة حافلة بالجديد الغني من المكتشفات والوثائق والمؤلفات التي تنير جوانب من تاريخنا جديدة ، وتطل على آفاق كانت لنا مجهولة · ولكن هذه الثروات الثمينة الغالية التي خلفها الأجداد لها حسناتها ومزاياها ولها عيوبها وآفاتها · انها ابنة عصورها ، موسومة بطابعها ، تحمل أهواءها ونزعاتها ، وفيها خيرها وشرها · وليس هنا موضع الحديث عن المحاسن والمساوىء التي تكتنف تلك المادة التاريخية ، فذلك من شأن الباحث المؤرخ ذي الرؤية البصيرة ، والحس التاريخي ، والنظرة الناقدة النافذة ، والموهبة الفذة في التهدي الى المهم من الأحداث ذي الدلالة ، يسترشد في عمله بحصيلة ما أسفرت عنه مذاهب النقد التاريخي ، وما انتهت اليه رؤى الفلاسفة واتجاهات المفكرين ، فهو يستوحيها ويستمد منها ، ويمضي في كتابة التاريخ العربي على هدى

منها وبصيرة ، بعقل عالم عميق الادراك ، محيط ، متفتح على أنواع المعارف ، ومخيلة شاعر مرهف الحس صادق الحدس ، وقد امتلك رؤية موحدة لتاريخ بلده ، وعرف موقعه الحق من تاريخ العالم ، تفتنه الحقيقة وتستأثر به ، ويؤرقه هم الوصول اليها ، فهو بادي الحماسة ، قوي العزيمة ، شديد الاندفاع في عمله ، يصطنع الأساليب والقواعد العلمية ويتقيد بها ، ويقلب الوسائل المختلفة ليفهم الوقائع التاريخية على وجهها الصحيح ، ويتبين الأحداث على حقيقتها ، ثم يسطر التاريخ العربي كما تبدى لـه حقـاً وصدقـاً .

فاذا كنا نحب لتاريخنا أن يكتب على حقيقتـه ، واننا لنحب ذلـك ونؤثره ، لأن أجمل ما في الحياة أن نتعرف الى الحق ، فان حافزاً آخـر ينضم الى سابقه ، يحدونا أن نسارع في انفاذ ما نحب ونؤثر وهـو أن تاريخنا الذي لم يكتب بعد على حقيقته قد أنشب فيـه الغرب مخالبـه افساداً وتمزيقاً ، وأفاد من عيوب المؤلفات القديمة ليسوّد صفحات هذا التاريخ ، ويشوه معالمه ، ويفسد قيمه ، يبغي من وراء ذلك أن يفقدنـا الثقة بماضينا ، لنفقد الثقة بأنفسنا ، ويتسرب اليها الوهن واليأس . ما أسعدنا يوم نستطيع أن نقلب صفحات الموسوعة التاريخية العربية ، نتنزه في رياضها ، ونتعرف ماضينا يتلألأ بنور الحق ، وبنور الحق وحده . تحضرني دائماً كلمات يعقوب بركهارت في كتابه : (أفكار في تاريخ العالم)، يقول : « يجب على العقل أن يحول ذكريات تنقله خلال عصور العالم الى شيء يملكه ، فمـا كان ذات يوم فرحـاً وحزناً يجب أن يصبـح اليـوم معرفة ... ان دراستنا ليست حقاً وواجباً فحسب . انها حاجة قصوى ، انها حريتنا بادراكنا العبودية العامة وتيار الضرورات »(٣٩) . وما أشد أمنيتي أن نطبق ذلك في كتابة تاريخنا العربي ليصبح لنا كل ما مضى من وفاق وخصومة ، وتلاق وافتراق ، وسلم وقتال ، معرفة ترفعنا الـى جو الحرية والعمل للمستقبل ، بدل أن نظل مستعبدين موقريـن بأعبـاء ما جرى في الماضي . لعل كتابة التاريخ كتابة صحيحة وسيلة من أفضـل الوسائل تهدينا الى ذواتنا ، وتحفز فينا الهمة أن نندفع لبناء مستقبل أفضل . أسمح لنفسي هنا أن أستعير كلمات ارنست كاسيرر أدلل بها علـى ما أردت من بيان ما لكتابة التاريـخ العربي من شأن كبير في حياتنـا . يقول : الفـن والتاريخ أقـوى أداتين تعينـان على البحث في الطبيعـة الانسانية . ماذا كنا نعرف عن الانسان دون عون من هذين المصدريـن

للمعرفة ؟ ... ولكي نجد هذا الانسان (الفرد الواقعي) لا بد من أن نذهب الى المؤرخين الكبار والشعراء العظام ... ليس الشعر محض محاكاة للطبيعة ، ولا التاريخ سرداً لأعمال وأحداث ميتة . الشعر والتاريخ كلاهما قانون معرفتنا الذاتية ، وأداة لا غنى عنها لبناء عالمنا الانساني »(٤٠) . من منا لا يتمنى أن يعرف ذاته ، وأن يقع على الصدق التاريخي وهو يتملى قراءة التاريخ . اني لأنتظر ، باللهفة والشوق ، اليوم الذي أقرأ فيه تاريخ بلادي وقد كتبته أيد نزيهة وعقول بصيرة استشفت روحه وتمثلت مآتيه ، وعاشت مع صانعيه ، وأحسنت التعرف الى حضارته ، كتبته لا بروح التشاؤم أو التفاؤل ، ولا بروح التمجيد والاشادة أو التجريح والتقليل ، ولكن بروح المعرفة وحبها والتعلق بها .

ما أجملها فرحة غامرة أن يطالعك الماضي ، ماضي أمتك ، حياً يتحرك على صفحات كتاب ، يقص عليك بالصدق أنباء ما سلف ، دون تزيد أو مبالغة ، ويقفك على الحقيقة دون توشية ولا أصباغ . انه حقاً التاريخ الخلاب ، يطلعك على ذاتك ، ويعرفك بنفسك ، ويجعلك أكثر انغراساً في أرضك ، في تربتك ، وأشد تعشقاً لوطنك . وهل ينفصل الحاضر عن الماضي(٤١) ؟ « اننا لا نستطيع أن نعيش وأن نعمل وأن نساير الزمان الا اذا احتفظنا بالتضامن الوثيق مع الماضي ... وبدون التاريخ لا تستطيع مجموعة من الناس التعرف الى شخصيتها ، ولا يتكون عندها وعي يجمع تراثاً مشتركاً جديراً بانتباه الناس . لا يقي الناس من النسيان سوى التاريخ ،وبدونه لاتنسجم الأجيال المتعاقبة كأنها رجل واحد تلقنه الدهور دروساً دائمة ، على حد تعبير باسكال . لذلك نصم بالهمجية تلك الشعوب التي تفتقر أشد الافتقار الى ذكريات ماضيها ، وتنحصر أساليبها المعيشية في بعض ممارسات تقنية لا يجدون لتحسينها سبيلا بسبب ما يجهلون من أصولها التاريخية العميقة الجذور »(٤٢) . مثل هذا التاريخ يبدو لي كأنشودة أحن الى سماعها ، أتمنى أن أتغنى بها . تستخفني ، وأنا أطالع بعض صفحاته هزة طرب كتلك التي أحسها وأنا أترنم بملحمة جميلة من ملاحم الشعراء الخالدين . ألم يقل رانكه من قبل وقد شاهد روايات والتر سكوت : ان الحقيقة التاريخية أجمل كثيراً وأمتع كثيراً من القصص الرومانسي(٤٣) .

اني أرى أن الدعوة لكتابة موسوعة التاريخ العربي تستجيب لدواعي المرحلة النضالية القاسية التي تمر بها الأمة العربية ، بل هي سلاح ماض

من أسلحة هذه المعركة يفل من السلاح الكاذب الذي شهره عدونا علينا ، بل ويعزز قوانا ، ويشد من عضدنا • انها دعوة علمية وقومية ونضالية في آن واحـد •

- ٤ -

ويتشقق عن هذا السؤال الذي بدأنا به الفقرة الثالثة سؤال ثان يجاوره يقول : أليس من الخـير أن نتطلع الى بنـاء المستقبل ؟ مالنا وللتاريخ ؟ مالنا وللماضي ؟ هذا الماضي الذي يختلط فيه الحسن بالسيء، وتتراءى فيه الى جانب الصحائف البيض صحائف سود تمـور بالقسوة والتعصب والجهل والجمود • لندع كل ما يشدنا الى الماضي • وهل تاريخ الأمم الا مزيج من الكبرياءوالتعالي والغطرسة والأكاذيب والتمجيد التي يمليها الغرور القومي والأثرة والتعصب المقيت ؟ لننس الماضي ولنطـو بساطه بكل ما فيه ، ولنتجنب نبش ما يثير العداوة والحزازات • اننا شعب عاطفي تستثيرنا الذكريات ، وتفعل في نفوسنا فعلها الكبير ، فلنمض الى الأمام ، ولنول وجوهنا شطر المستقبل ، ولننطلق بكل العزم تحدونا الرغبة الصادقة والارادة المصممة لبناء حياتنا المقبلة بناء يلبي مطامحنا ويستجيب لتطلعنا • لا نريد ماضياً عبئاً يبهظ كاهلنا ويعوق اندفاعنا • وأي عبء أثقل من تاريخ يجرنا الى الخلف ، ويحبب الينا الاستراحـة في ظلاله ، ويحجب عنا رؤية المستقبل ومطالبه ، ويصرفنا عن الدأب في سبيل التقدم والابداع لنحتلمكانتنا بين شعوب الأرض التـي سبقتنا في مضمـار الحضـارة ؟

ان مثل هذا السؤال أو التساؤل ليذكر بثلة من الفلاسفة والمؤرخين نظروا الى التاريخ نظرة متشائمة ، وحكموا عليه الحكم القاسي • يرى نيتشه في كتابه (أفكار في غير أوانها) أن الحس التاريخي خطر كمين في الحياة الحضاريـة ••• وان التاريخ يعـوق طاقـات الحياة ، وبافـراط التاريخ أصبحت حياتنا كسيحة منحطة ، لأنه يعوق الدافع القوي الـى أعمال جديدة ويشل العاملين • ان الحس التاريخي الجامح اذا اندفع الى نهايته المنطقية اقتلع جذور المستقبل(٤٤) • ويقول بول فاليري : « التاريخ أخطر العقاقير التي استحضرتها كيمياء العقل • ان خواصه معروفة جيداً: انه يثمل الشعوب ويولد فيها شتى الأحلام والذكريات الخاطئة ، ويبالغ في رد فعلها ، ويبقي جروحها القديمة حية لا تندمل ، ويزعجها في راحتها ، ويذهب بها الى هذيان العظمة أو الى هذيان الاضطهـاد ، كما يجعـل

الأمم فظة لا تحتمل ، ومتغطرسة متكبرة »(٤٥) • ولعل المفكرين الفرنسيين اندره جيد وجول رومان لا يبعدان كثيراً عن مثل هذا الموقف حين آشاحا بوجهيهما عن التاريخ اعراضاً وازدراء(٤٦) •

ـ لعل من المستحسن أن نمضي بالحوار في هذه المسألة الى نهايته التي بلغها قبل أن نبدأ الاجابة • لقد حرك الحوار أحد المتحدثين ليتناول مضمون تاريخنا الماضي ، يعرضه كما عرفه وتراءى له من قراءاته طالباً وشاباً • كان يتسخط الماضي العربي ، ماضي الخلفاء والملوك ومن يلوذ بهم من الوزراء والبطانة ، ويندد باساءاتهم ، ويتكره فعل المؤرخين الذين صاغوا الثناء عليهم كذباً ورياء ، يرميهم كلهم بكلمة أحدهم وقد سئل عما يعمله فقال : « أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها »(٤٧) • وكان يذكر بتبرم وأسى تلك الخلافات الماضية وما جرت اليه من اقتتال وحروب ، ومن تناكر وتنافر ، وانقسام وفرقة أعقبت ضعفاً وذلا • ثم يشتط به الحديث لينتقل الى التسخط على العلوم والفنون والآداب العربية التي لم تجار مبدعات الأمم العظيمة ومبتكراتها ، وغلب عليها النقل والتقليد • وكان يرى من الخير أن نسدل الستار الكثيف على الماضي حتى لا تصيبنا عدواه ، وينتقل الينا عقمه وجموده • اننا نناضل من أجل الوحدة والحرية والتقدم للتخلص من موروث الماضي المتخلف ولا نريد أن ننظر الى الوراء خشية النكوص •

ـ وأبدأ قولي بأن التاريخ خدين الأمم والشعوب • وهل تجد شعباً لا يقص عليك حكاية تاريخه ولو أوغلت في الخرافة والأسطورة ؟ ان أول ما يلفت النظر أن شعوب الأرض التي شاركت في صنع مدنية الانسان قد عنيت بتواريخها وتناقلتها ، وسعت لتخليد مآثرها ، كما عنيت بمعرفة تاريخ الشعوب التي تدنو منها أو تبعد عنها ، بذلت في ذلك وسعها ، ونال التأليف التاريخي جانباً من اهتمام الأمم ، وحظاً من رعايتها • وظل ذلك ديدنها على مر الأيام والدهور • ثم كان أن طغت العناية بالتاريخ والاكثار من التأليف فيه في القرن التاسع عشر والقرن العشرين طغياناً ما عرفته البشرية من قبل « ان حرية البحث التاريخي وتوفر وسائله زادت زيادة ضخمة في القرن التاسع عشر ، كما أن ما اجتمع له من الفرص تواصلت زيادته بغير انقطاع • وأهم ظاهرة نتبينها في الدراسات التاريخية العصرية ليست مناهجها ، وانما هي مجالها الضخم الاتساع »(٤٨) • بل ان الشعوب التي حرمت من تاريخ طويل حافل تجهد وتجاهد لتصنع لهاتاريخاً وماضياً •

ان هذه الظاهرة توحي بالحاجة العميقة الأصيلة الى التاريخ التي تستشعرها الشعوب ، وأنها لا تستغني عنه(٤٩) ٠ واذا تجاوزت الحديث عن طبيعة التاريخ البشري وعن المعنى أو المعاني التي له ، اذ أنها ليست من همي في هذه المجالة(٥٠) ، فلا بد من أن أشير الى أن كثيراً من الذين يتحدثون عن التاريخ العبء هم أولئك الذين ما زالوا أسرى النظرة القديمة الى التاريخ ، يرون في التايخ سير ملوك وأباطرة ، وسلاسل حروب ومنازعات ، ومعارض تمجيد لقوم واستخفاف بآخرين ، لم يتبينوا بعد الخطوات الفسيحة الناجحة التي خطاها التأليف التاريخي٠ لقد تحققت نقلة كبيرة في الميدان التاريخي ، وأصبح المدى الذي قطعه مؤرخو الغرب في صناعة التاريخ بعيداً حين نريد الموازنة بين مؤلفاتهم والمؤلفات التي كتبها مؤرخو اليونان والرومان ومؤرخو القرون الوسطى ٠ لم يبق التاريخ أحداثاً تتوالى تحكي رغبات الملوك والطغاة ، ولا سير الزعماء والرجال العظمام ، ولكنه تاريخ الحضارة ، حضارة الانسان ، يعني بحياة الجماهير التي صنعت التاريخ ،(٥١) ، ويكشف عن تيار الحياة المستسر الفاعل المؤثر في الأحداث ، ويهتم بدراسة جوانب الحياة المختلفة التي تكون بمجموعها وحدة متلاحمة لا تقبل الانفصام ٠ نقرأ في التاريخ قصة الفكر ، وجهود الانسان في تشييد الحضارة ٠ ويعرفنا المؤرخ برؤيته البصيرة ، وفطرته التاريخية المدركة ، وموهبته اللماحة ، وقدرته على التقصي ، ومهارته في الاستنباط ، المعاني الكامنة وراء الأحداث والظواهر ٠ قد تلمح عينه النافذة قناة من قنوات الري ، أو سداً مهدماً ، فيستوقفه ذلك ويستأثر باهتمامه مثل ما يستوقفه قصر الحمراء أو جامع قرطبة ، ويستخرج منه معاني حضارية تدلنا على جهود الانسان العربي وطريقته التي اصطنعها في الري والزراعة ٠ لقد أصبحت مهمة المؤرخ الأولى فهم الدلالة الانسانية للأثر ، « أن يجد الانسان خلف كل وثيقة »(٥٢) ٠ أليس مثل هذا التاريخ الحضاري الذي يحكي قصة معاناة الانسانية خلال مسيرتها الطويلة ، ويعرض التضحيات والجهود التي قدمتها في سبيل التقدم والرقي ، وسيلة بالغة الجدوى في تثقيف الانسان ، وفي اغناء فكره ؟ ألا يساعده في تبين الطريق الصاعد الذي تسير فيه الحضارة الانسانية ، وفي التعرف الى أسباب السقوط والتردي ، أو التوقف والجمود ٠ ألم يختر مؤرخ عربي لكتابه عنوان (تجارب الأمم) للتدليل على الدور الكبير الذي يضطلع به التاريخ ، حين يعرفنا كيف عاش الناس قبلنا ، والتجارب التي عانوها ، مما يضيف خبرة الى خبرتنا

« وهكذا نعيش أعماراً كثيرة اذ نحن نضيف الى عمرنا أعمار من سبقنا من الناس »(٥٣) . « ان فهماً جديداً للماضي يمنحنا في الوقت نفسه استشرافاً جديداً للمستقبل ، وهذا بدوره يغدو حافزاً في الحياة الفكرية والاجتماعية »(٥٤) . لقد تحدث المؤرخون والمفكرون والفلاسفة على مدى الأيام عن فوائد التاريخ وعظيم جدواه ، ولن نردد هنا ما قالوه في هذا الباب(٥٥) . ولكن لعله يحسن أن نشير هنا الى أن بعض المؤرخين قد يسيئون استخدام التاريخ ، ولا يلتزمون بالقواعد والسنن التي تتطلبها كتابته ، ومثل هؤلاء المؤرخين الذين يتنكرون لواجبهم ، ولا يؤدون الأمانة التي نيطت بهم ، يقدمون في مسلكهم المعوج ، وجنوحهم عن الطريق السوي ، المآخذ التي يعاب بها التاريخ ، وهو منها براء . يقول جوزف هورس : « قد ينحرف بعض المؤرخين عن سواء السبيل ، اذ يحكمون نظرياتهم على تيار الحوادث ، ويفسرونها بما يشاء لهم هواهم . حينئذ يقع الخطأ على المؤرخين لا على التاريخ . وهم في ذلك يسيئون الى نظريتهم بدلا من أن يخدموها . وقد كثر عدد الذين نبذوا التاريخ لعدم تمييزهم بينه وبين المؤرخين ، وكان من جملة هؤلاء بول فاليري نفسه في (الاتهامات) الشهيرة التي وجهها الى التاريخ »(٥٦) .

ـ ان مثل هذه النقلة الكبيرة في كتابة التاريخ التي تمت في الغرب ، لم تجد ما يماثلها في التاريخ العربي . ما زلنا نعاني من هذا العجز الواضح في رسم الصورة الصحيحة لتاريخنا التي تتطلبها مناهج النقد التاريخي ، وما زلنا نفتقد الأقلام التي تنصرف لمعالجة تاريخ الأمة العربية على هدي الطريقة التاريخية العلمية . نعم ، ان هناك محاولات جديدة في ميدان كتابة التاريخ العربي موفقة ناجحة ، أفضت الى جملة دراسات تاريخية تستجيب لمتطلبات المرحلة، ولكنها قليلة متفرقة نرجو أن تكون تباشر الصبح الذي نتطلع اليه . ان مبادرة جامعة دمشق في الدعوة لكتابة التاريخ العربي انما تنبثق من شعورها بالتبعة العلمية وبالتبعة القومية التي يجدر بنا أن نضطلع بها في هذا الميدان العلمي الهام .

هل يمكن ، وهذه نظرتنا الجديدة التي ندعو اليها في كتابة التاريخ العربي ، أن يكون التاريخ عبئاً يبهظنا بأثقاله ، ويشل حركتنا . ان هذه النظرة الانسانية الحضارية التي ندعو اليها ونتمسك بها في كتابة التاريخ العربي لن تكون الا حافزاً يحدونا للعمل ، ويستثير فينا الرغبة للحاق بركب الحضارة ، ويدفع بنا الى التقدم والابداع وبناء المستقبل المشرق .

لن أفيض في تفصيل هذه النقطة الهامة ، فقد سبق الى معالجتها المعالجة الضافية واستوفى جوانب القول فيها الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق في كتابه الشهير : نحن والتاريخ(٥٧) ، « فعسى أن تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل ايجابي مستمر ، وعسى أن تكون تحدياته لنا دوماً حافزة مستثيرة ، وردودنا عليها رفيعة مبدعة ، وعسى أن نتمكن في هذا الظرف العصيب من حياتنا من أن نرد على تحديه الضخم بأصفى ما نمتلك من فكر ، وأنفذ ما نقدر عليه من عمل ، وأروع ما نحن أهل له من خلق وابداع »(٥٨) ٠

ـ وتبقى لي كلمة أهمس بها لأولئك المتشائمين الذين تحدثوا عن التاريخ العربي بتسخط ، وألقوا على تراثهم العظيم نظرة استخفاف ٠ ان مثل هذا الموقف يعود جله في رأيي الى أمرين :

أولهما الطريقة الخاطئة المتبعة في كتابة التاريخ العربي ، وعمودها أعمال الملوك والأمراء السياسية ومنازعاتهم وحروبهم ، لا يشفع بها وصف الجهود المثمرة الطيبة التي بذلتها جماهير العلماء والأدباء والفنانين والصناع والعمال والفلاحين في تشييد الحضارة العربية في المجالات المختلفة ، وهي طريقة تسللت الى الكتب المدرسية أيضاً ، فخلفت في نفوس الناشئة بتجاهلها الموقف الحضاري العربي جملة ، واغراقها في تفاصيل النزاع والتخاصم والتنافس بين الأمراء والحكام مثل هذا الانطباع السيىء ٠ ولعل مما عزز مثل هذا الموقف وقوّى أثره سهولة اطلاع الشبان على كتب التاريخ العربية القديمة التي عنيت أول ما عنيت بأخبار الملوك والرؤساء طبقاً لما فرضته طبيعة المرحلة السابقة في منهج كتابة التاريخ ، يضم الى ذلك الأسلوب الذي كان ينهجه بعض الأدباء والشعراء في التجني على عصرهم ، والتشكي من سيئات جيلهم ، تعبيراً عن تذمرهم ، وتنفيساً لكربهم ٠ كل هذا سمح لمثل هذه الأفكار الخاطئة أن تتسلل الى نفوس الناشئة العربية التي أُشربت حب المثل العليا ، وتطلعت الى الحق والعدل ، فهم يتداولونها فيما بينهم وكأنها أمر مسلم لا يرقى اليه شك ٠

والأمر الثاني : الكتابات الحاقدة المضللة التي ألفها الباحثون الغربيون والمستشرقون بوحي من الاستعمار ، ودفاعاً عن مصالحه ، والتي ارتدت في ظاهرها ثوب البحث العلمي لتقنع العقول ، وتنسرب في النفوس ،

وقد نالوا في كتاباتهم من العقل العربي والثقافة العربية والحضارة، فرموا العقل العربي بالعقم والتقليد والعجز عن الابداع ، وجعلوا التاريخ العربي معرض أحداث تافهة ، تتحكم في مسيرته الأهواء، لا الأفكار والعقائد والنظم والشرائع • وبالغوا في اظهار الخصومات والتنازع والاقتتال بين العرب ، وأطالوا في وصف الملل والنحل ، وكبروا الصغير ، وكثروا القليل ، ووقفوا فأطالوا الوقوف عند الحدث الشاذ والأمر النادر يريدون أن يجعلوا منهما الشائع والمألوف في المجتمع العربي ، ليخلصوا من ذلك كله الى مفهومات عجيبة غريبة عن الأمة العربية وجبلتها وسجاياها ، من مثل أن الشقاق طبع فطر عليه العرب ، وفهموا كلام ابن خلدون على غير وجهه ليعززوا رأيهم • واقتبس عدة من الباحثين العرب مثل هذه الأقوال ، قصد اليها بعضهم قصداً ، واغترف منها بعض دون أن يدرك مراميها البعيدة ، مما أتاح لها أن تجد شيئاً من القبول لدى فئات من الفتيان والشبان العرب • وساعد على مثل هذا القبول الواقع المر الذي تعيشه الأمة العربية التي فرضت عليها الامبريالية التجزئة البغيضة والتخلف ، وقاومت بضراوة كل محاولاتها من أجل التوحيد وأحبطتها(٥٩) •

ـ اني ، والحق أقول ، لم أفاجأ بما قاله صاحبي وهو يحاورني متسخطاً على التاريخ العربي ، وان أحزنني قوله ، فقد كنت سمعت مثله من أبناء قومي غير مرة • بل ان مثل هذه الأفكار يعود الى زمن أقدم ، وقد عرض لمثله الأستاذ الكبير ساطع الحصري في محاضرة له ألقاها في نادي المثنى ببغداد ، وتحدث عن أولئك الشبان الذين ينظرون الى التاريخ العربي باستخفاف ليستخرجوا منه أحكاماً تثبط العزائم ، وتؤدي الى اليأس والقنوط • وبين بعد ذلك بحصافة الحكيم واطلاع المؤرخ ومعاناة المفكر القومي خطأ تلك النظرة المتسرعة التي لم تبن على أساس من الحق والواقع • ولقد كفاني فيلسوف القومية العربية الاجابة عن هذه الفكرة ، وقال فيها الكلمة الفصل(٦٠) •

ألا يدعونا مثل هذا الموقف الخاطىء تقفه فئات من ناشئتنا العربية ازاء تاريخنا أن نسارع في الدعوة لكتابة موسوعة التاريخ العربي ، تتكاتف في اخراجها جهود جميع المؤرخين العاملين في هذا الميدان ، وتتلاقى على صياغتها العقول الذكية المؤمنة بأمتها وتاريخها ، لتكون أحد المنجزات العلمية الهامة في نهضتنا الثقافية الحاضرة •

ويقتضيني البيان أن أقف قليلا عند كلمة قالها أحد المفكرين : « على كل أمة أن تنسى قسماً من تاريخها »(٦١) • ان موسوعة التاريخ العربي لن تهمل ولن تنسى • ستكون مخلصة لروح المنهج العلمي ، ففيه نجاة لها ، ونجاح في تأدية رسالتها ، وتحقيق هدفها • وهذا لا يمنع أن يكون للمؤرخين والمربين الكبار ، الذين يؤلفون الكتب المدرسية لطلاب المرحلتين الابتدائية والثانوية طريقتهم في التأليف المدرسي ، يستوحون فيها مبادىء التربية القومية والعلمية ، حين يقرون مناهج مادة التاريخ وأسلوب كتابتها والغاية المتوخاة منها(٦٢) •

– ٥ –

وقال قائل : ان كتابة موسوعة التاريخ العربي شيء جميل مستحب ، نقابله بالرضا والترحيب • ولكن ، هل يحسن ببلد ناشىء نام من بلدان العالم الثالث أن يتصدى له قبل أن يستكمل المقومات العلمية الضرورية التي تتطلبها النهضة • ان مثل هذا الموضوع يأتي في نهاية سُلم الأفضليات التي نعمل بدأب لتحقيقها • ان على العالم الثالث ، بمختلف بلدانه ، أن يجهد ويجاهد لتثبيت دعائم النهضة العلمية التقنية ، واللحاق بالركب العالمي المتحضر ، بعد أن عانى ما عاناه من السيطرة الاستعمارية الغاشمة التي نهبت ثرواته وأرزاقه ، واستنزفت موارده ، وسلبته خيرة أبنائه قتلا وسجناً وتشريداً في الماضي ، واغراء بالحياة الرخية والعيش الهنيء خارج وطنه في الحاضر • علينا أن نبذل المزيد من العرق والجهد ، ونتفرغ للعمل في المختبرات والمصانع ، ونعكف على البحث العلمي عكوف عابد ناسك ، من أجل تحقيق التقدم العلمي والتقني والصناعي ، وسيلتنا الأولى لتلبية حاجات المواطنين الضرورية ثم الكمالية من بعدها • يجب أن نوجه الاهتمام ونشحذ العزم لبلوغ الهدف في هذه المهمة الوطنية الغالية ، وأن نوفر كل نفقة نستطيعها لنمضي في هذا الطريق حتى نرسي الأسس الوطيدة لمجتمع الكفاية والعدل • ويأتي بعد ذلك كله التفكير في كتابة موسوعة التاريخ العربي • فهناك المهم وهناك الأهم ، وتطوير الحياة العلمية هو الأهم لأنه الطريق الوحيد لمجتمع الكفاية والعدل الذي يفضي بنا من بعد الى مجتمع الازدهار والرفاهية •

ـ لعل قارئي يدرك لأول وهلة ضعف الفكرة ووهن سندها ، وما دفعني الى اثباتها الا الحرص على الالمام بكل الأفكار التي طرحت

في المجلس وتناولها شهوده بالنقاش والبحث · ان من أبرز سمات التقدم الانساني الشمول ، لا يقتصر على ناحية واحدة يقف عندها ، لا يعدوها ، بل يمتد الى جوانب الحياة الأخرى · فاذا حقق الانسان فتحاً من فتوح العلم والمعرفة في ميدان من ميادين الحياة استدعى ذلك بالضرورة أن يتبعه على التو ، أو على مهل ، تقدم في الميادين الأخرى ، فتلك سنة الحياة الانسانية التي مضت عليها · ومن الحق أن وسمت عصور في تاريخ الحضارة بسمات خاصة عرفت بها فقيل : عصر الايمان ، وعصر النهضة (أو البعث) ، وعصر التنوير (أو العقل) ··· ، وقيل : عصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الثورة التكنولوجية ··· ولكنها السمة الغالبة تكتفي بالصفة الفكرية التي رجحت على سواها في العصر فسمي بها، أو تذكر أبرز حدث (اختراع) اهتدى اليه الفكر الانساني وكشف عنه في عصر من العصور فسمي به تنويهاً لا قصراً ، فالحياة أرحب من أن تضيق ليقف تقدمها عند جانب واحد لا تتجاوزه ، بل لعلها لا تقبل الا أن يتم التقدم في مختلف الجوانب · نعم ان التقدم قد يسرع في جانب ، ويبطىء في جانب ، يستجيب في ذلك لحاجات المجتمع ومتطلباته ، ولمبدعات العقل ومنطلقاته ، ولكن الحياة ، في كل حال ، لا تهمل جانباً من جوانب التقدم ، أو تغض الطرف عنه حتى يذوى ويذبل · وما دام التقدم دين الحياة وديدنها فلن يمضي في طريقه القاصد الا اذا شمل جميع جوانب المعرفة · وبعد ، فهل عرفت الدنيا أمة نهضت وبلغت أوج ازدهارها العلمي والصناعي دون أن يرافق نهضتها العلمية نهضة في الجوانب الانسانية : في الفنون الجميلة ، والآداب ، والموسيقى ، والعلوم الانسانية ···

ان كتابة التاريخ العربي كتابة عصرية مستوحاة من مناهج النقد التاريخي ، تجلو حقيقته ، وتزيح هذه الأقنعة التي تحجب وجهه لأمر في صميم التقدم والنهضة ، وهي الى ذلك تورث القراء الذين يصاحبون المؤلف ويتابعون معاناته ، النزاهة الفكرية والشجاعة الخلقية ، وهما ما هما رتبة ومكانة في أخلاق الشعوب · دع عنك ما يخلفه التاريخ في نفوس الأجيال العربية الناشئة · انه يبعث الحماسة ويطلق الطاقات الكامنة الحبيسة · ولا ينكر أحد ما للحماسة والاندفاع من بعيد الأثر في التقدم والابداع وصناعة المستقبل المشرق الزاهر ·

- ٦ -

وبقيت بعد ذلك تساؤلات ترى أن المشروع بالغ الضخامة ، واسع الجنبات تقف أمام تحقيقه العوائق الجمة التي قد نعجز عن تذليلها والتغلب عليها ، ومن الخير ألا نقدم على مثل هذا المشروع وهذه آفاقه الممتدة • لقد جرت محاولات سابقة لتحقيق مثل هذا المشروع المحبب الى قلب كل عربي ، فوقفت في طريقها الصعاب والعقبات ، ولم يقدر لها النجاح • والحكمة العربية تقول : « السعيد من وعظ بغيره »(٦٣) • والحق أن ندوة دمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الأول ١٩٧٧) ليست أول من فكر ودعا الى اعادة كتابة تاريخ العرب ، وان كانت هي الأولى ، فيما يبدو لي ، التي تناولت الموضوع في جدية بالغة ، ودراسة معمقة ، ورسمت له خطوطاً أساسياً ، وارتضت ، بعد مناقشات غنية المحتوى ، أن « تجري كتابة تاريخ العرب ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بأسلوب البحث العلمي »(٦٤) • لقد كان اعادة كتابة تاريخ العرب طبقاً لمناهج النقد التاريخي الحديث حلم جيلنا العربي ، وبديه أن تتكاثر المقترحات الفردية والجماعية التي تقدم في هذا المنحى ، تأمل أن تقوى على تلبية هذه الرغبة العميقة في نفوس الجيل ، وأن تنجز هذه المهمة العظيمة العلمية والقومية والنضالية في آن واحد • ولئن لم يقدر لهذه المقترحات أن تبلغ الهدف ، وتحقق الغاية التي تصبو اليها ، ان هذا كله لا ينهض دليلا للتشكيك في صحة الفكرة ، أو لاثبات العجز عن تحقيقها ، بل لعله يزيدنا ايماناً وحماسة لمتابعة الخطا كي نبلغ الهدف ، ولعله يغني تجربتنا حين نتبين الأسباب العميقة التي حالت دون انجازها في الماضي • ما زلت أذكر ذلك الصباح الجميل ، حين كنت أستمع الى اذاعة القاهرة وهي تعلن أن السيد كمال الدين حسين وزير التربية في الجمهورية العربية المتحدة قد شكل لجنة تضم من بين أعضائها الأستاذ ساطع الحصري والدكتور طه حسين لتعيد كتابة التاريخ العربي • هزني النبأ ، وملأتني الفرحة ، ولم أتمالك نفسي فأسرعت مهرولا الى فندق أستاذنا ساطع الحصري(٦٥) أستطلعه جلية الخبر ، أستثبته ، أريد أن أستمع منه ما يشعرني بالطمأنينة ، ما يثلج صدري ببرد اليقين • ها هو ذا حلم جميل من أحلام شبابنا ، أمل ناضر من آمال جيلنا يتحقق • كنت في سعادة غامرة وأنا أتحدث الى أستاذنا الكبير ساطع الحصري المفكر المؤرخ نظّار القومية العربية ، تتدفق كلماتي دون توقف ،

أشيد وأنوه بأن ملحمة بلادي العظيمة ستكتب وتدون · وهل أطرب لي ولجيلي من أن نقرأ تاريخ الأمة العربية مسطوراً في كتاب ، صاغته اليد الماهرة الصناع ، يد مؤرخ يتشوف الى الحقيقة ، ويعنو لرؤية وجهها ، قد أوتي القدرة والموهبة ، وعكف على البحث عكوف العباد الناسكين ، وتوفر له بالخبرة والمعاناة « عمق التجربة الشخصية وكثافتها وغناها وتنوعها »(٦٦) ، يحسن استنطاق الماضي والتفهم عنه ، فننفي عنه الزيف والتشويه والخرافة والوضع والتزيد ، وجلاه كما تراءى له أنه الحق والصدق ، فاذا نحن قادرون أن نقلب في سهولة ويسر صفحات تاريخ الأمة العربية نتملى صنيعها في عهود المجد والقوة والازدهار ، ونتتبع رجعها ومدى تصديها في عهود الكوارث والآلام والمحن ··· ولمحت في وجه أستاذي جموداً لم أتوقعه ، وقد عهدته البشوش الطلق حين ألتقي به ، وجمدت الكلمات المتدفقة ، وتوقفت أستمع الى الأستاذ الكبير يقول بصوته الهادىء ،ولكنته المحببة الي : « لن أستجيب لهذا القرار ، ولن أجتمع بهذه اللجنة التي لم يحسن تسمية أعضائها ، واني مقتنع بأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً » · ثم أكمل حديثه يقول : ان الشرط الأول والأساسي للجنة تؤلف من أجل اعادة كتابة التاريخ العربي أن يكون أعضاؤها جميعاً موحدي النظر في معالجة الموضوع ، قد تلاقت آراؤهم أو تقاربت ، فهم يجتمعون ليتناقشوا لا في الأصول والمبادىء والمنطلقات الأساسية ، بل في المنهاج المفصل التطبيقي لتجسيد هذه النظرات ، واختيار ما يرونه أجدى في الوصول الى غرضهم ، وتحقيق هدفهم على الوجه الأمثل · أما أن تتألف اللجنة من رجال متنافرين فكرياً في النظرة الى التاريخ العربي ، ومختلفين كل الاختلاف حول المبادىء التي يكتب بها ، فعبث لا طائل وراءه · وكيف يقدَّر لعمل مثل هذا له شأنه وخطورته في حياة الأمة العربية أن يتلاقى على كتابته من وقف نفسه ونذر قلمه يدعو للوحدة العربية يراها الحقيقة الخالدة ، وينادي بالثقافة العربية ، ومن ألّف (مستقبل الثقافة في مصر) ، ودعا الى ثقافة البحر المتوسط · ضدان لا يلتقيان ··· وصدق أستاذنا الحصري ، ولم تكتب اللجنة المذكورة سطراً واحداً في سفر تاريخ الأمة العربية · ثم تعالى نداء من دمشق ، فقد نظمت مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة استفتاء حول موضوع (اعادة كتابة التاريخ القومي العربي) طرحته في ستة أسئلة ، وجهتها الى المؤرخين والمفكرين والمثقفين ودعاة القومية العربية ، ونشرت الاجابات التي تلقتها(٦٧) ، واكتفت باثارة الموضوع ليغنى قراؤها بمطالعتهم أجوبة النخبة الواعية وآراءها في

معالجته ٠ اني حين أعرض لهاتين المحـاولتين لجـد عليم بأن محـاولات مماثلة كثيرة قد جرت ، لم يكتب لها النجـاح ، لأنه لم تتخـذ الأسـباب والترتيبات التي تفضي الى نجاحها(٦٨) ٠ ان المحاولات التي مضت قـد شحذت عزيمتنا ، وزادتنا ايماناً فوق ايماننا بضرورة كتابة التاريـخ العربي كتابة علمية نقدية ، نستمدها من معطيات مناهج النقد التاريخي في العصر الحاضر ٠ ولقد أغنتنا التجارب الماضيـة فمضينا في طريقنـا بقدم ثابتة مطمئنة : لقد احتضنت جامعة دمشق هـذا الموضوع العزيز الغالي ، ورعته ، وأخذت توفر له الأسباب والظروف المفضية الى نجاحه ٠ لم تعجل في توزيع العمل على المؤرخين والمفكرين «فرب عجلة تهب ريثا»(٦٩) بل ارتأت أن تمضي في خطأ وئيدة، أن تنشر دعوتها في أنحاء الوطن العربي، وأن تبلغها جميع المؤسسات العلمية التي تعنى بالحضارة العربية والتاريخ العربي ٠ وأصدرت مجلتها (دراسات تاريخية) لسان صدق لدعوتها ، تأمل أن تتلقى على صفحاتها استجابات الملبين ، وآراء المفكرين عمـلا بالقول الحكيم : « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه »(٧٠) ٠

ــ ان مجلة (دراسات تاريخية) مجلة متخصصـة ، صدرت تلبيـة لتوصية ندوة دمشق (٢٠ ــ ٢٢ كانـون الأول ١٩٧٧) « لتكون محكـاً للأفكار ، وميداناً لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منها بعد مناقشته »(٧١) ٠ وان المجلة لتفتح صفحاتها وقلبها للباحثين والدارسـين من المؤرخين والمفكرين في الوطن العربي وخارجه ٠ وهي تأمل أن يوافوها بآرائهم القيمة ومناقشاتهم الخصبة التي تنير طريقها في العمل وتسدد خطاها في بلوغ الهدف الذي نصبته لنفسها ٠

ــ ان مجلة (دراسات تاريخية) سعياً وراء تحقيق غايتها :

١ ــ ترحب الترحيب الودود بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها التي دعت اليها ، ويناقش بالتعمق هذه الأنظار التي طرحتها ندوة دمشق ٠

٢ ــ وتتقبل تقبل الرضا المقترحـات والآراء التي تساعـد في مسيرتهـا للنهـوض بأعبـاء هذا العمـل العلمي الكبيـر : كتابـة موسوعـة التاريـخ العربـي ٠

٣ ــ وتتلقى أحسن اللقاء المقالات التي يعالج أصحابها موضوعاً في التاريخ العربي يندرج في هذا الاطار الذي رسمته المجلة لنفسها ٠

ـ ان اصدار مجلة (دراسات تاريخية) المتخصصة ليس غاية في ذاته، وانما هو التوطئة والتمهيد للهدف الأساسي وهو كتابة تاريخ العرب • على صفحاتها تتلاقح الأفكار ، وتتبادل الآراء ، ويتناقش المختصون • وعلى صفحاتها يتعارف العلماء والمؤرخون والمفكرون ويتلاقون تلاقي الاتفاق والائتلاف • فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف(٧٢) •

واننا لنرجو أن تؤدي مجلتنا غايتها ، وتكون صفحاتها ميدانا تتسابق فيه أقلام الباحثين ، مما يؤهل لجمع هذه الطاقات العلمية الكفية القادرة في الأرض العربية وخارجها تتعاون جميعها لتأدية المهمة الكبرى التي ناط القدر بجيلنا شرف النهوض بها •

لعل كلمتي قد أدت غرضها في تبيان حدود عملنا وأهدافه

المصادر

١ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ، انظر صحيح البخاري ١ : ٢٦ ، ٢ : ٢١٦ •

٢ ـ الفكر والتاريخ : ٧ ـ ٨ ، التاريخ وكيف يفسرونه : ٢١٣ ، تدريس التاريخ : ١٧ •

٣ ـ الكتب التي عالجت في الغرب موضوع كتابة التاريخ ومناهج البحث التاريخي كثيرة جداً • وقد نقل جملة منها الى اللغة العربية • وأكتفي هنا بالاشارة الى أبرز الكتب المترجمة الى العربية :

١ ـ علم التاريخ ، تاليف هرنشو/ترجمة عبدالحميد العبادي (القاهرة ـ ١٩٣٧)

٢ ـ التفسير الاشتراكي للتاريخ (يشمل مختارات من كتابات فردريك انكلز ، وخلاصة لمقالة كتبها كارل ماركس حول صراع الطبقات في فرنسا ؛ ترجمة الدكتور راشد البراوي (القاهرة ـ ١٩٤٧) •

٣ ـ فلسفة التاريخ ، تاليف غوستاف لوبون/ترجمة عادل زعيتر (القاهرة ـ ١٩٥٤) •

٤ ـ البطل في التاريخ ، تاليف سدني هوك/ترجمة مروان الجابري (بيروت ـ ١٩٥٩) •

٥ ـ عقم المذهب التاريخي ، تاليف كارل بوبر/ترجمة عبد الحميد صبرة (الاسكندرية ـ ١٩٥٩)•

٦ ـ المؤرخون وروح الشعر ، تاليف ايمري نف/ترجمة الدكتور توفيق اسكندر (القاهرة ـ ١٩٦١) •

٧ ـ فكرة التاريخ ، تاليف كولنغوود/ترجمة محمد بكير خليل (القاهرة ـ ١٩٦١) •

٨ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية ـ الفصل العاشر : التاريخ ، تاليف ارنست كاسيرر/ترجمة الدكتور احسان عباس (بيروت ـ ١٩٦١) •

٩ ـ في المعرفة التاريخية ، تاليف ارنست كاسيرر/ترجمة أحمد حمدي محمود (القاهرة) •

١٠ـ مدخل لفلسـفة التاريـخ ، تاليف و٠هـ٠ وولش/ترجمة أحمـد حمـدي محمـود (القاهرة ـ ١٩٦٢) ٠

١١ـ ما هو التاريخ ، تاليف ادوارد كار/ترجمة أحمد حمدي محمود (القاهرة ـ ١٩٦٢) ٠

١٢ـ النقد التاريخي (يشمل : المدخل الى الدراسات التاريخية للاستاذين لانغلوا وسنيوبوس، ونقد النص للاستاذ پول ماس ، ثم الملحق المتضمن ثلاثة نصوص : أولها : التاريـخ العام للفيلسوف الألماني كانت ، والثاني : مقتطفـات من مقال في المنهـج للفيلسـوف الفرنسي ديكارت ، والثالث : مقتطفات من خطبة الكاتب الفرنسي بول ڤاليري) ترجمـة الدكتور عبد الرحمن بدوي (القاهرة ـ ١٩٦٣) ٠

١٣ـ الفكر والتاريخ ، تاليف بيير ـ هنري سيمون/ترجمة الدكتور عادل العوا (دمشق ـ١٩٦٣)٠

١٤ـ دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ، تاليف هيو ج٠ اتكـن/ترجمـة الدكتـور محمود زايد (بيروت ـ ١٩٦٣) ٠

١٥ـ قيمة التاريخ، تاليف جوزف هورس/ترجمة الشيخ نسيب وهيب الخازن (بيروت ـ١٩٦٤)٠

١٦ـ تدريس التـاريـخ ، تاليف هنـري جونسون/ترجمـة الدكتـور أبو الفتوح رضـوان (القاهرة ـ ١٩٦٥) ٠

١٧ـ كيف نفهم التاريخ ، تاليـف لويس غوتشلك/ترجمة الدكتـورة عائدة سليمان عـارف والدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة (بيروت ـ ١٩٦٦) ٠

١٨ـ تطور النظرة الواحدية الى التاريخ ، تاليف بليخانوف/ترجمة محمد مستجير مصطفـى (القاهـرة ـ ١٩٦٩) ٠

١٩ـ من المعرفة التاريخية ، تاليف هـ٠ا٠ مارو/ترجمة جمال بدران (القاهرة ـ ١٩٧١) ٠

٢٠ـ التاريخ وكيف يفسرونه ، تاليف البان ٠ج٠ويدجري/ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويـد (القاهرة ـ ١٩٧٢) ٠

ـ وقد ترجم الكتاب أيضاً الدكتور ذوقان قرقوط بعنوان : المذاهب الكبرى في التاريـخ (بـيروت ـ ١٩٧٢) ٠

٢١ـ بين الماضي والمستقبل ـ الفصل الثاني : مفهوم التاريخ قديماً وحديثاً ، تاليف حنـة ارنت/ترجمة عبدالرحمن بشناق (القاهرة ـ ١٩٧٤) ٠

٤ ـ الحضـارة في الميـزان لأرنـولد توينبـي : ٩٤ـ٩٥ ، ١١٢ـ١١٣ ، مختصر دراسـة للتاريـخ لارنولد توينبي ١ : ٥٩ ـ ٦١ ٠

٥ ـ مختصر دراسة للتاريخ ٤ : ١٥٠ ـ ١٥١ ٠

٦ ـ قصة الحضارة ١/١ : ط ـ ي ٠

٧ ـ انظر نشرة اليونسكو الصادرة بالعربية عام ١٩٧٩ بعنـوان : اعداد تاريخ عام لافريقيـا ، (٤٥ صفحـة) ٠

٨ ـ عرض كثير من المؤلفين والمؤرخين العرب لبيان الأسباب الداعية الى وقوف الغرب هذا الموقـف المعادي ، المجانب للحقيقة ، وكان آخر ما اطلعت عليه في هذا البـاب ما جاء في مجلة الفكـر العربي (شهر تموز ـ شهر آب ، ١٩٧٨/بيروت) : ١٢٣ ـ ١٢٧ ٠

٩ ـ اريد بالعرب هنا معناها الواسع ، الذي يضم أصول العرب ، وتاريخ الأرض التي عمروها واستوطنوها ، على النحو الذي انتهت اليه مناقشات الندوة التي عقدت بدمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الأول ، ١٩٧٧) ، والتي أوصت بمتابعة الخطا لتحقيق فكرة كتابة تاريخ العرب في موسوعة ٠ وقد ضم كراس صدر في عام ١٩٧٩ بعنوان (دراسات تاريخية) كل ما قامت به الندوة من أعمال وتقارير وتوصيات ، ووزع على المؤسسات الجامعية والمراكز العلمية في الوطن العربي، وخارجه ، وعلى المؤرخين والمفكرين المعنيين بالدراسات العربية : التاريخية والقومية ٠

١٠ ـ مختارات ساطع الحصري ٢ : ٢٦٣ ٠

١١ ـ العالم والغرب لارنولد توينبي : ٨ ـ ١٠ ٠

١٢ ـ وقع حادث الاعتداء الأثيم صبيحة يوم الاثنين (١٩ رجب ١٤٠٠ هـ/٢ حزيران ١٩٨٠ م)، وتعرض كل من السيد بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، والسيد كريم خلف رئيس بلدية رام‌الله الى محاولة اغتيال ٠ فقد وضعت يد الغدر الصهيونية قنبلة في كل من سيارتيهما ، كما قامت بسلسلة من حوادث العنف والقتل في أنحاء مختلفة من فلسطين ، مما أفاضت في وصفه الصحف العربية والأجنبية ٠

١٣ ـ من آخر ما قرأت حول الارهاب الصهيوني مقالة الدكتور اسماعيل ياغي بعنوان : الارهاب والعنف في الفكر الصهيوني (مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية/العدد الرابع ، ١٩٨٠) : ٥٤٣ ـ ٥٨٣ ٠

١٤ ـ قصة الحضارة ١/٢ : ٣٢١ ـ ٣٩٨ ٠

١٥ ـ قصة الحضارة ١/١ : ي ٠

١٦ ـ قصة الحضارة ١/٢ : ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، الكتاب المقدس : سفر العدد ـ الفصل الحادي والثلاثون ، سفر تثنية الاشتراع ـ الفصل السابع والفصل العشرون ، سفر يشوع ـ الفصول : الثامن والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ، سفر القضاة ـ الفصل الخامس : ٣١ ٠

١٧ ـ قصة الحضارة ١/٢ : ٣١٩ ـ ٣٢٠ ٠

١٨ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين للدكتور فيليب حتي ١ : ٨٥ـ١٣٥ ، ١٧٤ـ١٨٩ ، الخطوط الكبرى في تاريخ سورية لأسد الأشقر ١/١ : ٣٢ ، ٢٣٢ ـ ٢٩٣ ٠

١٩ ـ القرآن الكريم ـ سورة الاسراء : ٣٥ ، سورة الشعراء : ١٨٢ ٠

٢٠ ـ يحسن أن أشير هنا الى أن ول ديورانت قد خص الفنيقيين بكلمة قصيرة في كتابه (قصة الحضارة ١/٢ : ٣١٠ ـ ٣١٧) ٠ وما الفنيقيون ، في الحق ، الا الكنعانيون الذين سكنوا جزءاً من ساحل بلاد الشام ، يحتضن مدن بيبلوس (جبيل) وصيدا وصور عرائس مدن البحر المتوسط ، ويمتد الى ما وراءها شمالا وجنوباً ٠ انهم جزء من الشعب الكنعاني العظيم ، أطلق عليهم اليونان كلمة الفنيقيين ، فشهرت هذه التسمية الغلط في كتب المؤرخين، وتناسوا اسمهم الحقيقي الذي تسموا به وهو الكنعانيون ، « ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل » ٠ ورد في انجيل متى (الفصل الخامس عشر : ٢١ ـ ٢٢) : « ثم خرج يسوع من هناك وأتى الى تخوم صور وصيدا ، واذا امرأة كنعانية قد خرجت من تلك التخوم وتقول ٠٠٠٠ » ٠

٢١ ـ قصة الحضارة ١/١ : ح ٠
٢٢ ـ الكتاب المقدس : سفر التكوين ـ الفصل العاشر ٠
٢٣ ـ الكتاب المقدس : سفر القضاة ـ الفصل التاسع عشر : ١١ ـ ١٣ ٠
٢٤ ـ الكتاب المقدس : نبوءة حزقيال ـ الفصل السادس عشر : ٣ ، ٤٥ ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١ : ١٦٩ ٠ ولم يذكر ول ديورانت الأموريين بكتابه ، وخص الحثيين بصفحتين منه (قصة الحضارة ١/٢ : ٣٠١ ـ ٣٠٣) ٠

٢٥ ـ يقول نجيب عازوري : « وهكذا اذا وضعنا القضية الدينية جانباً (أي التعصب للفكر الديني اليهودي) ، ليس اليهود لدى المؤرخ بأهم من أي قبيلة بدوية كالعمالقة والمؤابيين » (يقظة الأمة العربية : ٤٨) ٠
٢٦ ـ ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، تأليف ت٠س٠ اليوت/ترجمة الدكتور شكري محمد عياد : ١٤٦ ـ ١٤٧ ٠
٢٧ ـ مجمع الأمثال للميداني ١ : ٢٤٤ ٠
٢٨ ـ حول القومية العربية لساطع الحصري : ٣٢١ ـ ٣٣٦ ٠
٢٩ ـ من أبرز المؤلفات العربية في منهجية البحث التاريخي :

١ ـ مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم (بيروت ، ١٩٣٩) ٠
٢ ـ منهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان (القاهرة ، ١٩٤٣) ٠
٣ ـ نحن والتاريخ للدكتور قسطنطين زريق (بيروت ، ١٩٥٩) ٠
٤ ـ التاريخ ، تعليمه وتعلمه للدكتورة حكمت أبو زيد (القاهرة ، ١٩٦١) ٠
٥ ـ المدخل الى التاريخ للدكتور نور الدين حاطوم ورفاقه (دمشق ، ١٩٦٤) ٠
٦ ـ فلسفة التاريخ ، مجلة (عالم الفكر) ، العدد الأول ـ المجلد الخامس (الكويت ، ١٩٧٤) ٠
٧ ـ دراسة في منهجية البحث التاريخي للدكتور ليلى صباغ (دمشق ، ١٩٧٩) ٠

٣٠ ـ مختصر دراسة للتاريخ لأرنولد توينبي ٤ : ٢٣٥ . وانظر مقدمة الحضارات الأولى لغوستاف لوبون : ٢ ـ ٥ ٠

٣١ ـ المؤرخون وروح الشعر : ٢٧١ ٠
٣٢ ـ نهج الفلسفة ، تأليف كارل يسبرز/ترجمة الدكتور عادل العوا (دمشق ـ ١٩٧٥) : ٣٠ ٠
٣٣ ـ تدريس التاريخ : ٢٩ ، ٣٤ ، وانظر كتاب : قيمة التاريخ لجوزف هورس : ١٧ ٠
٣٤ ـ ما هو التاريخ : ٣٩ ، وانظر كتاب : نحن والتاريخ للدكتور قسطنطين زريق : ١٥٩ـ١٦١ ٠
٣٥ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ـ فيض القدير ، شرح الجامع الصغير ٣ : ٢٠٣ ٠
٣٦ ـ الكلمة لجوزف هورس في كتابه : قيمة التاريخ : ٩٨ ، وقد وجدت فيها مصداقاً لحال الأمة العربية أيام حضارتها الزاهرة ٠
٣٧ ـ كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ٨٥ ـ ٨٧ ، ومن الوفاء أن نذكر أن الفضل الأول في ارشادنا الى هذا النص ، وتبيان نفحته الانسانية التقدمية يعود الى أستاذنا العالم عبد الهادي هاشم كان قد نبهنا اليه ، وبسط لنا جوانبه ، محللا وموازناً عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، حين كان يلقي علينا دروس الأدب العربي في صف البكالوريا الأولى بمدينة حمص ٠
٣٨ ـ كتاب الخصائص لابن جني ١ : ١٩٠ ـ ١٩١ ٠

٣٩ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٤٦ ٠

٤٠ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ٠

٤١ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ٠

٤٢ ـ قيمة التاريخ : ١٥ ـ ١٦ ٠

٤٣ ـ التاريخ وكيف يفسرونه : ٢١٧ ، في المعرفة التاريخية : ٢١ ، مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٢٩٦ ٠

٤٤ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، وانظر كتاب : التاريخ وكيف يفسرونه : ١٩٧ ـ ١٩٩ ٠

٤٥ ـ المدخل الى التاريخ : ١١ ، آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع للاستاذ ساطع الصري : ١٩ ، دراسة في منهجية البحث التاريخي : ٥ ، قيمة التاريخ : ٦ ٠

٤٦ ـ قيمة التاريخ : ٦ ـ ٧ ٠

٤٧ ـ معجم الأدباء ٢ : ٢٢ ٠

٤٨ ـ التاريخ وكيف يفسرونه : ٢١٣ ٠

٤٩ ـ انظر : التاريخ ، من أين ، والى أين ، للدكتور قسطنطين زريق (مجلة الفكر العربي ، شهر تموز ـ شهر آب ١٩٧٨/بيروت) : ٤ ـ ٦ ٠

٥٠ ـ ألف آلبان ٠ ج ٠ ويدجري كتابه : التاريخ وكيف يفسرونه ، يبسط فيه أهم التفسيرات التي قدمت اجابة عن هذين السؤالين على كر الأيام ٠ وقد ترجم الكتاب الى العربية ترجمتين : الأولى قام بها الأستاذ عبد العزيز جاويد (الهيئة المصرية العامة للكتاب/القاهرة ـ ١٩٧٢) والثانية قام بها الدكتور ذوقان قرقوط بعنوان : المذاهب الكبرى في التاريخ (دار القلم/بيروت ـ ١٩٧٢) ٠

٥١ ـ تذكر كتب التاريخ أنه حين جاءت عمر بن الخطاب أمير المؤمنين البشرى بفتح نهاوند أخذ يسأل الرسول القادم عن أخبار الناس ومن رزق الشهادة منهم ، فأخبره الرسول بأنباء الفتح ، ثم أخذ يعدد له أسماء من استشهد في المعركة « حتى عد له ناساً كثيراً » ثم قال : وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم ، فقال عمر ، وهو يبكي : لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ، ولكن الله يعرفهم » (تاريخ الطبري ٤ : ٢٣٥) ٠

٥٢ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٣٩ ، وانظر في تطور مفهوم التاريخ كلمة الدكتور قسطنطين زريق : التاريخ ، من أين ، والى أين (مجلة الفكر العربي ، شهر تموز ـ شهر آب ١٩٧٨/بيروت) : ٤ ـ ١٧ ، وانظر كتاب : نحن والتاريخ للدكتور قسطنطين زريق ـ الفصل السادس : التفكير التاريخي ٠

٥٣ ـ قيمة التاريخ : ١٣ ٠

٥٤ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٠٣ ٠

٥٥ ـ قيمة التاريخ : ١١ ـ ١٣ ، المدخل الى التاريخ : ٧ ـ ٢١ ، منهج البحث التاريخي (ط ٣) : ١٣ ـ ١٥ ٠

٥٦ ـ قيمة التاريخ : ٨٨ ـ ٨٩ ٠
٥٧ ـ نحن والتاريخ : ٢٠٨ ـ ٢٤٢ ، وانظر كتاب : مختارات ساطع الحصري ١ : ١١٦ ـ ١٢٢ ٠
٥٨ ـ نحن والتاريخ : ٢٤٢ ٠
٥٩ ـ آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع لساطع الحصري : ٤٤ ، ١٦٧ ـ ١٩٤ ، مختارات ساطع الحصري ١ : ٤٤ ، ٢ : ١٧٨ ، ١٨٢ ـ ٢٠٦ ، ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ٠
٦٠ ـ آراء وأحاديث في الوطنية والقومية لساطع الحصري : ٤٩ ـ ٧٠ ، مختارات ساطع الحصري ١ : ١٠٠ ـ ١١٣ ، ٢ : ٢٠٧ ـ ٢١٠ ٠
٦١ ـ مختارات ساطع الحصري ١ : ٥٤ ـ ٥٥ ٠
٦٢ ـ انظر كتاب : آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع : ٣٢ ـ ٣٣ ، ٤٤ ـ ٤٥ ٠
٦٣ ـ مجمع الأمثال للميداني ١ : ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ٠
٦٤ ـ مجلة دراسات تاريخية (مشروع كتابة تاريخ العرب ـ ١٩٧٩) : ٨ ـ ١٠ ، ٣٧ ـ ٣٩ ٠
٦٥ ـ وكان رحمه الله يسكن فندقاً في شارع الانتيكخانة بالقاهرة ، هو فندق فيينواز ٠
٦٦ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣١٧ ٠
٦٧ ـ مجلة المعرفة ، أعداد أشهر : تموز وآب وايلول وتشرين الأول ١٩٦٥ ٠
٦٨ ـ عرض الدكتور عبد العظيم رمضان في مقالة كتبها بعنوان : (اعادة كتابة تاريخنا القومي ، ورؤية تقدمية لعلم التاريخ) (مجلة قضايا عربية ـ شهر ايلول ١٩٧٩ ، ص : ٢٠٣ـ٢١٥) الى جملة من الدعوات التي قامت في الوطن العربي لكتابة التاريخ القومي ٠ ولكن أكثر الأمثلة التي ساقها قد انصب على المحاولات الاقليمية في كتابة التاريخ القومي ، مما لايندرج في الاتجاه الذي نعرض له وندعو اليه ٠ كان هدف صاحب المقالة عرض نماذج من الدعوات التي نادت في الوطن العربي باعادة كتابة التاريخ اقليمية كانت أو قومية ، ليخلص من وراء ذلك الى القول بضرورة اعادة كتابة تاريخنا القومي من خلال رؤية تقدمية لعلم التاريخ ٠ أما نحن فنتحدث عن الدعوة لكتابة التاريخ العربي من منطلق الايمان بالوحدة العربية ٠ ليس معنى هذا أننا لا نوافق على كتابة تاريخ الأقطار العربية ، ولكن منطلقنا الأول هو أن الوحدة العربية ، ووحدة التاريخ العربي هما من اليقينيات ، فليكتب الانسان ما شاء من تاريخ بلد أو قطر شرط أن يضع هذه الحقيقة الخالدة نصب عينيه ٠ أما أن يكتب تاريخ اقليم من أقاليم الأرض العربية ومنطلقه ان هذا الاقليم يشكل وحدة مستقلة فهو الضلال الذي نحاربه ، ونرجو للمؤرخين والمفكرين أن يتجنبوه ٠ أما فكرة اعادة كتابة التاريخ القومي برؤية تقدمية فهو حق لا مرية فيه ، ولن تتحقق مثل هذه الرؤية التقدمية الا اذا كان المنطلق الأول في كتابة التاريخ القومي هو وحدة التاريخ العربي ٠
٦٩ ـ مجمع الأمثال للميداني ١ : ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ٠
٧٠ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ـ سنن ابن ماجه ١ : ٨٤ ، ٢ : ١٠١٥ ـ ١٠١٦ ٠
٧١ ـ مجلة دراسات تاريخية (مشروع كتابة تاريخ العرب ـ ١٩٧٩) : ٧٠ ٠
٧٢ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ـ فيض القدير ، شرح الجامع الصغير ٣ : ١٧٤ ٠

التدمريون في الدنيا الرحيبة

خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين

د . عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية
في المديرية العامة للآثار والمتاحف

تدمر ، هذه الامارة ثم المملكة العربية التي صعدت الى ذروة الاقتصاد العالمي في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الميلاديين، واستقطبت ، ابان أزمة روما في النصف الثاني من القرن الثالث ، الأهمية السياسية والعسكرية في الشرق والغرب ، كان أبناؤها ، منذ أقدم العصور ناشطين في المنطقة يتردد ذكرهم ، فيما نعلم ،منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، في الأناضول وآشور وعلى ضفاف الفرات ٠ ونراهم في العهد البابلي يشتركون جدياً في نسف هيكل اليهود ودولتهم ٠ وفي العهد الهيلينستي كان لهم باع طويل في أحداث بلاد الشام السياسية والعسكرية ٠

ولكن خلال العهد الروماني ، وخاصة بعد زوال دولة الأنباط ، عام ١٠٦ م ، يصرف التدمريون لوحدهم تقريباً شؤون التجارة العالمية بين الشرق الأقصى وأوربة ، ويصبح لهم ، علاوة على دورهم الاقتصادي ، حضور عسكري في أرجاء العالم القديم ، من حدود اسكتلندة الى ضفاف الدانوب ، ومن الصحارى الافريقية الى النيل والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، حضور معزز بالشواهد الملموسة والنصوص المنقوشة التي عثر عليها الآثاريون في أماكن متباعدة من العالم القديم ، وستزداد ولا شك مع تقدم التحريات والبحوث ٠

لن نتطرق في هذا البحث الى التدمريين في حاضرتهم المجيدة تدمر ، أو الى آثارهم في بادية الشام أو في المدائن التدمرية كدورا أوربس (صالحية الفرات) ، فذلك منشور معروف في العديد من المراجع العربية والأجنبية(١) ٠ سنقصر البحث على آثار التدمريين خارج دولتهم، بل خارج بلاد الشام التي خضعت كلها ولاية لأذينه ، ثم ، مع مصر والأناضول ، امبراطورية لزينب ، وصية على ابنها وهب اللات ٠

لقد انساح التدمريون في الدنيا كتجار ومتعهدين وحرفيين وأصحاب وكالات ، أو كجاليات · وكانت أعداد كبيرة منهم من العسكريين جنوداً وضباطاً ، أفراداً وجماعات ، يعملون خاصة في القوات التدمرية المساعدة من الهجانة والخيالة والمشاة أبناء الأرض التدمرية ممن أنبتتهم البادية العربية ، وعرفوا رمي الحدق وصالوا على ظهور الأصائل ··

لقد كانت تدمر تزود الفرق العسكرية المساعدة المختلطة في الجيش الروماني بالرماة التدمريين الشهيرين ، ثم أصبح هؤلاء قطعات نظامية مستقلة من الهجانة والرماة الخيالة والمشاة يعسكرون على تخوم الامبراطورية في **داكيا** (رومانيا) ، **بريطانيا** ، **ونوميديا** (الجزائر) ، منذ مطلع القرن الثاني الميلادي ، وفي **قفط** (بمصر) وفي روما نفسها · وذكر هذه القوات يبدأ من عهد الامبراطورين تراجان وهادريان · ونعرف منها في منتصف القرن الثاني الميلادي فوج الهجانة المعروف باسم « **آلاي الهجانة التدمريين الأولبي الأول** »(٢) · وهناك عدد من المنحوتات التي تمثل الهجانة التدمريين المسلحين بالأقواس والرماح والدرقات الصغيرة المستديرة · أما الرماة فنعرف زيهم من بعض الرسوم في دورا أوروبس ومن بعض النقوش التدمرية ·

على ضفاف الدانوب :

في احتلال الرومان للمنطقة المعروفة باسم « داكيا »(٣) الواقعة شمال الدانوب في العام ١٠٦ (خلال عهد الامبراطور تراجان) لعب السوريون دوراً هاماً في الاستيطان الروماني ، وبفضل جسر بناه المعمار أبولودور الدمشقي على الدانوب استطاع تراجان الوصول بفرقه العسكرية الى بلاد « داكيا » ، كما أنشأ أبولودور الدمشقي على رأس الجسر من الشمال معسكر دروبيتا *(Drobeta)* وقام على بنائه جنود الفوج الأنطاكي الأول · وأنشئت في ولاية داكيا مراكز عسكرية حفلت بالسوريين عامة وبالتدمريين خاصة · كما أن ··ين السوريين المدنيين لعبوا فيها دوراً اقتصادياً وثقافياً · وقد وجدت آثارهم من عهد هادريان (١١٧ ــ ١٣٨ م) في مدن داكيا مثل **نابوكا** (كلوج الحالية) و **أبولوم** (البايوليا الحالية) **وبوروليسوم** وغيرها ·· وقد أسهم هؤلاء المعمرون مع الجنود السوريين والتدمريين في انتشار أفكار وعبادات سورية وشرقية ·

والتواجد السوري والتدمري في داكيا العليا شمال جبال الكربات أكثر منه في داكيا السفلى نظراً لغناها · وموقعا **تيبيسكوم** *(Tibiscum)*



من رجال القوافل التدمريين

ورمولا *(Ramula)* قد أعطيانا ثلاث وثائق محررة بالتدمرية ، منها قاعدة تمثال مكتشفة في رمولا جاء عليها تقدمة لاترغاتيس (الربة السورية) من التدمري راجيسيل(٤) ٠

وكان في **سارميزيجيتوزا** *(Sarmizegetusa)* موظف تدمري كبير اسمه بوبليوس ايليوس تيمي (أي تيم اللات) يحمل المواطنية الرومانية(٥) ، بنى معبداً هناك أهداه لأرباب تدمريين هم ملكبل وبلحمون ومناة ومعهم رب رابع مجهول اسمه بينيفال ٠ وألحق تيمي بالمعبد مطبخاً مكرساً

للولائم الدينية · كما نعرف في الموقع نفسه ضابطاً تدمرياً كبيراً كان قائداً للفوج الايتوري(٦) ، ولكن اسمه طمس مع الأسف ·

وفي **أبولوم (البايوليا الحالية)** وجد نص اهداء الى الرب التدمري يرحبول (الشمس) من تدمري اسمه أوريليوس باسينوس وكان قاضياً وكاهناً ·

وفي شمال الولاية (أي داكيا العليا) تذكر النصوص المكتشفة في **بوروليسوم** *(Porolissum)* « نوميروس » (أي كتيبة)(٧) من الرماة التدمريين أصبحت فيما بعد فوجاً باسم **الفوج التدمري الأول** وكان يعسكر في تيبيسكوم (كارانتسيبس) وقد عثر فيها على شاهدة قبر محررة بالتدمرية واللاتينية للازم تدمري اسمه فلافيوس غوراس بن يداي أقامه له وريثه الكاهن ايليوس حبيبي(٨) ·

وفي بوروليسوم أيضاً وجدت شهادة تقاعد لعسكري تدمري اسمه همازايوس بن حلفتا ، كان من عداد قوة الرماة التدمريين المعسكرين في هذا الموقع · وهذه القوة يرأسها تدمري أيضاً لقبه تيتوس ايليوس (واسمه مطموس) أقام له الفرسان التدمريون في قطعته تمثالا في الآغورا بتدمر تكريماً له ·

هذا وقد وجد في **ميسيا السفلى** (دوبروجيه حالياً) نص يذكر تدمرياً باسم مرقص اسيليوس اسكندر كان في عام ١٣٤ م يترأس الفوج الأول الكلودي(٩) ·

وفي كوستنجة (كونستنزا) على البحر الأسود وجدت شاهدة قبر بالتدمرية لسيدة تدمرية أو عربية بشكل عام اسمها غريب « برلال » أو « بدلال » وهي بنت بكر زوجة مسّلم بن عوب ·

في روما على ضفاف التيبر :

الذكريات السورية في روما كثيرة وقد كان السوريون مشتبكين في الادارة الرومانية من القمة الى القاعدة ، أباطرة وقواداً وفلاسفة وتجاراً وجنوداً(١٠) حتى قال الشاعر الهجاء جوفنال الذي مات عام ١٤٠ م ، قولته الشهيرة : **« ان نهر العاصي صار يصب مياهه منذ وقت طويل في نهر التيبر حاملا معه لغته وتقاليده »** ومن السوريين في روما أبناء مدن ومناطق مختلفة وبينهم أبناء تدمر الذين وفدوا على روما عسكريين ومدنيين وكان لهم هناك معبدان كما سوف نرى ·

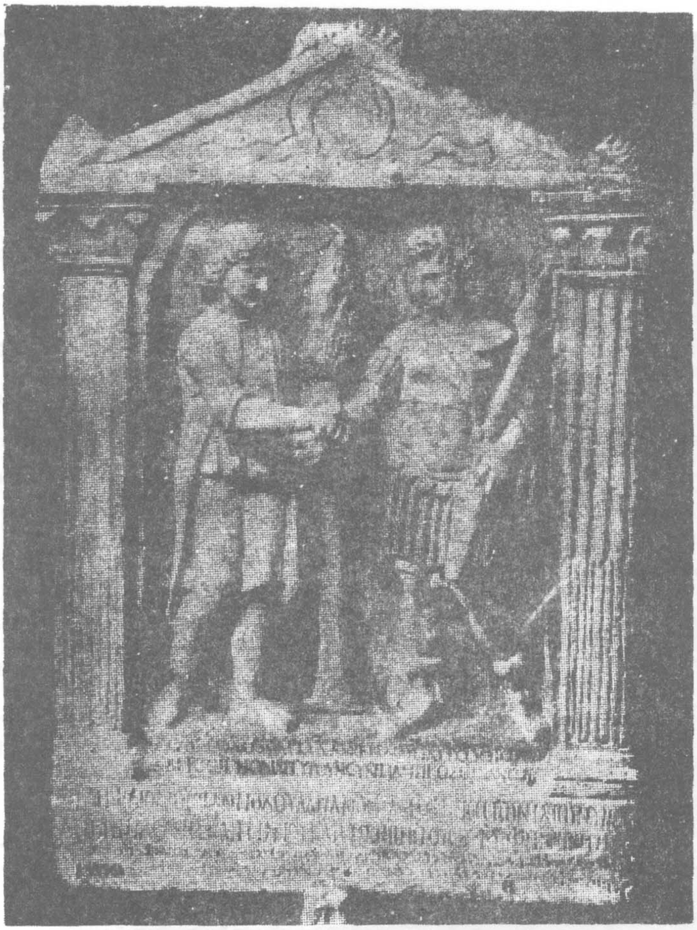


المذبح الرخامي المقدم للرب ملكبل والأرباب التدمريين

(متحف الكابيتول بروما)

ومن حوالي ١٠٢ م نجد تدمرياً من الفوج الثالث (؟) اسمه ولقبه طيباريوس كلوديوس فيليكس مع أشخاص تدمريين آخرين ينصب في معبد مكرس للرب التدمري ملكبل (أو للثنائي ملكبل وعجلبول الأخوين المقدسين) مذبحاً رخامياً يحمل اهداء باللاتينية والتدمرية(١١) ٠ وقد قدموه للرب ملكبل وأرباب تدمر ٠ وفي النص اللاتيني نجد اسم الشمس يحل محل الرب ملكبل(١٢) ٠

وبعد ذلك بوقت غير طويل يشيد التدمريون المقيمون في روما ، خارج باب « بورتا بورتيزه » ، معبداً تم العثور على أطلاله ووجدت فيها



لوحة المرمر التي تمثل لقاء الربين ملكبل وعجلبول
(متحف الكابيتول بروما)

أجزاء منحوتات وكتابات تدمرية الأسلوب · ومنها لوحة من المرمر نحت عليها نقش بارز يمثل الرب التدمري ملكبل بزيه الشرقي يصافح الرب عجلبول وبينهماالسروةذات الخضرةالدائمة ورمز تجددالحياة وخلودها(١٣) وتحت النقش البارز نص ··· يذكر أنه في شهر شباط من العام ٥٤٧ سلوقي(١٤) قدم يرحاي بن حليفي بن يرحاي بن لشمش شعدو على نفقته « وسميتا ؟ » من الفضة وزينتها على شرف عجلبول وملكبل من أجل سلامته وسلامـة أبنائه ·

ومن متحف الكابيتول بروما منحوتة ناقصة لم يبق منها الا الأقدام مصدرها أيضاً المعبد التدمري خارج باب بورتا بورتيـزه وعليهـا نص

تدمري ونص يوناني يذكر تقدمة للثالوث التدمري الأقدس بل ويرحبول وعجلبول (أرباب الوطن) من قبل التدمريين مقاي بن مالي لشمش وسعدو بن تيما لشمش(١٥) ٠

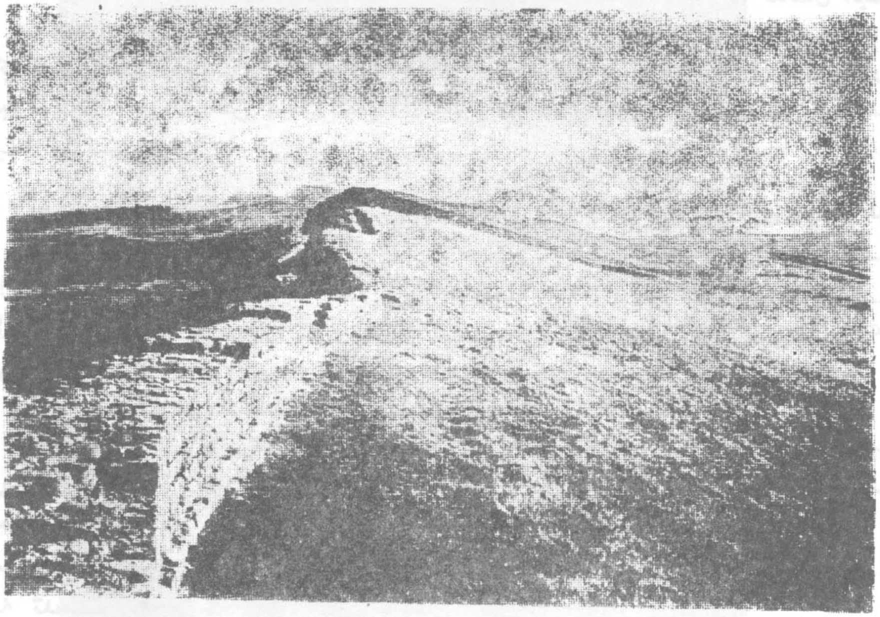
ونعرف أربعة تدمريين كانوا فرساناً في الحرس الامبراطوري أولهم باسم بوبليوس آنيوس كان فارس في الحرس الامبراطوري ٠ وأعضـاء هذه الأسرة مسجلون في قبيلة سيرجيا الرومانية اذ أنهم قـد كسبوا حـق المواطنية الرومانية في عهد هادريان (ايليوس هو لقب هذا الامبراطور ؟) ونعرف أسراً ثلاثاً في تدمر تحمل هذا اللقب الشرفي(١٦) ٠٠

والتدمري الثاني مصور على نقش يمثل فارساً يجر حصاناً وهـو فارس في الحرس الامبراطوري اسمه جميلين عاش ٣٤ سنة وخدم ١٤ سنة في الحياة العسكرية ، والثالث يبدأ اسمه بـ « أوريليوس » خدم أيضاً في الحرس الامبراطوري ٠ والرابع يبدأ اسمه بسبتيموس ، ويذكر النص أن موطنه تدمـر ٠

وثمة شاهدة قبر بلغتين (تدمرية ـ لاتينية) لتدمري اسمه حبيب ابن حبيب ٠ وهناك أجزاء كتابات يونانية ولاتينية كثيرة وجدت في روما لأشخاص تدمريين لا مجال للتفصيل فيها ٠

في بريطانيا ، عند بحر الشمال :

بدأ فتح الرومان لبريطانيا عام ٤٣ م في عهد الامبراطور كلوديوس وتوسع تدريجياً بين مد وجزر حتى عهد الامبراطور هادريان ١١٧ـ١٣٨م٠ وقد حصلت في عهد الأخير بعض الاضطرابات في الامبراطورية الرومانية ومنها بريطانيا ، فرأى وضع حد نهائي للتوسع فيها ، وزارها عام ١٢٢ م واتضح له عدم وجود حد طبيعي كالرين والدانوب والفرات ، بينه وبين « البرابرة » البريتون ، فرأى أن يبني عند عنق بريطانيا الضيق سوراً يمتد من بحر الشمال الى البحر الارلندي ٠ ويكون السور بعرض ١٠ أقدام (وقد قلل فيمـا بعـد) يبدأ شرقـاً من وول سـند *(Wall Send)* قرب نيوكاسل عند مصب نهر التاين وينتهي غرباً عند بونس *(Bowness)* على نهر السولوي ، ويعزز السور بحصن عند مسافة الميل وببرجين بـين كل حصن وحصن ٠ ووضع هادريان حرساً للحدود وبذلك أمَّن كما قال مؤرخ حياته « حداً بينه وبين البرابرة » ولما كان الحرس غير كاف عززه بوحدات عسكرية نظامية ، كما جدد معسكرات الحدود القديمة ٠ وكان



منظر لجزء من سور هادريان في شمال بريطانيا

مجموع القوات حول السور في عهد سبتيم سيفير ١٩٣ ـ ٢١١ أو عهد ابنه كاراكالا ٢١١ ـ ٢١٧ (نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث) ١٥ و ١٨ ألف جندي ثلثهم من الخيالة ·

وفي سوث شيلد *(South Shields)* جنوبي مصب نهر التاين قرب نيو كاسل ـ *(New-Castle-Upon-Tyne)* كان يقع مرفأ آربيا *(Arbeia)* الروماني الذي كان قاعدة أساسية في سور هادريان ويتميز بنشاط اقتصادي وعسكري هام ، وكان ، على ما يبدو ، فيه جاليات أجنبية منها تدمريون ·

وقد عثر في هذا الموقع على شاهدة قبر سيدة بريطانية اسمها رجينا *(Regina)* وهي معتوقة وزوجة تدمري اسمه برعته(١٧) · ورجينا ماتت صبية في الثلاثين وهي من قبيلة الكاتوفيلوني البريطانية ، أما زوجها التدمري فقد كان على الراجح يصنع الأعلام العسكرية أو يتعهدها · وعثر على شاهدة قبره في كوربردج كما سوف نرى ·

رجينا تمثل على الشاهدة جالسة على كرسي في محراب تحت قوس وجبهة مثلثة ، محمولين على عضادتين مزينتين بتاجين كورنثيين · الوجه



شاهدة قبر البريطانية ريجينا زوجة التدمري برعته
(متحف ساوت شيلد)

رغم تشويهه ينم عن نضارة ، والنحت جيد ، وهناك هالة تحيط بالرأس وتحف به ضفيرتان تنحدران على جانبي الوجه حتى الكتفين · وترتدي رجينا ثوباً فوق سراويل وهي تتحلى بطوق وسوار في كل معصم وقـرب ساقها اليمنى صندوق حليـّها وبيدها اليسرى مغزل ودرارة(١٨) ·

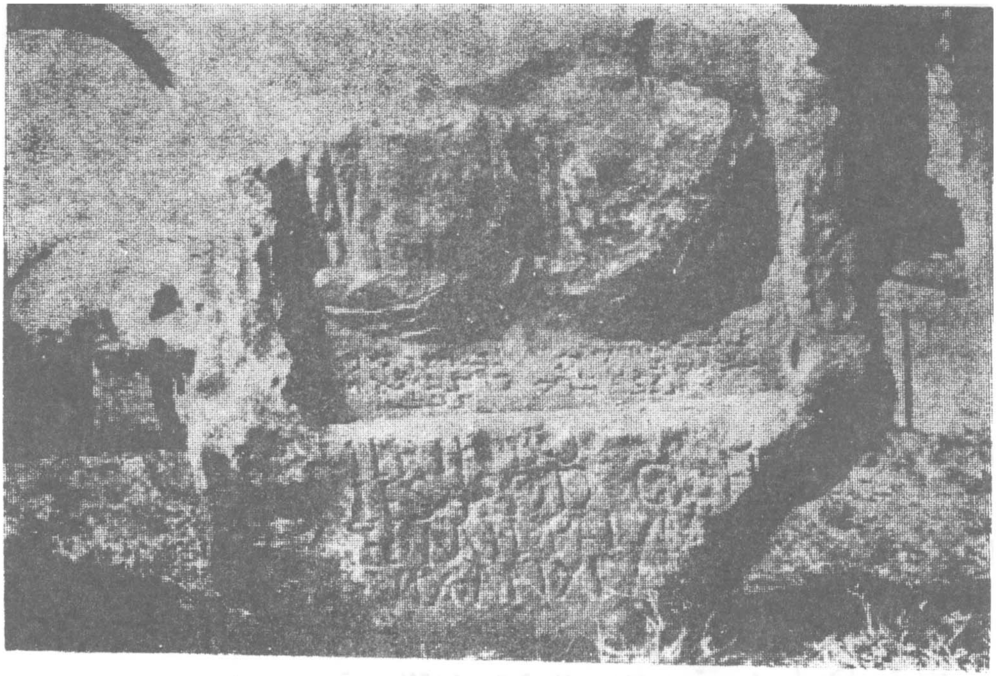
وتحت السيدة الجالسة نقشت كتابة بلغتين (لاتينية وتدمرية) • وفي اللاتينية بعض أخطاء نحوية واملائية أما التدمرية فجيدة كتبت من قبل شخص يحسنها تماماً(١٩) • الأمر الذي يدل على وجود عدد من التدمريين المدنيين فضلا عن العسكريين في المنطقة •

وفي كوربريدج *(Corbridge)* قريباً من هكسام على نهر التاين ، كانت تقوم بلدة كورستوبيتوم *(Corstipitum)* وهي مركز عسكري وعقدة مواصلات هامة أصبحت مقراً للمتعهدين وأصحاب الحرف العسكريين ، وفي أطلال هذه البلدة وجدت شاهدة قبر التدمري برعتا زوج رجينا وكان على ماذكرنا صانع أعلام عسكرية وقد يكون نفسه نحاتاً فناناً صنع بيده شاهدة قبر زوجته وقد عاش ٦٨ سنة ، وذلك عمر طويل بالنسبة لتلك العهود(٢٠)

هذا وقبل أن ننتقل من بريطانيا نذكر أن موقع ساوث شيلد قد أعطانا منحوتة تدمرية الأسلوب هي شاهدة قبر شخص يذكر النص اللاتيني أنه فيكتور معتوق نوميرنانوس وقد مثل بالوليمة الجنازية على الطريقة التدمرية بأدق التفاصيل وهناك اجماع على أن هذا الشخص ان لم يكن تدمرياً فلا بد أن صانع الشاهدة فنان تدمري • وهذا الأمر يفسر موضوع منحوتة رجينا(٢١) •

على تخوم الصحراء الجزائرية :

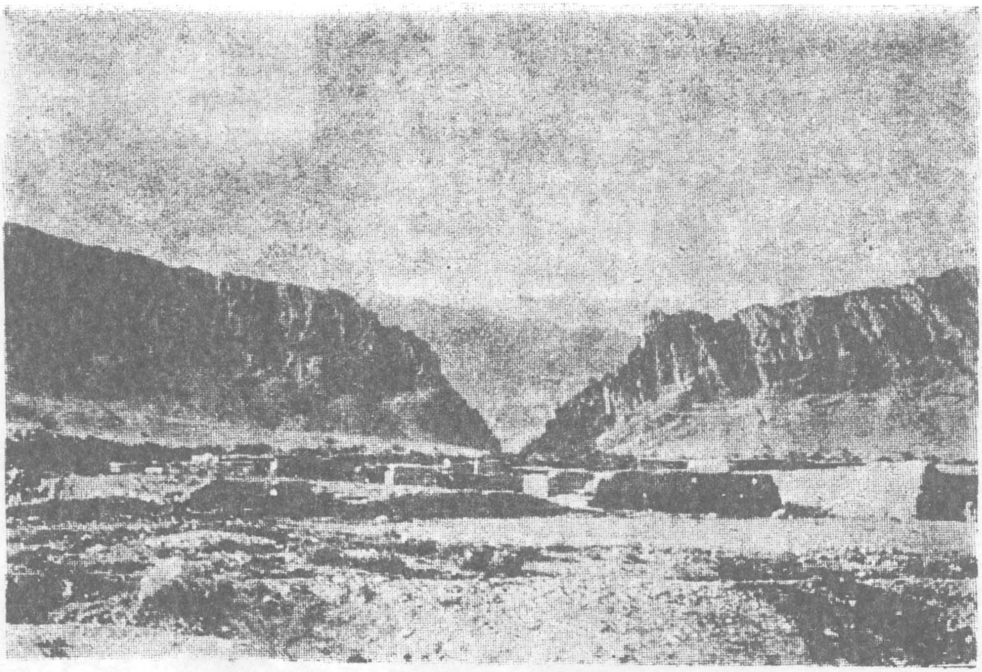
من أجواء الشمال الباردة التي يغلفها الضباب ننتقل الى نوميديا (الجزائر) حيث الدفء والسماء الصافية ونصل موقع القنطرة ، في ولاية قسطنطينة عند خانق بين جبال الزاب والأوراس(٢٢) حيث كان يقوم معسكر حصين يحمي هذا المعبر المؤدي الى نوميديا • وكان في هذا الموقع منذ القرن الثاني ، خاصة في عهد الأباطرة السيفيريين (١٩٣ ـ ٢٣٨) وحدات سورية تضم تدمريين منتشرة على تخوم السهوب والصحراء في أجواء ملائمة لها • وقد نصب التدمريون المقيمون هناك تمثالا للرب ملكبل غالبا • ومن آثارهم هناك شاهدة باللغة اللاتينية لنقيب (سنتريون = قائد مائة) تدمري اسمه اغريبا بن تيمي (تيم اللات) قاد الرماة التدمريين مدة عشرة سنوات ومات في الخامسة والخمسين(٢٣) • وثمة شاهدة قبر أخرى محررة بالتدمرية لنقيب تدمري هجان اسمه شريك بن ربت مات في الخامسة والأربعين • وشاهدة أخرى محرره بالتدمرية أيضاً



من الشواهد التدمرية المكتشفة حديثاً بالجزائر



من الرسوم التدمرية في مساد بالجزائر



موقـع القنطـرة في الجـزائـر

لتدمري اسمه رفائيل بن نشامات حوالي ٢١٥ م(٢٤) ، وشواهد أخرى مكتشفة حديثـاً .

وفي لامبيز وجدت شاهدة قبر محررة باللاتينية لتدمري كان جندياً رامياً على الغالب لاقى حتفه هناك في سن الثلاثين(٢٥) :

وفي مسـاد (كاستيللوم ديميدي) حصن كـانت تعسكر فيه قـوة تدمرية وكان لهم معبد مكرس للرب التدمري ملكبل وقد وجدت في أطلاله أقسام من لوحات جدارية (فريسكات تدمرية جميلة) وكتابات بذكـرى الأعياد التدمرية تذكر أسماء بعض هؤلاء الجنود(٢٦) .

على ضفـاف النيـل :

وفي قفط بمصر العليا في المكان الاستراتيجي الذي يقترب فيه النيل أكثر ما يكون الى البحر الأحمر ، وحيث تبـدأ الطريق المؤدية الى مرفـأ بـرنيكـي *(Berenice)* كانت تعسكر في عهد الامبراطور البرقاوي -

الحمصي كاراكالا (٢١١ ـ ٢١٧) كتيبة من الرماة الفرسان التدمريين(٢٧) وقد تقدم أحد فرسانها المسمى مرقص أوريليوس بلعقب باهداء باللغة اليونانية الى الرب التدمري يرحبول (رب الشمس)(٢٨) ٠

وقد أجريت في عامي ١٩١١ و ١٩١٢ أعمال تنقيب في قفط آدت الى الكشف عن بيت أقيمت على جدرانه تماثيل نصفية مزدوجة جنازية غالباً منحوتة بأسلوب يشبه الأسلوب التدمري ٠ والباحثون يسمون هذا المكان نزل الرماة التدمريين(٢٩) ، الا أن هنري سيريغ يرى أن هذه المنحوتات تمثل رهباناً مصريين(٣٠) ٠ وعلى كل حال ان العلاقة الوثيقة بين الفن المصري في العهد الروماني ومن ثم القبطي مع الفن التدمري أمر معروف ٠

وأخيراً لقد كشفت في دندره شاهدة عليها كتابة بلغتين تدمرية ويونانية ولكنها مشوهة ٠

وفي بحر ايجه (جزيرة كوس) :

ولن تكتمل صورة مالدينا حتى الآن من ذكريات التدمريين خارج تدمر وخارج بلاد الشام كلها دون أن نشير الى مذبح تدمري يحمل كتابة بالتدمرية واليونانية مهدي في حوالي منتصف القرن الأول الميلادي للثالوث التدمري الأقدس (بل ويرحبول وعجلبول) من قبل تدمري اسمه رب ايل بن حيران ٠ وهذا الأثر ذو أهمية خاصة لأنه يبين قدم انتشار التدمريين خارج بلادهم كما أن له أهمية بالنسبة للديانة التدمرية(٣١) ٠

الحــواشــي

١ ـ يمكن الرجوع الى ثبت المؤلفات والمراجع التي أوردناها في مؤلفنا « تدمر والتدمريون » ٠

٢ ـ الأولبي نسبة لأولبيوس وهو لقب الامبراطور تراجان ، واسم الفوج باللاتينية :
Ala Ia Ulpia dromedariorum Palmyronorum.

٣ ـ رومانية الحالية تقريباً ٠

٤ ـ اسم صيغته تدمرية واضحة ولكنه قد يحمل خطأ في الكتابة ٠

٥ ـ قبل أن يمنح الامبراطور كاراكالا عام ٢١٢ المواطنية الرمانية لجميع الرعايا الأحرار ، كانت المواطنية تمنح لكبار رجالات الدولة والمجتمع من قبل الامبراطور فيضيف المستفيد وذريته من بعده الى أسمائهم لقب الامبراطور وكنيته ٠ وتيمي هنا يحمل لقب الامبراطور هادريان ٠

٦ ـ الايتوريون عرب كانت لهم دولة شهيرة مركزها في سهل البقاع ٠

٧ ـ في تشكيلات الجيش الروماني (Numerus) قطعة عسكرية تضم ٥٠٠ من الفرسان بالأصل ، ثم عززت واصبح عددها يعادل فوجاً (Alae) او (Cohors) من الفرسان ويضم ٦٠٠ خيّال واكثر ويسمى بالفرنسية Escadron ٠ ويرأسه ضابط يعادل مقدماً (Prefectus) او (Tribunus) وتحته في المشاة قواد مائة واحدهم يسمى (Centurio) وفي الفرسان قواد عشرة وأحدهم يسمى (Decurio) ٠

٨ ـ الشاهدة موجودة في متحف الجمعية الأثرية الهنغارية أما النص فهو :
بالتدمرية : غورا بن يداي هفطين (أي مساعد قائد مائة وقد يكون ملازماً أو صف ضابط) ٠
باللاتينية : الى أرواح الموتى ، فلافيوس غوراس بن يداي ملازم سابق في الكتيبة التدمرية عاش ٤٢ سنة ، خدمته العسكرية ٢١ سنة ٠ تقدمة من ايليوس حبيبي الكاهن وريثه ٠

٦ ـ نسبة للامبراطور كلوديوس (مات ٥٤ ميلادية) ٠

١٠ ـ عن موضوع السوريين في روما ، يراجع مقال أنور حاتم ، الذكريات السورية في روما الحوليات الأثرية السورية ١٢/١١ ، ١٩٦١/١٩٦٢ ص ١٦٥ وما بعدها ، ملخصة عن مقاله الأصلي في القسم الأجنبي من المجلة ٠

١١ ـ المذبح موجود الآن في متحف الكابيتول في روما ٠ وهناك اختلاف بين النصين التدمري واللاتيني٠ والأول واضح والثاني يحتمل تأويلا ٠ وثمة خلاف حول تفاصيله ٠ وقد اعتمدنا على المرجع التالي في التفسير :
J. TEIXIDOR, The Pantheon of Palmyra, Leiden 1979, p. 47.

١٢ ـ يلاحظ أن هذا الرب التدمري كان كثير الشعبية لدى التدمريين خارج بلادهم ، لأنه كان بالأصل رب تجدد النبات وأصبح بالتالي رباً للسلامة الشخصية كأوزريس وميترا ٠

١٣ ـ اللوحة موجودة في متحف الكابيتول وكانت سابقاً في قصر المحافظين بروما ٠

١٤ ـ التاريخ المستعمل هو التاريخ السلوقي ويعادل ٣١٢ قبل الميلاد والطريف أنه هو المستخدم في تدمر ، في حين أن التي يؤرخ لها هي روما ٠

١٥ ـ والشخص الثاني معروف لدينا من تمثال أقامه على شرف أبيه بعد وفاته في معبد بل بتدمر ، وهو (أي سعد) من أسرة يديعبل الشهيرة في تدمر ولعله كان يتعاطى التجارة وغيرها من الشؤون الاقتصادية بروما ٠

١٦ ـ راجـع :

J. T. MILIK, Dédicaces faites par des Dieux, Paris, 1972, p. 229 et pp. 321-322.

١٧ ـ الشاهدة محفوظة في متحف سـوث شيلد ، ومنها نسـخة جصية في متحف كوربردج وقـد رأيناها هناك خلال المؤتمر الحادي عشر للآثار الكلاسيكية عام ١٩٧٨ ٠ وثمة نسخة أخـرى في متحف ساوث شيلد ٠

١٨ ـ تمثيل تدمري في معظم تفاصيله وقد نشر عن هذه الشاهدة البحث التالي :

D. SMITH, A Palmyrene Sculptor at South Shields, Archoeologia AEliana, XXXVII (4th Ser.) 1959, pp. 203-210.

١٩ ـ **اللاتينية** : الى أرواح الموتى رجينا معتوقة وزوجة برعتا التدمري وهي من شعب (الكاتوفيلونيين) وعاشت ثلاثين سنة ٠

التدمرية : رجينا معتوقة برعتا وا أسفاه (الكتابة التدمرية متأخرة) ٠

٢٠ ـ ليس في الشاهدة صورة الميت بل نص لاتيني يقول :

باراتيس (برعتا) التدمري فيكسيلا (مفرزة خيّالة أو صنعة) عاش ٦٨ سنة ٠

٢١ ـ منحوتة رجينا وشاهدة قبر زوجها ومنحوتة فيكتور غير مؤرخة ولكن كلها بحدود القرن الثاني والثالث الميلاديين ٠

٢٢ ـ موقع القنطرة على بعد ١٥٠ كم٠ الى الجنوب من قسطنطينة كان يدعى في العهد الروماني كالسـوس هيركوليس (Calceus Hercules) نسبة لهرقل الذي تقول الأسطورة أنـه شق هذا المعبر بكعبه ٠ أما اسم بلدة القنطرة فهو نسبة الى جسر روماني كان باقياً في الموقع ٠

٢٣ ـ النص : الى أرواح الموتى ، اغريبا بن تيمي ، التدمري ، النقيب في الفوج الثالث التراقي ـ السوري ثم في الفوج الأول الكالسيي (نسبة الى كالسيس وهي عنجر في سهل البقاع وهـي عاصمة دولة العرب الايتوريين) وقاد الرماة التدمريين مدة عشر سنوات ، أمضى في الحيـاة العسكرية ثلاثاً وعشرين سنة وعاش خمساً وخمسين سنة وقد أقام له هذه الشاهدة معتوقه ٠

٢٤ ـ يراجـع : Corpus Inscriptionum Semiticasum, II, 3908, 3908 bis.

٢٥ ـ الى أرواح الموتى ، مقيمو بن سمعان التدمري ، عاش ثلاثين سنة ، أقامه له وريثه عام٤٦١ (سلوقي وهو يعادل ١٤٩ ـ ١٥٠ م) .

٢٦ ـ هناك مرجع قديم هام عن هذا المركز العسكري هو :

G. N. PICARD, Castellum Dimmidi, Paris,

ولكننا لم نستطع الوقوع عليه فاكتفينا بالمعلومات الموجزة المذكورة ، من كتاب :

J. T. MILIK, Dédicaces faites par des dieux, Paris, 1972, 155-156.

٢٧ ـ استعملنا تعبير كتيبة مقابل « نوميروس » . وهذه الكتيبة التدمرية تحولت الى فوج وسميت « آلاي الفرسان الرماة التدمري الثامن » وقد ذكر في وثيقة « نوتيسيا ديكنيتاتوم » حوالي العام ٤٠٠ م بين القوات المعسكرة في مصر العليا .

٢٨ ـ النص يذكر أن مرقص أوريليوس بلعقب قادم من هادريانا بالميرا (تدمر الهادريانية) وكانت تدمر تسمى بذلك الاسم لأن الامبراطور هادريان منحها لقب « المدينة الحرة » . وتاريخ الكتابة يعادل ٢١٦ م .

٢٩ ـ

A. RAINACH, Catalogue des Antiquités égyptiennes recueillies dans les fouilles de Coptos en 1910 et 1911.

٣٠ ـ

H. SEYRIG, Le prétendu fondouq palmyrénien de Coptos, Syria, XLIX, 1972, p. 121.

٣١ ـ النص اليوناني مختصر : نذر من رب ايل بن حيران لبل الرب . النص التدمري : رب ايل بن حيران ، ليبارك أمام بل ويرحبل وعجلبول وهو الذي قدم هذا المذبح .

ويلاحظ أن اسم يرحبول ورد بشكل يرحبل وتلك صيغة قديمة للاسم في رأي البعض أو خطيئة في الكتابة وقد ناقش هذا الموضوع الأب ميليك في المرجع المذكور سابقاً :

. J. T. MILIK, Dedicaces ...., p. 42

★ ★ ★

النشاط التبشيري الألماني في فلسطين
بين عامي ١٨٤١-١٩١٨

د. علي محافظة
الجامعة الاردنية

ان الغرض من هذا البحث دراسة النشاط التبشيري الذي قامت به المؤسسات الدينية الألمانية الانجيلية والكاثوليكية في فلسطين ، منذ بداية اهتمام مملكة بروسيا ب « الأرض المقدسة »* وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ ، وبيان مدى صلة هذا النشاط التبشيري بالسياسة الخارجية الألمانية ومحاولات الاستيطان الألماني ، ومدى علاقته بالاستعمار اليهودي في البلاد ، وعرض مواقف السلطات العثمانية والسكان العرب من هذا النشاط التبشيري ٠

كان النشاط التبشيري المسيحي في فلسطين قبل حكم محمد علي (١٨٣١ـ١٩٤٠) محصوراً ومتعثراً بسبب العقبات العديدة التي واجهته ٠ وأول هذه العقبات وأهمها معارضة الحكومة العثمانية لهذا النشاط والعراقيل الرسمية التي كانت تضعها في طريقه ٠ غير أن احتلال محمد علي باشا لفلسطين وبقية بلاد الشام في عام ١٨٣١ خلق المناخ المناسب لنمو الارساليات التبشيرية المسيحية ٠ فمنذ بداية الحملة المصرية وجه القائد العام لها بياناً الى السلطات المدنية والدينية في فلسطين يطلب منها رفع القيود عن المسيحيين واليهود المقيمين في البلاد والزوار الأجانب(١) ٠

★ بدأ اهتمام الألمان بفلسطين بداية مبكرة ٠ فقد زارها العالم الألماني زيتسن U. J. Seetzen في مطلع القرن التاسع عشر والف كتاباً بعنوان « جولات في سورية وفلسطين وفينيقيا وبلاد شرق الأردن وبتراء العربية ومصر السفلى «Reisen durch Syrien, Palaestina, Phoenicia, die Transjordan Laender, Arabia Petraea und Unteraegypten» نشر في أربع مجلدات عام ١٨٠٦ ٠ كما زارها الرحالة C. Niebuhr الذي الف كتاباً عن رحلته هذه نشر عام ١٨٣٧ في هامبورغ بعنوان «جولات في سورية وفلسطين وقبرص Reisen durch Syrien Und Palaestina nach Cypern وبعده بقليل زارها الرحالة فيزينو J. N. Visino عام ١٨٣٧ والف كتاباً عن رحلته هذه بعنوان « رحلتي الى فلسطين » Meine Wanderung nach Palaestina »

وألغيت الرسوم المفروضة على الحجاج المسيحيين للقبر المقدس في القدس · وسمح لليهود ببناء كنيس لهم في القــدس · ومنحت جمعية يهود لنــدن London Jews Society (٢) حرية العمل للتبشير في فلسطين · ومنذئــذ شهدت فلسطين نشاطاً تبشيرياً مكثفا وتنافسا جاداً بين الارساليات التبشيرية من مختلف الكنائس المسيحية · وبعد زوال حكم محمد علي عن البلاد ، اضطرت الدولة العثمانية الى أن تغمض عينيها ، على استمرار النشــاط التبشيري في فلسطين ، بسبب مساندة الدول الأوروبية الكبرى في قهــر محمد علي واعادة بلاد الشام الى سلطتها · كما انتهزت الدول الأوروبية والمؤسسات الدينية التبشيرية هــذا الوضع الجــديد لتزيد في نفوذهــا ونشاطاتها المختلفة في الأقطار الشامية بوجه عام وفي فلسطين بوجه خاص ·

أما النشاط التبشيري الألماني في فلسطين فيعود الى همــة ملك بروسيا فريدريش فيلهلم الرابع Friedrich Wilhelm IV الذي عرف عنه اهتمامه بالشؤون الدينية منذ صباه · ولمــا أصبح ولياً للعهد ، بلــغ به الحماس الديني أن يفكر في انشاء وطن مسيحي في الأراضي المقدسة تتولى الدول الأوروبية الكبرى حمايته · ولما تسلم العرش البروسي عرض مشروعــه الرومانسي هذا على امبراطور النمسا وقيصر روسيا فلم يبديا اهتمامــاً به · فما كان منه الا أن تخلى عن المشروع واتجه الى السعي لمنح الكنيسة اللوثرية حقوقاً مماثلة لتلك التي تتمتع بها الكنائس المسيحية الأخرى في القدس · ورأى أن ذلك لا يمكن أن يتم الا بالتعاون بين الكنيسة الانجيلية البروسية والكنيسة الانجليكانية في انكلترا ، وان الخطوة الأولى في هــذا السبيل ستكون قيام مطرانية (أسقفية) بروتستانتية في القدس · وأمل ملك بروسيا أن تؤدي مساعيه ومساعي الحكومة البريطانية لدى البــاب

نشــر في باســاو Passau عام ١٨٤٠ · وقد ساهمت مؤلفات هؤلاء الرحالة والعلماء في اثارة اهتمام العديد من الألمــان بفلســطين ، وبخاصة كبــار المسؤولين في مملكــة بروسيا · ومنــذ ٢٣ تشرين الثاني ١٨٣٥ وصلت بعثة عسكرية بروسية الى اسطنبول من أجل اعادة تنظيم الجيش العثماني · وانتهت مهمتها في حزيران ١٨٣٩ · وقام أحد أعضاء هذه البعثة وهو هيلموث فون مولتكه Helmuth Von Moltke بنشر مذكراته في صحيفة «Augusbu.g.r Zeitung» عام ١٨٤١ وقد اقترح في هذه المذكرات مشروعاً يقضي بتحويل فلسطــين الى دولة واقية تحت الادارة الألمانية تفصــل بين تركيــا ومصــر ·

انظر مذكرات مولتكه التي نشرت في برلين عام ١٨٩٣ بعنوان :
Briefe Ueber Zustaende Und Begebenheiten in der Tuerkei aus dem Jahren 1835 bis 1839.

العالي الى اعتراف الحكومة العثمانية بالطائفة البروتستانتية كملة مسيحية مستقلة ٠ وتطلع أيضاً الى أن تقدم المطرانية دعماً حقيقياً للتبشير البروتستانتي في أوساط اليهود في فلسطين والذي كان قد بدأ منذ عام ١٨٢٦ ٠ كما توقع من هذه المطرانية المشتركة أن تمارس نفوذاً قوياً على الكنائس البروتستانتية في أوروبا من أجل اتحادها جميعاً ، وبذلك تصبح مطرانية القدس المحور الذي تدور حوله كافة الكنائس البروتستانتية(٣) ٠

وفي صيف عام ١٨٤١ ، وقبل أن تنتهي مفاوضات الدول الأوروبية الكبرى في لندن الى وضع التسوية النهائية في الشرق العربي ، أرسل ملك بروسيا مستشاره البارون الدكتور كريستيان شارلز بونزن Christian Charles Bunsen (٤) الى انكلترا لاجراء اتصالات مع المسؤولين في الحكومة البريطانية والكنيسة الانجليكانية حول فكرة انشاء أسقفية بروتستانتية مشتركة في القدس ٠ وجاء في التعليمات التي وجهها ملك بروسيا الى مستشاره الخاص بونزن والمؤرخة في ٢ حزيران ١٨٤١ المبررات لانشاء مطرانية القدس :

« **أولا** : لقد اعتادت حكومة هذه البلاد (فلسطين) وشعبها ، منذ عهد بعيد ، على أن يريا جميع المؤمنين بأية ديانة ملتئمين في تنظيم واحد ، ومجتمعين في هيئة واحدة ، وخاضعين للقوانين نفسها ٠ وبهذه الصيغة قدمت نفسها طوائف اليهود واللاتين واليونان والأرمن ٠ واذا آراد المسيحيون الانجيليون اليوم المطالبة بالاعتراف بكنائسهم المختلفة بصورة منفردة (أي الكنيسة الانجليكانية L'Eglise anglicane Episcopale والكنيسة الكهنوتية العلمانية الاسكتلندية L'Eglise Presbytérienne D'Ecosse والكنيسة الانجيلية الموحدة L'Eglise Evangélique Unie والكنيسة اللوثرية L'Eglise Luthérienne ، والكنيسة الاصلاحية L'Eglise Réformée والكنيسة المعمدانية L'Eglise Baptiste ، والكنيسة الميثودية L'Eglise Méthodiste وكنيسة المستقلين L'Eglise des Indépendants ٠٠٠ الخ) فقد تستجيب الحكومة التركية بصعوبة كبيرة لطلبها » ٠ ثم يذكر الملك البروسي في رسالته ان العدد الضئيل من أتباع هذه الكنائس الانجيلية قد لا يشجع الباب العالي على الاعتراف بها ٠ ويأتي بعد ذلك على استعراض الوضع السياسي في الدولة العثمانية مبيناً أن الظروف السياسية آنذاك مواتية لمنح الكنيسة الانجيلية امتيازات مماثلة للكنائس الأخرى في فلسطين(٥) ٠

حمل البارون بونزن معه رسالة من الملك البروسي فريدريش فيلهلم الرابع الى ملكة بريطانية مؤرخة في ٨ حزيران ١٨٤١(٦) • تتضمن الحجج والمبررات التي ساقها للقبول بمشروعه والواردة في تعليماته لمستشاره السابقة الذكر • ويؤكد في رسالته هذه أن وحدة البروتستانت هي الضمانة لنجاح كنيستهم في القدس • ويعرض بعد ذلك استعداده ، في حالة انشاء أسقفية بروتستانتية في القدس ، لتزويدها بالرهبان والمبشرين من الكنيسة الانجيلية البروسية الموحدة(٧) Die Evangelish - Unirte Kirche

وصل بونزن الى لندن في ١٩ حزيران وشرع في التفاوض مع الحكومة البريطانية ورئيس أساقفة كانتربري الدكتور وليام هاولي Dr. William Howley وأسقف لندن الدكتور شارلز جاك بلومفيلد Charles Jacques Blommfeld بصفته المسؤول الأول عن الرهبان الانجليكان في خارج المملكة المتحدة والأسقف الأول في المملكة بعد رئيس أساقفة كانتربري • ودامت هذه المفاوضات ثلاثة أسابيع انتهت بموافقة الحكومة البريطانية ورئيس أساقفة كانتربري على المقترحات البروسية من حيث المبدأ(٨) • وأبرمت اتفاقية بين الطرفين نصت على تعيين أسقف انجليكاني بصورة دورية من قبل ملكة بريطانية وملك بروسيا ، وعلى أن يخضع تعيين الأسقف الذي يختاره ملك بروسيا لموافقة رئيس أساقفة كانتربري ، وأن يكون تعيين أول أسقف من قبل ملكة بريطانية • واشترطت الاتفاقية تبعية الأساقفة المعينين لهذا المنصب لرئيس أساقفة كانتربري ، وكذلك الحال بالنسبة الى القسس والرهبان التابعين له(٩) • أما رجال الدين الألمان الذين سيتبعون الأسقفية الجديدة فلا بد من اعادة تكريسهم وفقاً لتقاليد وتعاليم كنيسة انكلترا الانجليكانية(١٠) •

وتعبيراً عن اهتمام ملك بروسيا بالاتفاقية المذكورة تبرع بمبلغ مئة ألف تال Thal (ما يساوي خمسة عشرة ألف استرليني آنذاك) من ماله الخاص لوقفه على الأسقفية الجديدة • ووعد بتقديم الأرباح السنوية لهذا المبلغ في بداية كل عام لتغطي نصف رواتب القسس السنوية • أما بالنسبة الى الجانب البريطاني فقد طرح اكتتاباً عاماً بمبلغ عشرين ألف جنيه استرليني ، دفعت جمعية يهود لندن ثلاثة آلاف جنيه منه(١١) •

انشاء مطرانية القدس البروسية ـ الانكليزية المشتركة :

بعث وزير خارجية بريطانية لورد بالمرستون Lord Palmerstone برسالة الى السفير البريطاني في اسطنبول في ٢٧ ايلول ١٨٤١ ، أبلغه

بنتائج المباحثات التي دارت بين البارون بونزن وبين رئيس أساقفة كانتربري ورئيس الوزراء البريطاني حول أسقفية القدس . وبيّن له أنه لا ضرورة للحصول على أذن خاص من الباب العالي لهذه الغاية ، باعتبار أن الأسقف الذي سيعين في القدس ، سيتمتع بحق الاقامة في أي جزء من الممتلكات العثمانية ، كأي مواطن بريطاني ، وباعتبار أن النشاط التبشيري الذي سيمارسه لن يتناول رعايا السلطان من المسلمين(١٢) .

وفي أثناء ذلك سعت الهيئة الكنسية البريطانية الى اختيار الرجل المناسب لتولي منصب مطران القدس. وعرض الأمر على الكسندر ماك كول Alexander MC Caul ، خريج معهد برلين التبشيري ، وأحد المبشرين الأوائل في جمعية يهود لندن . غير أنه رفض العرض ، واقترح أن يعتلي كرسي المطرانية « أحد المنحدرين من نسل ابراهيم » . ولقي هذا الاقتراح صدى طيباً في نفوس كافة المسؤولين الانكليز . فوقع الاختيار على المبشر مايكل سولومون الكسندر Michael Solomon Alexander من أعضاء جمعية يهود لندن(١٣) . وتم تكريسه على يد رئيس أساقفة كانتربري وأسقف لندن وأسقفين آخرين وبحضور البارون بونزن والسير سترافورد كاننغ Sir Straford Canning السفير البريطاني الجديد المعين لدى الباب العالي، وعدد من كبار المسؤولين الانكليز ، في ٧ تشرين الثاني عام ١٩٤١ في كنيسة لامبث بالاس Lambeth Palace (١٤) . وحمل المطران المعين رسالة من رئيس أساقفة كانتربري موجهة الى بطاركة الشرق وأساقفته(١٥) .

نقل الأسقف الكسندر وأفراد أسرته ومرافقوه على البارجة البريطانية Devastation الى بيروت حيث توقفت لتأخذ القنصل البريطاني العام الكولونيل هاف روز Colonel Hugh Rose لمرافقة الأسقف الى القدس(١٦) . أرست البارجة في يافا ، ودخل الأسقف والقنصل العام البريطاني الى القدس على رأس كوكبة من الفرسان في احتفال مهيب يوم ٢١ كانون الثاني عام ١٨٤٢(١٧) .

كان هم الأسقف الكسندر منصباً ، في بداية الأمر ، على بناء كنيسة انجيلية في المدينة المقدسة . غير أن السلطات المحلية قاومت بشدة كل مسعى في هذا الصدد . وبذل القنصل العام البريطاني في بيروت جهوداً كبيرة من أجل حمل السلطات العثمانية على الاعتراف بالكنيسة الانجليكانية والسماح لها ببناء كنيسة في القدس . وسعى السفير البريطاني السير كاننغ لدى الباب العالي دون جدوى . وبعد جهود طويلة وضغوط

عديدة استجاب الباب العالي للمطلب البريطاني وأصدر فرماناً في أواخر شعبان سنة ١٢٦١ هـ/الموافق أوائل ايلول ١٨٤٥ ميلادية ، موجهاً الى حاكم القدس ، ينص على السماح للأسقف الانجليكاني ببناء الكنيسة المطلوبة • غير أن الحاكم العثماني ، الذي أطلع المجلس الاداري للمدينة المقدسة على صيغة الفرمان ، لجأ الى المماطلة في تنفيذ ما جاء فيه(١٨) •

وأخيراً وافق حاكم القدس على انشاء كنيسة صغيرة ملحقة بالقنصلية البريطانية في المدينة ، داخل مبنى القنصلية أو داخل منزل القنصل • ودار جدل طويل بين حاكم القدس والقنصل البريطاني حول الموضوع ، باعتبار أن مكتب القنصلية البريطانية لم يكن مؤلفاً الا من غرفة واحدة وأنه من المتعذر بناء كنيسة فيها • وأعيدت القضية الى اسطنبول ولندن • وتوفي في هذه الأثناء الأسقف الكسندر في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٤٥ • وتدخل السفير البريطاني في اسطنبول من جديد فربح المعركة ، وصدر فرمان من الباب العالي بالسماح ببناء كنيسة انجليكانية في القدس ، بعد أن توسطت الحكومتان الفرنسية والروسية في الأمر(١٩) •

أما بالنسبة الى نشاط الأسقف الكسندر خلال هذه السنوات فقد تركز في الأوساط اليهودية في فلسطين • وبلغ عدد اليهود الذين تنصروا عند وفاته ٣١ فرداً • وقد أنشأ لهم منزل المهتدين The House of Converts الذي أصبح بعد فترة كلية تسمى بالكلية العبرية The Hebrew College تم افتتاحها في أيار ١٨٤٢ ، وكانت بمثابة مركز لتدريب أعضاء الارسالية التبشيرية الانجليكانية ، يعلم فيها اللاهوت واللغات الانكليزية والألمانية والعبرية والحساب والموسيقى والترجمة • وأنشأ الأسقف الكسندر المدرسة الصناعية The School of Industry التي افتتحت عام ١٨٤٣ ، فكانت مأوى المتنصرين الجدد يتناولون فيه الغذاء الكامل ، ويقيمون فيه ، ويتدربون على الحرف اليدوية مثل النجارة وحفر الخشب والخياطة • ولاعداد المرشحين للكلية العبرية والمدرسة الصناعية أسس الأسقف الكسندر « منزل المبتدئين The Enquirers House عام ١٨٤٣ » ليتلقوا فيه التعليم الديني والتدريب الأولي في الحرف • وكان المرشحون يقيمون في هذا المنزل يتناولون الغذاء فيه • وأنشأ الأسقف المذكور بالاضافة الى ذلك ، مركزاً للخدمة الطبية يحتوي على عيادة صغيرة وصيدلية • كما أوجد مخزناً للكتاب المقدس بقصد توزيعه باللغات العبرية والعربية واليونانية والانكليزية والألمانية(٢٠) •

ولا بد من الاشارة هنا الى أنه لم يوجد رهبنات بروسية أو ألمانيـة في فلسطين عند انشاء المطرانية الانجيلية في القدس • وانما وجد بعض الرهبان الألمان في خدمة جمعية يهـود لندن وجمعيـة التبشير الكنائسـية Church Missionary Church . ولذلـك حث ملـك بروسـيا فريدريش فيلهلم الرابع وزير دولته ، برسالة مؤرخة في ٢٨ حزيران ١٨٤٢ ، على السعي لايفاد الرهبان الألمان الى فلسطين وجاء فيها :

« على الرغم من غياب رهبنات بروتستانتية ألمانية في فلسطين ، والتي ينبغي أن نتطلع الى ايجادها في ظروف أكثر ملاءمة ، فان الرهبان الشبان من الكنيسة البروتستانتية الألمانية ، الذين يدفعهم حماسهم المتزايد للعمل في الارساليات التبشيرية الرامية الى تنصير اليهود ، والذهاب الى فلسطين ، سوف يجدون أن من المرغوب فيه الاستفادة من هذه العروض ••• التي يقدمها رئيس أساقفة كانتربري والتي تستهدف الحصول على حرية كبيرة في العمل التبشيري وعلى نتيجة أفضل ، بقبول حماية ورعاية الأسقف •••

انني على أتم الاستعداد لمساندة الرهبان الشبان من هذا الطراز ، بالأسلوب المناسب ، بعد فحصهم والتأكد من كفاءتهم ، وبخاصة اذا أثبتوا تمكنهم من المذهب البروتستانتي المبني على ملة أوغسبورغ وانني أدعوك الى أن تذكر لي أسماء مثل هؤلاء الأشخاص »(٢١) •

وعبر الملك البروسي عن اهتمامه البالغ بفلسطين وبانشاء الأسقفية الانجيلية في القدس ، بارسال أول قنصـل بروسي الـى المدينة المقدسـة عام ١٨٤٣ • وقام ولي عهده بالحج الى الديار المقدسة في ذلك العام •

أما الأسقف الكسندر فقد أقام علاقات طيبة مع الألمان في فلسطين من مدنيين ورجال دين • وكان لالمامه باللغة الألمانية ، ووجود العنصر الألماني بين أعضاء بعثته التبشيريـة دور كبـير في ضمـان الوئام والانسـجام في صفـوف بعثتـه(٢٢) •

المطران صموئيل غوبات Samuel Gobat (٢٣) :

بوفاة المطران الكسندر أصبح اختيار خلف له من حق ملك بروسيا • وفي آذار ١٨٤٦ وقع اختيار فريدريش فيلهلم الرابع على صموئيل غوبات الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب مدير الكلية البروتستانتية في مالطه • وسيم غوبات مطراناً للقدس في انكلترا في احتفال ديني مهيب • ونقل ،

كسلفه ، ببارجة بريطانية من الأسطول الملكي ، الى فلسطين ، فوصل الى القدس في ٣٠ كانون الأول عام ١٨٤٦(٢٤) ٠

اختلف غوبات عن سلفه بأن وجه اهتمامه التبشيري نحو العرب ، بعد أن كان الهدف من انشاء الكنيسة الانجليكانيــة في القدس والبعثة التبشيرية التابعة لها تنصير اليهود في فلسطين ٠ وبدأ خطته بانشاء مدارس الكتاب المقدس لأطفال اليهود والنصارى والمسلمين لكنه ما لبث أن أعاد النظر فيها ، وركز جهوده على انشاء المدارس لأبناء النصارى العرب في فلسطين وشرقي الأردن ٠ واعترضته عقبات عديدة في تنفيذ خطته ٠ اذ وجد نفسه وجهاً لوجه في صراع مع كنيسة الروم الأرثوذكس والكنيسة الكاثوليكية والطائفة اليهودية والسلطات المدنية والدينية الاسلاميــة وجمعية يهود لندن التبشيرية والقنصل البريطاني في القدس(٢٥) ٠

منذ وصول غوبات الى القدس أبدى بطريرك الروم الأرثوذكس والأكليروس التابع له برودا نحو المطران الانجليكاني ، حتى أنهم لم يبادلوه المجاملات الاعتيادية(٢٦) ٠ ومن المعروف أن كنيسة الروم الأرثوذكس التي ترجع جذورها الى عهد المسيح كانت تضم أكبر الطوائف المسيحية في فلسطين ٠ وكان أكليروس هذه الكنيسة ، بما في ذلك البطريرك المقيم في القدس وثمانية مطارنة ورؤساء المراكز الدينية التابعة لها ، من اليونان ٠ أما رعايا الكنيسة فمن العرب سكان البلاد الأصليين ٠ واتخذ الأكليروس اليوناني كافة الاحتياطات للحيلولة دون وصول أي عربي الى مركز ديني مرموق ٠ ونشأ مع الزمن نفور شديد بين الأكليروس اليوناني والرعايا العرب ، بسبب الاهمال الذي تعرض له الرعايا العرب ، وانشغال الأكليروس بقضاياهم الخاصة ، ولذلك كانت الطائفة الأرثوذكسية مرتعاً خصباً للنشاط التبشيري(٢٧) ٠

وفي بداية عام ١٨٤٨ جرى اتصال بين بعض الروم الأرثوذكس في نابلس وبين المطران غوبات ٠ وأبدى هؤلاء رغبتهم في الانضمام الى الكنيسة الانجليكانية ٠ غير أن غوبات نصحهم بالبقاء في حوزة كنيستهم خوفاً مما قد يلحق بهم من أذى ٠ ووعدهم بانشاء مدرسة لأطفالهم فى مدينتهم ٠ وما حدث في نابلس تكرر في غيرها من مدن فلسطين ٠ ومنذ عام ١٨٤٩ أخذت ترد الى مطرانية القدس العرائض التي تتضمن الرغبة في دخول الكنيسة الانجيلية وارسال معلم لانشاء مدرسة للكتاب المقدس(٢٨) ٠

وجاء رد الفعل من البطريركية الأرثوذكسية عنيفاً وسريعاً . فقد اعتبرت فتح المدارس البروتستانتية لأبناء طائفتها عدواناً عليها وخرقاً للحقوق الدينية للطائفة المعترف بها من قبل الدولة العثمانية . ولذا لوحق الآباء الذين يرسلون أطفالهم الى المدارس الانجيلية ، وهددوا بالفصل من الكنيسة . وفرض على الذين يترددون على اللقاءات التي يقرأ فيها الانجيل عقوبات مالية(٢٩) .

وكانت أول مظاهر العنف في مقاومة الكنيسة الأرثوذكسية للتبشير الانجيلي أحداث السلط في نيسان ١٨٥١ . اذ اعتدى أفراد الطائفة الأرثوذكس على معلم مدرسة الكتاب المقدس في البلدة وطردوه من بلدتهم وأغلقوا المدرسة . أما الحادث الثاني فقد جرى في نابلس في تشرين الثاني عام ١٨٥٣ عندما هاجم جمهور من الروم الأرثوذكس مقر الارسالية الانجيلية وطردوا من فيها(٣٠) .

أما ردة فعل الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين على النشاط التبشيري الانجيلي فكان أشد. اذ قام الكاثوليك بمنع توزيع الكتاب المقدس، وجمعوا الكتب المقدسة ومنشورات الانجيليين وأحرقوها علناً . وكان كل كاثوليكي يشتري من كتب الانجيليين ولا يحرقها يلاحق ويعاقب من الكنيسة . وفي القدس قام الكاثوليك بطرد العديد من معتنقي المذهب الجديد من منازلهم . وفي طبريا أغلقت احدى المدارس التي أنشأها غوبات بالقوة من قبل أتباع الكنيسة الرومانية الموحدة والكنيسة اللاتينية(٣١) . وفي الناصرة هاجم جمع من الروم الكاثوليك مدرسة البعثة التبشيرية الكنائسية (C.M.S.) في شباط ١٨٥٢ وحطموا أثاثها وشرعوا بهدم البناء ، ورموا مبشريها بالحجارة(٣٢) .

أغاظت تصرفات غوبات ونشاطه التبشيري القنصل البريطاني بسبب استعداء كافة الطوائف المسيحية في فلسطين ، فاعترض عليها . غير أن غوبات حاول أن يبرر موقفه في رسالة بعث بها الى البارون بونزن الذي أصبح وزير بروسيا المفوض في لندن ونائب رئيس جمعية يهود لندن . وقد جاء فيها أنه لا يرغب قط في قبول المسيحيين من الطوائف الأخرى في الكنيسة الانجيلية ، وان كان من واجبه أن يشرح لهم عن حقيقة وحياة المسيح ، مع البقاء في حظيرة الكنيسة التي ينتمون اليها . ولكنه لا يستطيع أن يمتنع عن قبول الذين تطردهم كنائسهم ، في الكنيسة

الانجيلية • وطلب من البارون بونزن ومن رئيس أساقفة كانتربري أن يطلقا يده في التبشير وأن يقدما له العون والتأييد(٣٣) •

وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي واجهها غوبات من الطوائف المسيحية في فلسطين ، فقد استطاع أن يبسط حمايته على أفراد الطائفة الانجيلية في القدس ونابلس والناصرة ويافا والرملة • كما استمر في فتح المدارس حتى بلغ عددها في اليوبيل الفضي لتوليه المطرانية خمساً وعشرين مدرسة تضم حوالي ألف تلميذ • ولكن معارضة الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية اتخذت شكلا جديداً • اذ بدأت هاتان الكنيستان بانشاء المدارس حيثما وجدت مدرسة انجيلية(٣٤) • وبلغ عدد البروتستانت العرب في نهاية حرب القرم (١٨٥٦) ٩٢ فرداً موزعين على المدن التالية كما يلي : ٣٩ فرداً في نابلس و ٢١ فرداً في القدس و ١٥ فرداً في الناصرة و ١١ فرداً في يافا و ٦ أفراد في بيت لحم(٣٥) •

أما في الأوساط اليهودية في فلسطين فقد كانت حصيلة أعمال غوبات محدودة جداً • وتعرض لهجوم شديد من الطائفة اليهودية التي اتهمته بكراهية اليهود • وقاومته جمعية يهود لندن التي قصرت نشاطها التبشيري على الطائفة اليهودية ، بسبب منافسته لها(٣٦) •

لم يقتصر العداء لمشروعات غوبات ونشاطاته على الطوائف المسيحية واليهودية بل تجاوزها الى السلطات المدنية والدينية الاسلامية • فقد واصل غوبات جهوده من أجل بناء كنيسة انجليكانية في القدس ، فتم له ذلك وكرسها في ٢١ كانون الثاني عام ١٨٤٩ باسم كنيسة المسيح "Christ Church" بحضور قنصل بروسيا وقنصل بريطانية ، بينما امتنع قنصلا فرنسا وروسيا وبطاركة الروم الأرثوذكس واللاتين والأرمن عن حضور حفل التكريس الديني • وكان الممثل الديني الوحيد الذي حضر هذا الحفل المطران السرياني في القدس(٣٧) •

ولعل أكبر نصر أحرزه غوبات هو اعتراف الحكومة العثمانية بحق اعتناق المسيحيين من رعاياها للبروتستانتية • وكان ذلك النصر حصيلة جهود مشتركة بذلها الوزير المفوض البروسي والسفير البريطاني في اسطنبول عام ١٨٥٠ • وصدر فرمان بهذا الشأن مؤرخ في الأول من محرم عام ١٢٦٧ هـ(٣٨) • وبذلك أبيح للمسيحيين من الطوائف المختلفة اعتناق المذهب البروتستانتي ، وتحرروا من الخوف والعقوبات المختلفة التي كانت تفرضها عليهم كنائسهم(٣٩) •

وكان لحرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) آثار ايجابية على الحركة التبشيرية البروتستانتية في فلسطين . فقد صدر خطي همايون في ١٢ جمادى الثانية عام ١٢٧٢ هـ/الموافق ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٥٦ مؤكداً ما جاء في خطي شريف غولخانة . ومنح المساواة في الحقوق المدنية لرعايا السلطان المسيحيين ، وضمن حريتهم في العبادة والتعبير . وبلغت أنباء هذا الفرمان فلسطين قبل الاعلان عنه رسمياً من قبل حاكم القدس العثماني أمام الأعيان والوجهاء وقناصل الدول الأجنبية ، كما كانت العادة آنذاك . غير أن المطران غوبات لم ينتظر اعلان الفرمان رسمياً ، بل ذهب فور علمه به الى نابلس ودق جرس الارسالية التبشيرية هناك في يوم الأحد الموافق ٣٠ آذار ١٨٥٦ . ولما سأله حاكم المدينة العثماني اذا كان لديه تصريح رسمي بهذا العمل الاستفزازي أجاب المطران : انه يعتمد في ذلك على خطي همايون . وبعد يومين من هذا الحادث وردت أنباء ميلاد أمير لامبراطور فرنسا ، فرفع القنصلان الفرنسي والانكليزي في نابلس علمي بلديهما بهذه المناسبة . وغادر غوبات نابلس بصحبة قنصلي بروسيا وبريطانية الفخريين وهما سعيد قعوار وعودة عزام يوم الجمعة . ولما كانت التقاليد المرعية في المدينة تحرم رفع الأعلام الأجنبية ودق أجراس الكنائس فقد ثارت ثائرة المسلمين ، وخرجت مظاهرة في الأسواق التقت صدفة بالمبشر لايد S. Lyde من كلية يسوع في كمبردج ، راكباً على حصان وحاملا بندقية . ولما اعترضه أحد المتسولين على أبواب المدينة أطلق المبشر النار عليه فأرداه قتيلا . فكان هذا الحادث بداية لفتنة عامة في المدينة . اذ هاجم المتظاهرون الكنيسة الانجيلية وأنزلوا الأعلام عن مبنى القنصليتين الفرنسية والبريطانية(٤٠) .

وعلى الرغم من أن القانون العثماني يحظر النشاط التبشيري بين المسلمين فقد سعى غوبات الى نشر البروتستانتية بينهم . فأثار بذلك حفيظة الأكثرية الاسلامية في البلاد وبخاصة السلطات المدنية والدينية فيها(٤١) .

أما الخلاف بين المطران غوبات والقنصل البريطاني في القدس فقد تطور بسبب تدخل قنصل بروسيا في شؤون أسقفية القدس ، وبسبب اعتقاد القنصل البريطاني أن المطران يتعاون مع الرهبان الألمان لصالح بروسيا ويعارض المصالح البريطانية في فلسطين . والواقع ان علاقة صداقة وثيقة نمت بين المطران والقنصل البروسي فأثارت غيظ القنصل البريطاني جيمس فين James Finn . وكانت جنسية غوبات والسلطة

القنصلية التي يتبعها موضوع نقاش وجدل . فقد طلب القنصل البريطاني من المطران المثول أمام محكمته القنصلية فرفض الأخير . فما كان من القنصل الا أن أصدر أمراً بمنعه من مغادرة القدس ، بانتظار صدور قرار المحكمة القنصلية العليا في اسطنبول(٤٢) . غير أن وزارة الخارجية البريطانية تدخلت في الأمر ، وأبلغت قنصلها في القدس بأن المطران غوبات يتمتع بالحماية المشتركة للحكومتين البروسية والبريطانية ، وأنه لامبرر لتدخل القنصل في شؤون الأسقفية(٤٣) .

أما أهم أعمال غوبات في فلسطين فأنشاء المدارس. فقد افتتح في السنة الأولى من أسقفيته أولى مدارس الدياكونيس Diakonissen Schule في القدس ، في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤٧ . وعهد بادارتها الى سيدة انكليزية أرسلت من « جمعية ترويج التعليم النسائي في الشرق "Society of Promoting Female Education in the East" (التي كانت قد تأسست عام ١٨٣٧ وبدأت العمل في الهند والصين والمشرق العربي ، بهدف الربط بين العمل النسائي في البيت والخدمة الطبية والتعليم في المدارس ودور الأيتام وتدريب المعلمين)(٤٤) . وافتتح مدرسة مماثلة في نابلس في ١٠ ايلول ١٨٤٨ بواحد وعشرين تلميذاً(٤٥) .

وفي عام ١٨٥٦ كان غوبات قد أنشأ مدرستين في القدس الأولى للصبيان وتضم ٤١ صبياً ، والثانية وتضم ٤٤ بنتاً ، ومدرسة في بيت لحم تضم ما بين عشرين وأربعين صبياً وبنتاً ، ومدرسة في نابلس تضم ستين صبياً وأربع بنات ، ومدرستين في يافا احداهما للصبيان وتضم ٢٨ صبياً والأخرى للبنات وتضم ٥٣ بنتاً . وبلغ مجموع التلاميذ في هذه المدارس الست ٢٦٠ تليمذاً ، بينهم ٣٩ تلميذاً من أبناء اليهود و ١٦ طفلا من آبناء اليهود المتنصرين ، وستة أطفال من أبناء السامريين ، أما الباقي فمن العرب(٤٦) .

وكانت مدارس الدياكونيس هذه تعلم القراءة والكتابة واللغات الانكليزية والألمانية والعربية وأشغال الخياطة للبنات(٤٧) .

وافتتح غوبات مدارس الكتاب المقدس في بيت لحم وبيت جالا واللد والرملة ويافا ونابلس ورفيديا وزبابدة وبرقين وشفاعمرو والسلط . وكان معظمها بمعلم واحد ، وتراوح عدد تلاميذها بين عشرة وخمسة عشر تلميذاً(٤٨) . واضطر المطران غوبات الى التخلي عن معظم هذه المدارس لمؤسسات تبشيرية انكليزية وألمانية بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني

منه . واتصف التعليم في هذه المدارس البروتستانتية بتدني مستوى المعلمين الأكاديمي والمهني(٤٩) .

لم يكتف المطران غوبات بموارد الأسقفية المحدودة للقيام بنشاطه التبشيري والثقافي . فلجأ الى انشاء صناديق للتبرع في ألمانيا وسويسرا وانكلترا لدعم مشاريعه . وكان يقوم بجولة في أوروبا ، مرة كل عامين ، من أجل جمع المال . وساهمت جولاته هذه في دفع جمعية التبشير الكنائسية الانكليزية (C.M.S.) الى ارسال المزيد من المبشرين الى فلسطين ، وقيام جمعيات تبشيرية عديدة في ألمانيا وسويسرا للغرض نفسه مثل أخوة كريشونا Bruederhaus St. Chrischona قرب بازل في سويسرا ، وجمعية كايزرزفيرت دياكوينس Das Kaiserswerther Diakonissen Mutterhaus وجمعية بيت المقدس Jerusalem Verein في برلين(٥٠) .

قضى غوبات ثلاثاً وثلاثين سنة من عمره أسقفاً للقدس ، الى أن وافته المنية في ١١ أيار ١٨٧٩ ، ودفن في المقبرة الانجيلية على جبل صهيون في المدينة المقدسة(٥١) .

نهاية مطرانية القدس البروسية الانكليزية المشتركة

بوفاة صموئيل غوبات شغر منصب المطرانية الانجليكانية في القدس. وكان على ملكة بريطانيا ، هذه المرة ، أن تختار المطران الجديد ، وفقاً للاتفاقية البروسية ـ الانكليزية لعام ١٨٤١ . ووقع الاختيار على جوزيف باركلي Joseph Barclay (٥٢) عميد كلية ستيبلفورد Stapleford Gollege في هيرتفورد شاير وسيم مطراناً في ٢٥ تموز ١٨٧٩ .

وصل باركلي الى القدس في ٣ شباط ١٨٨٠ . وكان البروتستانت في المدينة المقدسة عند وصوله اليها منقسمين الى جماعات قومية ولغوية متميزة ، ان لم نقل متنافرة . وكانت الجماعة الأولى من البروتستانت الانكليز واليهود المتنصرين الذين كانوا يترددون على كنيسة المسيح ، بينما تألفت الجماعة الثانية من البروتستانت الألمان الذين أصبح انمتاؤهم للدولة الألمانية الموحدة منذ عام ١٨٧١ أقوى من انتمائهم للكنيسة البروتستانتية . أما الجماعة الثالثة فتألفت من البروتستانت العرب الذين كانوا يحظون بدعم جمعية التبشير الكنائسية C.M.S. وقد بنى أتباع هذه الجماعة الأخيرة كنيسة خاصة بهم هي كنيسة القديس بولس التي افتتحت للعبادة لأول مرة عام ١٨٧٤(٥٣) .

ولم يقتصر الأمر على انقسام الطائفة البروتستانتية على نفسها ، وانما انفصل معظم البعثات التعليمية والطبية التابعة لمطرانية القدس عنها ، وألحقت بالبعثة التبشيرية الكنائسية وغيرها من البعثات التبشيرية. وقبل أن يتمكن المطران باركلي من حل المشكلات التي واجهته فاجأه الموت في ٢٣ تشرين الأول عام ١٨٨١ .

فتح موت باركلي الباب على مصراعيه لنزاع دبلوماسي بين ألمانيا وبريطانيا حول مطرانية القدس . فقد جاء دور ملك بروسيا لاختيار المطران الجديد . وبعد مفاوضات طويلة رأت الحكومة الألمانية انه لا بد من اعادة النظر في اتفاقية عام ١٨٤١ التي تجاوزتها الأحداث ، وبخاصة بعد الأهمية الكبرى التي اكتسبتها ألمانيافي أوروبا منذ عام ١٨٧١ . وكان الاعتراض الألماني على الاتفاقية المذكورة يدور حول نقطتين هما : حق النقض الذي يتمتع به رئيس أساقفة كانتربري على تعيين المطارنة في القدس ، ورفض الرهبان اللوثريين الألمان اعادة ترسيمهم ليصبحوا رهباناً انجليكانيين . ورغم الحاح ألمانيا رفض رئيس أساقفة كانتربري تقديم أية تنازلات للألمان . فما كان من حكومة بروسيا الا أن أعلنت انسحابها من الاتفاقية . وأيد القيصر الألماني فيلهلم الأول Wilhelm I هذا الانسحاب الذي أعلن رسمياً في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٨٦ . وأبلغ البارون فون هاتسفيلد Von Hatzfeld سفير ألمانيا في لندن وزارة الخارجية البريطانية رسمياً بقرار الحكومة الألمانية بالغاء الاتفاقية في ٤ كانون الأول ١٨٨٦ ، وردت الخارجية البريطانية على ذلك بالموافقة(٥٤).

والواقع ان أسباب القطيعة يمكن حصرها بما يلي :

١ ـ وضع الرهبان الألمان التابعين لمطرانية القدس الانجليكانية والذي لم يتفق ومصالح ألمانيا . فقد رفضت مطرانية القدس أن تمنح الكنيسة اللوثرية الألمانية الحقوق نفسها التي كانت تتمتع بها الكنيسة الأنجليكانية في فلسطين .

٢ ـ التزام من تختاره بروسيا مطراناً للقدس بالتوقيع على بنود تعاليم المهنة التسعة والثلاثين الواردة في العقيدة الانجليكانية .

٣ ـ حق النقض الذي كان يتمتع به رئيس أساقفة كانتربري لمن ترشحه بروسيا لمنصب المطرانية .

٤ ـ فشل الغاية من انشاء المطرانية المقدسية وهي توحيد الكنائس

البروتستانتية ، كما كان يأمل ملك بروسيا ، وبقيت الكنائس البروتستانتية في عزلتها القومية .

٥ ــ عجز المطران البروتستانتي في القدس عن حماية مصالح الطائفة الألمانية البروتستانتية . وكان القنصل البروسي حتى عام ١٨٧١ ، والألماني فيما بعد هو الذي يتولاها .

٦ ــ كان محرماً على المطران زيارة الكنيسة الألمانية واقامة أي احتفال ديني فيها وذلك وفقاً لأوامر وتعليمات الكنيسة الانجليكانية .

٧ ــ زيادة عدد الألمان في فلسطين على عدد الانكليز وازدياد عدد مؤسساتهم الدينية والخيرية(٥٥) .

نشاط الارساليات التبشيرية البروتستانتية الألمانية

أخوة كريشونا St. Chrischona Missionhaus :

يرتبط التبشير البروتستانتي الألماني في فلسطين ، في بداياته ، باسم المبشر الألماني الآب شبتلر Spittler (٥٦) ، الذي عمل في الجمعية الألمانية المسيحية Die Deutsche Christentums Gesellschaft وفي دار البعثة البازلية Das Baseler Missionshaus بين عامي ١٨٠٧ و ١٨٤٠ . وأنشأ في كنيسة القديس كريشونا الواقعة على بعد مسيرة ساعة ونصف الساعة من بازل بعثة الحجاج Pilgermission في عام ١٨٤٠ . وأخذت هذه البعثة تستقطب الشبان المسيحيين المتدينين وبخاصة أصحاب الحرف اليدوية لتدريبهم على أيدي الرهبان ليصبحوا رهباناً قادرين على العيش من دخلهم الخاص كحرفيين . وكانت أخوة كريشونا تقوم بنشاط ديني وثقافي في أوساط المهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية . أما شبتلر فقد بدأ صلاته بالشرق من خلال عمله في دار البعثة البازلية التي كانت نشيطة في أرمينيا(٥٧) .

ومنذ عام ١٨٣٦ شرع شبتلر يتداول مع عدد من رجال الدين والفكر الألمان فكرة استعمار الأرض المقدسة . غير أن العقبات التي قد تعترض هذا المشروع بدت وكأنها متعذرة التذليل .

وجاء اختيار صموئيل غوبات أسقفاً للكنيسة البروسية ــ البريطانية المشتركة في القدس عام ١٨٤٦ ، ليبعث الهمة في نفس شبتلر ويشجعه

على النشاط التبشيري في فلسطين • فقد عرف هذا غوبات عند تردده على أخوة كريشونا • وأمل في أن ينال دعمه وتأييده لمشاريعه التبشيرية في فلسطين • ولذلك ما كان منه الا أن اقترح على المطران غوبات انشاء مركز لأخوة كريشونا في القدس « حتى يرى الناس الفقراء هناك نموذجاً حياً أمام أعينهم كيف يعيش المسيحيون الحقيقيون، وكيف يعاملون من يحيطون بهم بمحبة ، وكيف يصلون ويعملون ، وكيف يسعون بالمشورة والعمل الى مساعدتهم » • كما رشح الراهبين بالمر Palmer وشيك Schick من فورتمبرغ Wuerttemberg لهذه الغاية ، شريطة أن يتدرب الأول على صناعة الصابون واعداد بعض المواد الكيماوية ، وأن يتدرب الثاني على الحدادة والميكانيك في أخوة كريشونا، قبل ارسالهما الى فلسطين(٥٨) •

تم لشبتلر ما أراد وسافر الراهبان بالمر وشيك من بازل في ٦ ايلول ١٨٤٦ الى فلسطين ، فوصلا القدس وقابلا المطران غوبات في ٣٠ تشرين الأول من ذلك العام • واستأجرا بيتاً في القدس للبدء في مشروعهما • غير أنهما واجها بعض المصاعب في بداية عملهما بسبب جهلهما باللغة العربية وبالعادات والتقاليد المحلية • وأخذ بالمر يسعى الى اجتذاب أطفال الفقراء الى البيت الذي استأجره لتعليمهم • كما قام شيك بصيانة ذلك المركز التدريبي الصغير وتدريب الأطفال على بعض الحرف اليدوية(٥٩) •

وأرسل شبتلر ، في عام ١٨٤٨ ، راهبين آخرين الى القدس هما ميللر Mueller وبالدنشبرغر Baldensperger لينضما الى بالمر وشيك من أجل توسيع نشاط هذا المركز التبشيري • ولم يوفق الرهبان الأربعة في مسعاهم وانفرط عقدهم • ولكن المطران غوبات أوكل الى بالمر ادارة مدرسة المطران في القدس وبقي مديراً لها حتى عام ١٨٨٩ ، وأوكل الى رفيقه بالدنشبرغر الشؤون المالية للمدرسة نفسها • أما الراهب شيك فقد عمل في المدرسة المهنية التابعة لجمعية يهود لندن • ودخل الراهب ميللر في جمعية التبشير الكنائسية(٦٠) •

واتفق شبتلر مع المطران غوبات في عام ١٨٥٢ على تزويد الأسقفية في القدس بما تحتاج اليه من الرهبان المتخصصين بالحرف اليدوية ، وعلى اعادة فتح بيت أخوة كريشونا والتعليم باللغة العربية(٦١) • وبناء على هذا الاتفاق أرسل شبتلر المعلم يوهان لودفيغ شنلر Johan Ludwig Schneller الى القدس في ٨ تشرين الثاني عام ١٨٥٤ ترافقه زوجته وستة من

الرهبان . وما أن انقضى عام واحد على اقامة هؤلاء الرهبان في المدينة المقدسة حتى التحق أربعة منهم بالمبشر الدكتور كرابف في الحشبة . وسعى شبتلر الى الابقاء على بيت الرهبنة في بيت المقدس ، وذلك بتحويله الى مدرسة تبشيرية . أما شنلر فقد اشترى قطعة من الأرض خارج أسوار القدس عام ١٨٥٥ ، وبنى عليها منزلا صغيراً ليبدأ منه عمل الارسالية التبشيرية لأخوة كريشونا . ولكنه لم يوفق في مشروعه هذا فاضطر الى التعليم في مدارس المطران غوبات(٦٢) .

وفي عام ١٨٥٩ وصل الى شنلر خمسة من رهبان كريشونا بعث بهم شبتلر . وانتقل بهم الى المنزل الذي بناه خارج أسوار القدس حيث بدأوا عملهم التبشيري بصورة مستقلة .

ولدعم نشاط هذه الارسالية اعتقد شبتلر أن لا بد من توثيق صلاتها بالارسالية التبشيرية التابعة للأخوة في الحبشة . ولما كان الاتصال عن طريق البحر الأحمر غير مأمون فقد اقترح أن يتم الاتصال بين الارساليتين براً عبر مصر والسودان ، وذلك بانشاء « محطات » من المحلات التجارية على طول الطريق بمعدل محطة واحدة لكل خمسين كيلو متراً . وأطلق على هذا الطريق البري اسم « طريق الرسل » . وأوكل الى المبشرين في القدس تامين الاتصال البري بالرهبان في الحبشة . وكان المبشرون الخمسة الذين أوفدوا من كريشونا عام ١٨٥٩ الى منزل شنلر جزءاً من تنفيذ هذا المشروع . وفي العام التالي أنشئت محطة ماتهويس Matthaeus في الاسكندرية ومحطة ماركوس Markus في القاهرة كخطوة تالية في تنفيذ المشروع .

غير أن وفاة شبتلر عام ١٨٦٧ وضعت نهاية للمشروع واضطر الرهبان الذين التحقوا بالمحطات المذكورة الى العمل في مؤسسات تبشيرية أخرى . وغادر العديد منهم البلاد العربية الى أمريكا(٦٣) .

أما شنلر فلم يكن من محبذي مشروع « طريق الرسل » واكتفى بالاهتمام بالعمل التبشيري في الأرض المقدسة . وعبر في رسالة الى أحد أصدقائه ، عام ١٨٩٠ ، عن الآثار السيئة التي ترتبت على المنافسة بين الارساليات التبشيرية . وجاء فيها : « حينما أقف على سطح دار الأيتام وأجول بنظري هنا وهناك وأرى في كل مدينة ارسالية انكليزية أفسدت الشعب بالأموال التي تنفقها ، وكانت أضرارها أكثر من فوائدها ، تعود

بي الذاكرة الى ما قبل ثلاثين سنة حينما اختارت « بعثة الحج » الطريق الأصوب للهيمنة على هذه البلاد ، برجال بسطاء بدأوا نشاطهم في منزلي وهم لا يملكون عشر ما لدينا حالياً من الوسائل · عندما أفكر في ذلك وأستعرض حاجتنا الى المصداقية والشجاعة والايمان وهجرة العديد من المبشرين الى أمريكا ، يلتهب فؤادي أسى وأميل الى البكاء بكاء مراً ··· »(٦٤) ·

ولم يقتصر نشاط أخوة كريشونا على مدينة القدس فقد بعثت بالراهب يوهانس تسلر Johannes Zeller من مملكة فورتمبرغ فوصل الى فلسطين عام ١٨٥٧ · وأمضى في الناصرة عشرين سنة كما أمضى مثلها في القدس · وافتتح في عام ١٨٧١ كنيسة انجيلية في الناصرة وبمساعيه أنشأت جمعية تعليم الفتاة في الناصرة داراً للأيتام وعدداً من المدارس النهارية · وتولت تمويل هذه المدارس والاشراف عليها في وقت لاحق جمعية التبشير الكنائسية · وتولى تسلر فيما بعد تدريب المعلمين في مدرسة المطران غوبات في القدس · وقضى تسلر ستة وأربعين عاماً في فلسطين · وغادرها الى ألمانيا في صيف عام ١٩٠١ · غير أن الموت فاجأه هناك في ١٩ شباط ١٩٠٣(٦٥) ·

وتولى راهب آخر من أخوة كريشونا هو كريستيان فالشير Christian Fallscheer بناء كنيسة ومنزل للرهبان في نابلس عام ١٨٦٤ · وبفضل مساعيه تم بناء مستشفى للارسالية في المدينة نفسها(٦٦) ·

المؤسسات والمنشآت الخيرية البروتستانتية الألمانية

دار الأيتام السورية Das Syrische Waisenhaus :

أسفرت الفتنة الأهلية في جبل لبنان بين المسلمين والمسيحيين في عام ١٩٦٠ عن لجوء العديد من النساء والأطفال الى المناطق الساحلية · كان من بين هؤلاء مئات الأطفال الأيتام · وسارعت الهيئات الدينية والخيرية في أوروبا لتقديم العون لهؤلاء اللاجئين ؛ الأيتام منهم بوجه خاص · وقام المعلم شنلر مدير مركز الأخوة الشبتلرية في القدس Das Spittlersche Bruederhaus التابعة لبعثة الحج في كريشونا ، بجهود طيبة في هذا المضمار · فقد زار بيروت وقابل العديد من اللاجئين سعياً الى جلب بعض الأطفال اليتامى الى بيته · غير أن جهوده باءت بالفشل ، ولم يحصل على طفل واحد بسبب معارضة رهبان الطوائف المسيحية

للمساعدة المقدمة من راهب بروتستانتي ٠ وعاد من بيروت الى القدس خالي الوفاض ٠ ولكنه ما لبث أن قام بزيارة أخرى الى صيدا حيث تمكن من جلب تسعة أطفال معه الى القدس في ١١ تشرين الثاني عام ١٨٦٠ ، فكان هؤلاء بداية دار الأيتام السورية(٦٧) ٠ ومع نهاية العام نفسه بلغ عدد الأطفال الأيتام في منزل شنلر ٢٩ طفلا ٠

كان هؤلاء الأطفال ينامون على مساند من القش يتسع كل منها لأربعة أطفال ٠ ويتولى شنلر نفسه تعليمهم القراءة والكتابة باللغتين العربية والألمانية ٠ كما يقوم رهبان آخرون بتدريبهم على بعض الحرف اليدوية ٠ وأخذ عدد الأطفال يزداد مع السنين حتى بلغ ستين طفلا عام ١٨٧٠ و ١٢٦ طفلا عام ١٨٨٠ ٠ وألف شنلر هيئة استشارية لتقديم المشورة والنصح من أجل تطور دار الأيتام ٠ أما العبء الأكبر فقد وقع على شنلر نفسه(٦٨) ٠

وتشعبت الدراسة والتدريب في الدار مع الزمن ٠ فقد وجد شنلر أنه لا يكفي تدريس الأطفال حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ليتمكنوا من ايجاد عمل مستقل لهم في الحياة ، بل من الضروري ابقاءهم في الدار حتى سن الثامنة عشرة والعشرين لتأهيلهم لمهنة تؤمن معيشتهم ٠ وأنشأ شنلر عدة مشاغل حرفية لهؤلاء في الدار مثل الخياطة والنجارة والحدادة وتجليد الكتب والطباعة وصناعة الأحذية والخراطة وصناعة الفخار ٠ وكان يدير هذه المشاغل معلمون ألمان الى أن حل العرب محلهم مع الزمن ٠ وسمح للمتفوقين من التلاميذ حضور ندوات خاصة بعد اتمام دراستهم ودخول المدرسة الثانوية ٠ وقد تخرج من هذه الدار العديد من المترجمين والمعلمين والحرفيين والرهبان الانجيليين(٦٩) ٠

وبدأ شنلر في السبعينات من القرن التاسع عشر يفكر بانشاء مستعمرة انجيلية من خريجي دار الأيتام ، على أن تكون الدار نفسها نقطة البداية٠ وشرع يبحث عن قطعة من الأرض لهذه الغاية ٠ فوقع اختياره على قطعة من الأرض بالقرب من الرملة ، غير أن السلطات العثمانية لم توافق على شرائها ٠ وبعد محاولات دامت سنة كاملة تدخل في نهايتها القيصر الألماني فيلهم الأول ، وافق الباب العالي على تأجير شنلر قطعة من الأرض مساحتها ٥٨٥ هكتاراً لمدة أربعين سنة ٠ وفي عام ١٨٨٩ افتتحت المدرسة في بير سالم(٧٠) ٠

لم يعمر شنلر طويلا، اذ توفي في ١٨ تشرين الأول عام ١٨٩٦ ٠ ولم يؤثر

موته على سير الدراسة في دار الأيتام · وكان قد أخذ الخيطة لاستمرار هذا المشروع · فأنشأ « الرابطة الانجيلية لدار الأيتام السورية في القدس Der Evangelische verein fuer das Syrische Waisenhaus in Jerusalem في مدينة كولون الألمانية عام ١٨٨٩ · وتولى ادارة الدار بعد وفاة شنلر ابنه الأكبر ثيودور Theodor Schneller الذي كان يعمل مراقباً فيها منذ عام ١٨٨٥ · أما مجلس أمناء الدار في كولون فكان يشرف على الخطط الدراسية والتدريبية فيها · وفي السنة التي توفي فيها شنلر الأب بلغ عددتلاميذ الدار ٢١٨ تلميذاً، كمابلغ عدد العاملين فيهامن معلمين وحرفيين ورهبان وموظفين بما في ذلك أبناؤهم حوالي ٦٥ شخصاً · ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت دار الأيتام السورية أكبر مؤسسة تعليمية انجيلية في فلسطين(٧١) ·

وكانت الدار قد فتحت أبوابها للأطفال الأيتام من الأرمن اثر ثورة الأرمن عام ١٨٨٩ ، وبلغ عدد هؤلاء ١٢٥ طفلا عام ١٩٠٠ · وأضيف الى الدار فرع لايواء المكفوفين والمكفوفات في عام ١٩٠٣ ، كما أضيف فرع زراعي في بير سالم وآخر في المخيمة عام ١٩٠٦ · وأحدث قسم ثانوي فيها وقسم لتدريب المعلمين عام ١٩١٠ · وبتبرع من الأمير الألماني كريستوف فون ميونخ Graf Christoph von Muenich بنيت دارللمكفوفين عام ١٩١١ · وبلغ عدد الذين تخرجوا من الدار منذ انشائها حتى عام ١٩١٠ (١٤٨٣) يتيماً ويتيمة منهم ١٢٥٦ يتيماً و ١١٥ يتيمة و ٦٨ مكفوفاً و ٤٤ مكفوفة(٧٢) ·

وأصدرت دار الأيتام منذ عام ١٨٨٥ دورية « رسول من صهيون Der Bote aus Zion » بالألمانية لنقل أخبار الدار والأرض المقدسة الى الناطقين بالألمانية(٧٣) ·

وبلغت الميزانية السنوية للدار عام ١٩١٠ تسعة آلاف جنيه استرليني كان ٧٥٠٠ جنيه منها تجمع من تبرعات المحسنين(٧٤) ·

جمعية بيت المقدس Der Jerusalem Verein

كانت امارات جنوب ألمانيا وسويسرا قد سبقت غيرها من المناطق الألمانية الى التبشير البروتستانتي في فلسطين · ورغم محاولة ملك بروسيا فريدريش فيلهلم الرابع اثارة اهتمام سكان مملكته بالتبشير الانجيلي في الأرض المقدسة بانشاء « مؤسسة مطرانية القدس

Stiftung des Bistums Jerusalem » عام ١٨٤١ ، فقد أبدى البروسيون تحفظاً وبروداً نحو هذا المسعى • غير أن هذا التحفظ لم يدم طويلا ، فقد رافق الاهتمام السياسي بفلسطين والذي تمثل بفتح قنصلية بروسية في بيت المقدس عام ١٨٤٣ ، حماس تبشيري ونشاط مكثف تجسد بقيام جمعية بيت المقدس في برلين بهدف « دعم المؤسسات البروتستانتية والجماعات الألمانية في الشرق الأدنى » •

يعود الفضل في انشاء هذه الجمعية الى الدكتور شتراوس F. A. Strauss مساعد الواعظ في كتدرائية برلين ، الذي زار فلسطين عام ١٨٤٥ ونشر كتاباً عن رحلته هذه بعنوان « سيناء والجلجثة Sinai und Golgo لقي اقبالا واسعاً بين الألمان وأثار اهتمامهم بفلسطين • ومنذ عام ١٨٤٧ بدأ شتراوس الاحتفال « بيوم القدس » في كاتدرائية برلين ، وهو اليوم الذي وصل فيه أول مطران انجيلي الى المدينة المقدسة (٢١ كانون الثاني)(٧٤) •

وفي الثاني من كانون الأول عام ١٨٥٢ أنشأ شتراوس بالتعاون مع المايور فستفال Major Westphal وغيره من رجال الفكر والدين « جمعية بيت المقدس Der Jerusalem Verein » وتولى هوفمان D. Hoffmann منصب الرئيس الأعلى فيها وخلفه في هذا المنصب كيجل D. Koegel عام ١٨٧٥ ،والأمير تسايتن شفيرين Graf Zeiten-Schwerin الذي بقي في هذا المنصب حتى نهاية القرن التاسع عشر • أما ادارة الجمعية فقد تولاها شتراوس نفسه حتى عام ١٨٨٦ •

وتأسست فروع للجمعية في مدن بريسلاو Breslau وشلنتسر Schlenzer وفيسلار Wesslar وشتوتجارت Stuttgart ومناطق شيليزيا Schlesien وبروسيا الشرقية ومملكة سكسونيا وتورنجن(٧٥) واقتصر نشاط الجمعية في السنوات الأولى من حياتها على التبشير الانجيلي • وأصدرت في عام ١٨٥٧ مجلة « أحدث الأخبار من الشرق Neusten Nachrichten aus dem Morgenlande » بمعدل مرة كل شهرين وكانت توزعها مجاناً على أعضائها • ثم أخذت تصدر بعد فترة من الزمن بعنوان « الأخبار من مملكة الرب Neusten Nachrichten aus dem Reiche Gottes » وكانت تنقل معلومات وافية ودقيقة عن نشاط الكنيسة الانجيلية في فلسطين •

بانشاء جمعية بيت المقدس نالت مطرانية القدس الانجليكانية دعماً

حقيقياً من ألمانيا . فقد حظيت هذه الجمعية بمساندة الكنيسة الوطنية البروسية Preussische Land Kirche والحصول على معونة مالية سنوية منها ، حتى بلغ دخل الجمعية السنوي عشرين ألف مارك . وأخذت تقوم بالمشروعات التبشيرية والثقافية والصحية في فلسطين . فقد أنشأت مركزاً لارسالية تبشيرية في بيت لحم عام ١٨٦٠ . وبعد ذلك بخمس سنوات أسست مركزاً مماثلا في بيت جالا . كما أمدت مؤسسة كايزرزفيرت Kaiserswerte Stiftung في القدس بالمال والرهبان . وساندت بقوة « المؤتمر السنوي لرجال الدين الانجيليين الألمان في الشرق « Konferenz der deutsch-evangelischen Geistlichen des Orients وكان لها دور بارز في قيام جماعة انجيلية ألمانية في يافا وأخرى في حيفا خلال عامي ١٨٩٠ و ١٨٩١(٧٦) .

بدأت جمعية بيت المقدس نشاطها التبشيري والثقافي في بيت لحم عام ١٨٦٠ . وأوفدت المبشر ميلر Mueller من أخوة كريشونا ليتولى رئاسة الارسالية في تلك البلدة . فأنشأ مدرسة للبنين بالتعاون مع الأسقف غوبات ، وتولت الجمعية الانفاق عليها منذ عام ١٨٧١ . واشترى ميلر قطعة من الأرض خارج البلدة بنى عليها منزلا ومدرسة وقاعة للصلاة . وقامت زوجته بنشاط واسع في الوسط النسائي في بيت لحم ، حيث آخذت تدرب الفتيات على أعمال الخياطة والتطريز في منزلها . كما تولت العناية بالأطفال والأيتام ، واحتوى بيتها على حوالي عشرين منهم . وواجه ميلر، كغيره من المبشرين البروتستانت ، مقاومة شديدة من رهبان الطوائف المسيحية الأخرى . وتعرض وأتباعه للأذى أكثر من مرة . ولم يتمكن من حماية أتباعه الا بعد أن اعترفت السلطات العثمانية المحلية بالطائفة الانجيلية في بيت لحم عام ١٨٦٥ . وبلغ عدد الأسر التي انتمت الى الكنيسة الانجيلية في البلدة أربعين أسرة .

أنشأ ميلر مدرسة للبنين في بيت لحم عام ١٨٦٤ ومدرسة للبنات فيما بعد . وتولى ادارة المدرسة الأولى ابن أخيه عمانوئيل ميلر Emmanuel Mueller عام ١٨٧١ . أما ميلر العم فقد أمضى في العمل التبشيري في بيت لحم مدة أربع وعشرين سنة . اذ ما لبث أن أرهقه المرض، فنقل الى ألمانيا في الأول من نيسان عام ١٨٨٤ وبقي هناك حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٨٩١(٧٧) .

خلف ميلر في ادارة الارسالية التبشيرية في بيت لحم القس يوهان

لودفيغ شنلر ، مؤسس دار الأيتام السورية ، بناء على تعليمات من جمعية بيت المقدس . فقام شنلر بشراء قطعة من الأرض لبناء كنيسة انجيلية في البلدة عام ١٨٨٧ بعد أن جمع للمشروع نحو ١٥٠٠ جنيه استرليني من التبرعات من ألمانيا . وأطلق على الكنيسة الحديدة اسم « كنيسة الميلاد » . غير أن السلطات العثمانية لم تسمح له بالبناء فأرجأ المشروع الى عام ١٨٨٩ بعد أن صدر فرمان سلطاني بالترخيص ببناء الكنيسة بمناسبة زيارة القيصر الألماني فيلهلم الثاني وزوجته لاسطنبول في ذلك العام . غير أن شنلر غادر بيت لحم قبل صدور الفرمان المذكور بعام واحد . واضطرت جمعية بيت المقدس الى تعيين عمانوئيل ميلر مديراً للارسالية التبشيرية الذي شرع في بناء الكنيسة وافتتحت في ٦ تشرين عام ١٨٩٣(٧٨) .

وقبل أن يتولى عمانوئيل ميلر ادارة الارسالية بعام واحد تولاها مساعد الواعظ بيتشر J. Boettcher الذي تولى مع راعي الكنيسة الانجيلية في القدس شليخت Schlicht اصدار دورية « أوراق انجيلية من بيت لحم Evangelische Blaetter aus Bethlehem » بقصد اثارة اهتمام الألمان بهذه البلدة وجمع التبرعات للمشروعات التبشيرية الانجيلية فيها .

وانشأت جمعية بيت المقدس داراً للأيتام في بيت لحم عام ١٨٩٦ لايواء الأطفال الأيتام من الأرمن . وما لبثت أن بنت داراً جديدة للأيتام خارج البلدة على طريق الخليل عام ١٨٩٨ لتستوعب سبعين يتيماً . تولى الاشراف عليها عمانوئيل ميلر وزوجته . وقد افتتح القيصر الألماني فيلهلم الثاني هذه الدار في ٣٠ تشرين الأول عام ١٨٩٨ أثناء زيارته لفلسطين(٧٩) . هذا ونما عدد البروتستانت في البلدة المذكورة حتى بلغ ١٥٠ فرداً عام ١٩١٠(٨٠) .

امتد المبشر ميلر بنشاطه من بيت لحم الى بيت جالا . وأخذ يتردد على هذه البلدة مساء كل يوم أحد واعظاً ومرشداً . واستأجر غرفة صغيرة لهذه الغاية . غير أن أتباع الطوائف المسيحية الأخرى أحرقوا الغرفة وطردوا ميلر منها . وتولى هذه المهمة من بعده المبشر شنلر الذي نجح في استقطاب عدد من سكان البلدة . وأرسل اليهم المعلم العربي بشارة كنعان ليقوم بالوعظ الديني صباح الأحد من كل أسبوع . وفي عام ١٨٧٨ قررت جمعية بيت المقدس تكليف بشارة كنعان بالاشراف على الجماعة الانجيلية العربية في بيت جالا . فقام ببناء دار ومدرسة وقاعة للصلاة والاجتماعات

العامة · وأنشأت زوجته مدرسة للخياطة والتطريز لتدريب نساء البلدة(٨١) ·

وتعرضت الطائفة الانجيلية في بيت جالا لعاصفة قوية كادت أن تجتث جذورها وتقضي عليها قضاء تاماً · ففي ربيع عام ١٨٨٥ وقع صدام بين البروتستانت وخصومهم الروم الأرثوذكس ، أسفر عن مقتل فتاة أرثوذكسية أثناء تراشق الحجارة بين الطرفين · فثار الأرثوذكس وطالبوا بالثأر · واضطر البروتستانت الى الرحيل عن البلدة الى الكرك في شرقي الأردن · وبعد ستة شهور من المفاوضات بذل خلالها القس شنلر جهوداً كبيرة عاد البروتستانت الى منازلهم بعد أن دفعوا دية القتيلة · وعلى أثر عودتهم قامت جمعية بيت المقدس ببناء كنيسة صغيرة افتتحت عام ١٨٨٦ · وبعد ذلك بعامين افتتحت مدرسة للبنات · وسيم بشارة كنعان واعظاً دينياً في البلدة عام ١٨٩١ وتولى ادارة الارسالية التبشيرية فيها حتى مطلع القرن العشرين · ونما عدد البروتستانت فيها حتى بلغ ١٤٠ فرداً عام ١٩١٠(٨٢) ·

واتجهت أنظار جمعية بيت المقدس الى التبشيرفي الأوساط الاسلامية، رغم ما في ذلك من مخاطر · فالقانون العثماني يحظر مثل هذا النشاط وينص على عقاب كل مرتد عن الاسلام بالاعدام · واختارت الجمعية مدينة الخليل لتبدأ فيها تجربتها ولم يكن بالامكان أن تبدأ التبشير بالطرق التقليدية مثل الاتصال بالمسلمين والدخول في نقاش ديني معهم · وانما عمدت الى وسيلة مغرية وهي انشاء عيادة طبية في المدينة · وأرسلت الطبيب الياس ضاهر خريج المعهد الطبي في الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) في بيروت لهذه الغاية · واستأجرت الجمعية منزلا ليكون عيادة وصيدلية ومدرسة عام ١٨٨٤ · غير أن مفتي المدينة قاوم هذه المحاولة الجريئة · فأصدر فتوى بتعريض كل مسلم يتردد على العيادة الطبية أو المدرسة للعقوبة · فما كان من الجمعية الا أن أغلقت عيادتها ومدرستها عام ١٨٨٨ وباءت بذلك تجربتها بالفشل(٨٣) · وثبت للجمعية أن الوقت لم يحن بعد لاقامة ارسالية تبشيرية في وسط اسلامي ·

وفي عام ١٨٩٩ أعلنت أربع وعشرون أسرة من الروم الأرثوذكس في بلدة بيت ساحور انفصالها عن الكنيسة الأرثوذكسية وانضمامها الى الكنيسة الانجيلية ، فما كان من جمعية بيت المقدس الا أن تولت رعاية هذه الجماعة · وقامت ببناء مدرسة للصبيان وأخرى للبنات ومسكن

للمعلمين . غير أن المهتدين الجدد ما لبثوا أن عادوا الى كنيستهم وتخلوا عن الكنيسة الانجيلية ، بعد أن أصيبوا بخيبة أمل عند تحولهم الى المذهب الجديد وعلى أية حال لم يزد عدد المنتفعين برعاية جمعية بيت المقدس من العرب البروتستانت عن ٣٤٠ فرداً عام ١٩١٠(٨٤) .

رهبنة الدياكونيس في كيزرزفيرت على الراين

Das Diakonissen Mutterhaus Kaiserswerth am Rhein

مؤسس هذه الرهبنة ورئيسها القس ثيودور فليدنر Theodor Fliedner الذي قام عام ١٨٤٦ بزياة الى لندن تعرف خلالها على المطران صموئيل غوبات المعين في القدس . واتفق الاثنان على أن تقوم الرهبنة بنشاط تبشيري في بيت المقدس . وبعد أن باشر المطران غوبات عمله طلب من فليدنر عام ١٨٥٠ تزويده براهبتين دياكونيسيتين . وكان فليدنر في برلين حينما تسلم رسالة غوبات . فما كان منه الا أن أبلغ الملك فريدريش فيلهلم الرابع بذلك ، وطلب منه العون . استجاب الملك البروسي لرغبة فليدنر ، وتم الاتفاق على ارسال أربع من الراهبات الدياكونيس وتزويدهن بالأموال اللازمة من صندوق التبرعات التابع لكنيسة بروسيا الانجيلية الوطنية(٨٥) .

وصل فليدنر الى القدس في ١٧ نيسان عام ١٨٥١ يرافقه أربع من الراهبات للبدء بنشاط رهبنة الدياكونيس في فلسطين . وكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل استئجار منزل مناسب . ووقع الاختيار على منزل صغير على جبل صهيون ليس بعيداً عن موقع « كنيسة المسيح » الانجليكانية . وكان المنزل مؤلفاً من طابق أرضي استعمل مأوى ، وطابق علوي يحتوي على غرفتين استعمل مستشفى بثمانية أسرة . وتولى ادارته طبيب من مستشفى البعثة اليهودية الانكليزية . أما المأوى فكان البداية لمدرسة طاليتا قومي للبنات Talitha-Kumi (٨٦) . وفي عام ١٨٥٥ تولت الراهبة شارلوطة بليتس Charlotte Plitz ادارة المدرسة حتى أسبغت اسمها على المدرسة فسميت مدرسة شارلوطة(٨٧) .

أما مستشفى الدياكونيس فكان أول مستشفى في القدس يستقبل المرضى من كافة الطوائف الدينية في المدينة ، بينما اقتصر مستشفى البعثة اليهودية ـ الانكليزية (جمعية يهود لندن L. J. S.) على استقبال

المرضى من اليهود فقط . وبلغ عدد المرضى الذين عولجوا في مستشفى الدياكونيس في العام الأول نحو مئة مريض(٨٨) .

ولما رغب صاحب المبنى في بيعه عام ١٨٥٦ وجدت الارسالية الدياكونيسية نفسها مكرهة على شرائه أو بناء دار جديدة . وهنا تبرع ملك بروسيا بما تجمع في صندوق التبرعات التابع لكنيسة بروسيا الوطنية (أي ١٣٠٣٢ تالر) للارسالية . عند ذلك اتجهت النية الى الخروج من المدينة وشراء قطعة من الأرض خارجها . وتبرعت ملكة بروسيا اليزابيث Elizabeth Von Preussen بعدد من الخيمات لنصبها خارج القدس في الصيف واستعمالها مأوى للأطفال . وتم شراء قطعة من الأرض تبعد مسيرة عشر دقائق عن باب يافا . وشرع ببناء المستشفى عام ١٨٥٩ . واتضح بعد ذلك أن قطعة الأرض لا تكفي ، كما أن وجود الأطفال الى جانب المرضى في مبنى واحد أمر غير مقبول ، ولا بد من فصل الأطفال عن المرضى . وفي عام ١٨٦٦ وضع حجر الأساس للمبنى الجديد الذي اتخذ اسم « طاليتا قومي » ، وأشرف على البناء الراهب الكريشوني الدكتور شيك C. Schick . واحتفل بافتتاح المدرسة عام ١٨٨٦ . وبلغ عدد تلميذاتها في ذلك العام ٨٩ تلميذة(٨٩) .

كانت مدرسة طاليتا قومي تتقاضى من أولياء أمور التلميذات الفقيرات مبلغاً سنوياً يتراوح بين عشرين وثلاثين فرنكاً فرنسيا . وبلغ عدد العاملات في المدرسة عام ١٨٩٨ ثماني راهبات دياكونيسيات . وضمت ١١٧ تلميذة بينهن سبع عشرة تلميذة أرمنية . واستمرت الراهبة شارلوطة بليتس تدير هذه المدرسة مدة خمس وأربعين سنة(٩٠) . وتبرع في ذلك العام قيصر ألمانيا فيلهلم الثاني بمبلغ من المال للمدرسة بمناسبة زيارته لفلسطين ، ساعد في توسيع مبناها(٩١) .

أما المستشفى فقد استمر في داخل المدينة حتى بلغ عدد الذين قدم لهم خدمات طبية خلال عام ١٨٦٨ حوالي ثمانمائة مريض . وقل عدد المرضى في السبعينات من القرن التاسع عشر بسبب انشاء مستشفيات أخرى في المدينة المقدسة . وبناء على رأي الطبيب المشرف على المستشفى الدكتور هوفمان Hoffmann تقرر نقله الى مبنى جديد خارج أسوار القدس . وتشكلت ، في عام ١٨٨٥ ، لجنة من المبشر الألماني شلخت Schlicht وعدد من الرهبان الألمان أقامت اتصالات مع رهبنات الدياكونيس في ألمانيا وسويسرا وهولندا من أجل التبرع لانشاء المستشفى

الجديد . فاستجاب لنداء اللجنة العديد من المحسنين . وفي عام ١٨٩٠ تم شراء قطعة من الأرض غير بعيدة عن مبنى مدرسة طاليتا قومي في الحي المعروف (الشيخ عكاشه) . وبدأ بناء المستشفى عليها في ٣ تموز ١٨٩٤ تحت اشراف رئيس البنائين في كتدرائية برلين شفارتزكوبف Schwartzkopf بحيث يتسع لمئة سرير(٩٢) . وتبرع قيصر ألمانيا بجزء من نفقات البناء . وكان المقدسيون يسمونه يومئذ « مستشفى المجيدي » لأن ادارة المستشفى كانت تتقاضى ريالا مجيدياً عثمانياً واحداً عن كل مريض مهما طالت اقامته فيه . ومن الأطباء البارزين الذين عملوا فيه ابان العهد العثماني الدكتور هوفمان والدكتور كراوزندورف Krausendorf والدكتور باركهاوزن Th. Barkhausen (٩٣) . هذا وقد بلغ عدد المرضى الذين عولجوا في المستشفى المذكور ٦٠٠ مريض داخلي و ٧٠٠٠ مريض في العيادات الخارجية عام ١٩١٠(٩٤) .

مؤسسة القدس الانجيلية Evangelische Jerusalem Stiftung :

أنشئت هذه المؤسسة في برلين في ٢٢ حزيران عام ١٨٨٩ بأمر من القيصر فيلهلم الثاني من أجل دعم الطائفة الانجيلية الألمانية في فلسطين . وحولت اليها الأموال التي كان يتبرع بها ملك بروسيا لمطرانية القدس البروسية ــ الانكليزية في القدس . كما حولت اليها أموال صندوق التبرعات الذي تأسس عام ١٨٤٢ لدعم المطرانية المذكورة ، والتبرعات التي جمعتها الكنائس الانجيلية الألمانية بين عامي ١٨٦٩ و ١٨٨٨ . ووضعت المؤسسة تحت اشراف مجلس « وزارة الشؤون الدينية الألمانية «Ministerium der geistlichen Angelegenheiten Stehends Karatorium وتألف مجلس مؤسسة القدس الانجيلية من رئيس مجلس الكنائس الانجيلية الأعلى الدكتور باركهاوزن Barkhausen والأمير فون تسايتن شفيرين Graf Von Zeiten - Schwerin والدكتور أولهورن D. Ulhorn والمستشار التجاري Colsmann ومستشار الطوائف الأعلى كيلر Koehler . وكان هؤلاء الأعضاء الخمسة يعينون بارادة ملكية من القيصر الألماني . وكذلك الحال بالنسبة الى كافة رؤساء الطائفة الروحيين الألمان في فلسطين .

وكانت المؤسسة تمتلك ما يلي :

١ ــ الأبرشية الألمانية ، ومساحتها ١٤١٥٧ متراً مربعاً ، تضم منزلا للرهبان وقاعات للاجتماعات الدينية والمناسبات الاجتماعية للطائفة

الألمانية . كما احتوت على مدرسة داخلية وروضة للأطفال ومنزل لمدير المدرسة وملعب للرياضة .

٢ ـ كنيسة المخلص Die Erloeser Kirche التي حصل على موقعها (ساحة المارستان) في مدينة القدس ولي عهد بروسيا الأمير فريدريش هدية من السلطان العثماني بمناسبة حجه الى القدس بعد مشاركته في الاحتفال بتدشين قناة السويس عام ١٨٦٩ . وبدىء ببنائها بأمر من القيصر الألماني فليهلم الثاني على أنقاض كنيسة القديسة ماريا ، وعلى طراز قديم وفقاً لمخطط البناء الذي وضعه كبير المهندسين ادلر Adler . ووضع حجر الأساس للكنيسة في ٣١ تشرين الأول عام ١٨٩٣ بحضور الدكتور باركهاوزن مندوباً عن القيصر الألماني . واحتفل بافتتاحها عند زيارة فيلهلم الثاني وزوجته للقدس في ٣١ تشرين الأول عام ١٨٩٨(٩٥) .

وأضيف الى مبنى الكنيسة المؤسسة الألمانية الانجيلية القديمة التي أنشئت عام ١٩٠١/١٩٠٢ . وكانت تحتوي على مكتبة ومتحف وقاعات للدراسة وقاعة كبيرة للاجتماعات العامة ومنزلا لراعي الكنيسة(٩٦) .

الطائفة الانجيلية الألمانية في فلسطين

تجمع الانجيليون الألمان في فلسطين في مدن ثلاث هي القدس وحيفا ويافا ، تركز فيها جل نشاطهم التبشيري والثقافي والخيري .

١ ـ الجماعة الانجيلية الألمانية في القدس :

نمت الجماعة الانجيلية الألمانية في القدس بنمو المؤسسات التبشيرية والثقافية والخيرية الألمانية فيها . وكان معظم أفراد هذه الجماعة في السنوات الأولى من انشاء مطرانية القدس البروسية ـ الانكليزية المشتركة من رهبنة الدياكونيس والأخوة الشبتلرية الذين كانوا يعملون في الارسالية التبشيرية الانكليزية . ومع تأسيس دار الأيتام السورية ومركز شبتلر ومأوى المجذومين ازداد عدد الألمان الانجيليين القادمين الى القدس . ونمت الجماعة الألمانية جنباً الى جنب مع الجماعة الانكليزية تحت رعاية مطرانية واحدة ومنذ عام ١٨٥٢ أرسل ملك بروسيا القس فالنتينر Valentiner (٩٧) الى القدس للمشاركة في العمل التبشيري المشترك الذي كانت تشرف عليه مطرانية القدس . وسيم

فالنتينر في بيت المقدس وفقاً للطقوس الدينية الانجليكانية ، كما اقتضت الاتفاقية البروسية ـ البريطانية لعام ١٨٤١ . وأصبح بامكانه أن يقيم الصلوات في « كنيسة المسيح » وسمح للرهبان الألمان اقامة صلاة الأحد في الكنيسة نفسها مرة كل أسبوعين ، واقامة الاحتفالات الدينية في أربع مناسبات في السنة هي « خميس العهد أو خميس الغسل ، وعيد العنصرة ، واليوم الثاني لعيد ميلاد المسيح . ويوم الأحد الثامن بعد عيد الفصح » .

بقي فالنتينر في منصبه هذا حتى عام ١٨٦٦ ، فخلفه القس هوفمان Hoffmann الذي نمت في عهده الجماعة الألمانية حتى تجاوزت في عددها الجماعة الانكليزية . وأصبح من المتعذر عليها أن تقبل بالصلاة في « كنيسة المسيح » بعد ظهر يوم الأحد فقط . فخطا هوفمان خطوة جريئة على طريق الانفصال عن الجماعة الانجليكانية وأخذ يقيم صلاة الأحد الصباحية في نزل القديس يوحنا ، وذلك بناء على توصية من البرفسور شتراوس Strauss عضو جمعية بيت المقدس في برلين . وأخذ الألمان يمارسون صلواتهم بصورة منتظمة في نزل القديس يوحنا دون الأخذ بعين الاعتبار للتقاليد والطقوس الدينية الانجليكانية . وأقدم الرهبان الألمان على ازالة صليب المذبح وشمعة المذبح عند صلواتهم في « كنيسة المسيح » لأنهما من شعار المهتدين حديثاً الى المسيحية من اليهود . وتخلى هؤلاء الرهبان عن الصلاة في النزل المذكور اعتباراً من عام ١٨٧٠ بسبب ضيق المكان ، وأصبحوا يمارسونها في قاعة للعبادة مخصصة للطائفة الانجيلية العربية التابعة للبعثة التبشيرية الكنائسية(٩٨) . وكانت كنيسة المخلص المشار اليها آنفاً أول كنيسة انجيلية للطائفة الألمانية في بيت المقدس .

خلف القس فيزر Weser القس هوفمان وبنى مدرسة خاصة للانجيليين الألمان في القدس عام ١٨٧٣(٩٩) . وفي عام ١٨٧٦ خلفه القس الدكتور راينكه Reinecke الذي كان أكثر جرأة من سابقيه في تحدي الكنيسة الانجليكانية . اذ رأى أن ليس من الضروري ولا من الواجب الالتزام بنص المادة ٣٩ من الاتفاقية التي أبرمت بين ملك بروسيا وملكة بريطانية عام ١٨٤١ ، المتضمن القيام بالصلوات وفقاً للتعاليم والطقوس الانجليكانية . ولم ير راينكه ضرورة في صلاة بعد ظهر الأحد في « كنيسة المسيح » الانكليزية . وبذلك تم الانفصال بين الجماعتين الألمانية والانكليزية في الصلوات والأعمال التبشيرية . ولم يبق سوى مطران القدس صلة للوصل بينهما . وبموت المطران غوبات عام ١٨٧٩ وتعيين

المطران باركلي خلفاً له ، اتخذ هذا موقفاً يتصف بالجفاء من الجماعة الألمانية ، فمزز بذلك الانفصال بين الجماعتين . ولما حاول المطران الجديد سيامة الرهبان الألمان الجدد وفقاً للتقاليد الانجليكانية رفض هؤلاء وبذلك قطعت الصلة بين الرهبان الألمان ومطرانية القدس(١٠٠) . وباتخاذ هذه القطيعة صفتها الرسمية عام ١٨٨٦ أصبح للانجيليين الألمان كيان مستقل في القدس وفلسطين كلها .

أما أهم المؤسسات الخيرية التي كانت تتبع هذه الجماعة الألمانية في بيت المقدس والتي لم نأت على ذكرها فهي :

نزل رهبنة القديس يوحنا Das Hospiz des Johanniter Ordens:

بني هذا النزل من أجل استقبال الحجاج الانجيليين الألمان . وكان عدد الحجاج الألمان الى فلسطين حتى منتصف القرن التاسع عشر محدوداً بسبب التكاليف الباهظة ومشقة السفر . غير أن البدء بالتبشير الانجيلي الألماني اقتضى استقبال الوافدين من الألمان وتقديم التسهيلات لهم . وكثيراً ما كان الحجاج الألمان يطلبون العون من القنصل البروسي في القدس . كما كان بعضهم ينزل في نزل اللاتين فيها . ولذلك رأى المطران غوبات أن لا بد من بناء نزل للحجاج والسياح الألمان في بيت المقدس . ووجه رسالة الى ملك برسيا فريدريش فيلهلم الرابع عام ١٨٥٠ بيّن له فيها الحاجة الماسة لبناء النزل المذكور . فاستجاب ملك بروسيا لهذا الطلب وقدم للمطران مبلغاً من المال لبناء النزل المقترح عام ١٨٥١ . واشترى المطران بالاضافة الى ذلك منزلا آخر لهذه الغاية عام ١٨٥٥ بالقرب من كنيسة القيامة . وتولت رهبنة القديس يوحنا الاشراف على النزلين معاً منذ عام ١٨٥٨ . وتوسع مبنى نزل القديس يوحنا عام ١٨٦٦ مع ازدياد عدد الحجاج والسياح الألمان . فأصبح يتسع لخمسة عشر نزيلا . ومع نهاية القرن التاسع عشر بلغ معدل عدد الزوار الذين ترددوا على النزل سنوياً نحو مئة وعشرين زائراً . وكانت ادارة النزل توزع الكتاب المقدس مجاناً على النزلاء وتمنحهم شهادة بالحج صادرة عن جمعية بيت المقدس(١٠١) .

مأوى المجذومين Das Aussaetzigenasyl :

كان الجذام من الأمراض المستعصية في المشرق العربي والتي لا سبيل الى علاجها ، فاذا ظهرت أعراض المرض لدى أي انسان يُكره على مغادرة

القرية أو الحي الذي يقطنه • ويجمع المجذومون في أمكنة قريبة من المدن حيث يلجأون الى التسول لتأمين غذائهم اليومي • وكان حول القدس مجموعة من هؤلاء المجذومين الذين اتخذوا الكهوف والمقابر القديمة مأوى لهم • غير أن السلطات العثمانية جمعتهم وأسكنتهم في بيوت من الحجر بالقرب من سور المدينة (قرب باب صهيون) • وكان لهؤلاء المرضى مجتمعهم الخاص بهم ، يتولى قيادته أحدهم يقوم بتوزيع ما يجمعونه من التسول بينهم بصورة عادلة ومنتظمة ، ويحكم في الخلافات والمنازعات التي قد تنشب بينهم • وكان على كل مريض يود الدخول في الجمعية أن يدفع رسماً مقداره عشرون ريالا مجيدياً (أي ما يعادل ثمانين فرنكاً فرنسياً آنذاك) تدفع الى الصندوق المشترك للجمعية • ويقبل في هذه الجمعية جميع المجذومين مهما اختلف جنسهم أو دينهم أو طائفتهم • وفي موسم الحصاد ينتقل المجذومون الى الريف يواصلون تسولهم من قرية الى قرية • ويعودون بكميات وافرة من الحنطة تكفي لمؤونتهم من الطحين طوال العام كله ، ويبيعون ما يزيد عن ذلك • ولما يشتد المرض بالمجذوم يعجز عن التنقل ويضطر الى البقاء في المنزل المخصص له حتى يقضي عليه المرض •

بدأ اهتمام الارسالية التبشيرية الانجيلية الألمانية بالمجذومين في القدس عام ١٨٦٧ • وكان قد حج الى الديار المقدسة قبل ذلك بعامين البارون الألماني فون كيفنبرنك ـ اشرادن Freiherr Von Keffenbrink - Ascheraden وزوجته فتأثرا بمنظر المجذومين وهم يتسولون على أبواب القدس • وقامت زوجته بالاتصال بالعديد من المحسنين في ألمانيا ، وتبرعت هي بمبلغ من المال من أجل بناء مأوى لهؤلاء المرضى • واتصلت بجمعية بيت المقدس في برلين وبغيرها من الجمعيات الخيرية لجمع التبرعات لهذا المشروع • وتشكلت في القدس لجنة برئاسة المطران غوبات لبناء المأوى المذكور • وتمكنت هذه اللجنة من شراء قطعة من الأرض على بعد مسيرة بضع دقائق من باب يافا خارج السور لبناء المأوى عليها • وتبرعت آخوة برتلزدورف قرب هرنهوت Bruedergemeine in Berthelsdorf bei Hernhut بتزويد المأوى بالرهبان اللازمين لخدمته • وأوفد المبشر تابه Tappe لهذا الغرض ، فافتتح المأوى في ٣٠ آيار عام ١٨٦٧ •

أقبل المرضى على المأوى الألماني بشيء من التردد أول الأمر • ومع

ذلك فقد بلغ عدد المجذومين فيه في نهاية العام الأول اثني عشر مجذوماً . وأخذ عدد نزلاء المأوى يزداد حتى بلغ الثلاثين . وفي عام ١٨٨٤ وجد أن المأوى لا يتسع لاعداد المرضى الراغبين في النزول فيه ، فقام المبشر تابه بشراء قطعة من الأرض خارج أسوار القدس بالقرب من مستعمرة الهيكليين الألمان . وعلى هذه القطعة من الأرض بدىء ببناء المأوى الذي اتخذ اسم « معونة المسيح Jesus - Hilfe » عام ١٨٨٥ . واحتفل بافتتاحه في ربيع عام ١٨٨٧ . وأصبح المأوى الجديد يتسع لنحو ستين مريضاً . وتولى ادارته الأب شوبرت Schubert تساعده زوجته وثلاث من الراهبات الدياكونيسات . ومع افتتاح المأوى الجديد تخلت لجنة القدس التي كان يرئسها المطران غوبات عن ادارة المأوى وتولتها أخوة برتلزدورف التي كانت تزوده بالكوادر اللازمة(١٠٢) .

ولما كانت معالجة الجذام غير معروفة في عالم الطب حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فقد اقتصر المأوى على العناية بالمجذومين دون علاجهم . وكان الأطباء الألمان يترددون عليهم لتخفيف آلامهم والعناية بصحتهم العامة . ومن الجدير بالذكر أن الحكومة العثمانية بنت في أواسط السبعينات من القرن التاسع عشر مأوى للمجذومين في سلوان بالقرب من القدس(١٠٣) .

مستشفى الأطفال Das Kinderhospital :

قام دوق ميكلنبورغ شفيرين الكبير Der Grossherrzog Von Mecklenburg - Schwerin وزوجته بزيارة القدس في عام ١٨٧٢ . وأبديا خلال اقامتهما القصيرة فيها استعدادهما لتقديم أية مساعدة ممكنة للجمعيات والمؤسسات الانجيلية في بيت المقدس . وكلفا الطبيب ساندرسكي Sanderczky ببناء مستشفى للأطفال . وبعد اتصالات دامت ثلاث سنوات تمكن الدوق الألماني وزوجته من تامين خمسة أسرة للأطفال في المستشفى الخاص للدكتور ساندرسكي الذي أطلق عليه اسم « مؤسسة ماريا الخيرية Marienstift » نسبة الى زوجة الدوق الألماني . ومع نهاية العام الأول من عمل المستشفى بلغ عدد الأطفال الذين عولجوا فيه اثنين وتسعين طفلا. واستمرت دوقية ميكلنبورغ ـ شفيرين تقدم للمستشفى معونة مالية سنوية حتى نهاية القرن التاسع عشر . غير أن هذه المعونة لم تكف لسد نفقات المستشفى فاضطر مديره الى جمع الأموال اللازمة من الأصدقاء

والمحسنين . ومع نهاية القرن التاسع عشر كان المستشفى يعالج حوالي مئة وخمسين امرأة حاملا وخمسمائة وخمسين طفلا في العام(١٠٤) .

٢ ـ الجماعة الانجيلية الألمانية في حيفا :

تشكلت هذه الجماعة منذ عام ١٨٧٩ من عدد من المستوطنين الألمان في حيفا من أعضاء « جمعية الهيكل » الدينية التي كانت تؤلف طائفة دينية ألمانية مستقلة عن الكنيسة الانجيلية الألمانية(١٠٥) . ففي ذلك العام حصل انقسام في صفوف الجمعية المذكورة أدى الى عودة بعض أفرادها الى حوزة الكنيسة الانجيلية . وأخذ المبشر رانيكه Reinecke يتردد على حيفا ويلتقي بأولئك المنشقين ويلقي عليهم العظات الدينية . وتابع خليفته القس شليخت Schlicht هذه المهمة . وفي عام ١٨٩١ قررت جمعية بيت المقدس ارسال معلم ألماني الى حيفا لتعليم أبناء الجماعة الانجيلية الألمانية فيها . وبعد ذلك بعام قدم أحد أفراد الجماعة قطعة من الأرض مجاناً لبناء مدرسة وقاعة للاجتماعات . ثم أوفدت جمعية بيت المقدس القس ذيكرت Deckert الى حيفا للاقامة هناك . وبذلك أصبح للجماعة في هذه المدينة مدرستها وكنيستها . وبلغ عدد الأسر التي تألفت منها هذه الجماعة عشرين أسرة . وتمكنت الجماعة ، بدعم من جمعية بيت المقدس ، من بناء منزل للقس الجديد باورمايستر Bauermeister عام ١٨٩٨(١٠٦) .

٣ ـ الجماعة الانجيلية الألمانية في يافا :

كان نشوء الجماعة الانجيلية الألمانية في يافا مماثلا لنشوء الجماعة نفسها في حيفا . فقد أدت الانقسامات الدينية الداخلية في صفوف جمعية الهيكل الى عودة بعض أفرادها الى حظيرة الكنيسة الانجيلية . وأخذ القسس الانجيليون الألمان في القدس يترددون على يافا لتقديم الخدمات الدينية للمنشقين وكسب المزيد منهم الى حظيرة الكنيسة الانجيلية . ومنذ عام ١٨٨٩ طالب بعض أرباب الأسر الألمانية الذين عادوا الى حوزة الكنيسة الانجيلية بانشاء مدرسة لهم في يافا ، فتم لهم ذلك بمساعدة من جمعية بيت المقدس . وأتاح بناء سكة الحديد بين يافا والقدس منذ عام ١٨٩٢ للآباء الانجيليين التردد بصورة منتظمة على الجماعة الصغيرة في يافا . وأخيراً قررت جمعية بيت المقدس في عام ١٨٩٧ ارسال القس شلايخ Schlaich الى يافا للاقامة فيها بصورة دائمة ورعاية الجماعة الانجيلية الألمانية(١٠٧) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الجماعات الألمانية الثلاث (في القدس وحيفا ويافا) لم تكن قادرة على الوقوف على رجليها بسبب قلة عددها وضعف امكاناتها • ولذلك اتجهت الجهود لاقامة كنيسة انجيلية عربية في فلسطين تضم اليها الجماعات الألمانية السابقة الذكر(١٠٨) •

وفي عام ١٩١٠ بلغ عدد البروتستانت الألمان في فلسطين نحو ألفي نسمة ، منهم ١٣٣٠ من جمعية الهيكل و ٤٦٠ من أتباع الكنيسة الوطنية الألمانية • وفي العام نفسه أنشئت على جبل الزيتون في القدس أبنية مؤسسة القيصرة فكتوريا Kaiserin Auguste Victoria Stiftung فكلفت نحو مئة ألف جنيه استرليني وأصبحت مركزاً لكافة المؤسسات الخيرية الألمانية في فلسطين(١٠٩) •

النشاط التبشيري الكاثوليكي الألماني في فلسطين

كان للكنيسة اللاتينية وضع خاص في الدولة العثمانية يختلف عن وضع الكنائس الأخرى كالأرثوذكسية والأرمنية والشرقية المتحدة مع روما • ذلك أن الأكليروس الأرثوذكسي والأرمني من رعايا السلطان ، وهو الذي يصادق على تعيين بطاركتهم وأساقفتهم • بينما لم تخضع الكنيسة اللاتينية للقانون العثماني ، وانما كانت خاضعة للقانون الدولي لأن رهبانها مواطنون أجانب • ولذلك بقي ممثل البابا في اسطنبول غير معترف به رسمياً من قبل الدولة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر • وكان يحتل وموظفوه قسماً من السفارة الفرنسية في العاصمة العثمانية ، ويمارس نشاطه من خلال السفارة المذكورة بموجب الحق الذي حصلت عليه فرنسا في حماية الكاثوليك في المعاهدة الفرنسية ـ العثمانية لعام ١٧٤٠ • وبقي موظفو الكنيسة الكاثوليكية في جميع أقطار آسيا العثمانية لا صلة رسمية لهم بالسلطات العثمانية ، باعتبارهم أجانب يتمتعون بحماية فرنسا(١١٠) •

كان الروم الكاثوليك في فلسطين أقل عدداً من الروم الأرثوذكس غير أنهم أقوى نفوذاً بسبب حماية فرنسا لهم • أما الروم المتحدون مع روما الذين نشأوا كطائفةدينية في منتصف القرن الثامن عشر نتيجة للنشاط التبشيري الذي قامت به الارساليات والرهبنات الكاثوليكية في بلاد الشام ، فقد كان لهم بطريركهم ، ولغة الصلاة عندهم العربية • واقتصر وجود هذه الطائفة على القدس وحدها •

وكان الرهبان الفرنسيسكان الممثلين للكنيسة الغربية في فلسطين . ويرجع وجودهم فيها الى عام ١٣٣٣ . وبلغ عددهم مع نهاية القرن التاسع عشر نحو خمسمائة راهب . وانحصرت مهمتهم حتى منتصف ذلك القرن على حماية الأماكن المقدسة التي كانت مسرحاً للنزاع بين مختلف الطوائف المسيحية(١١١) .

هذا وقد عين أول بطريرك لاتيني في القدس في عام ١٨٤٠ . وتلاه وصول أول مطران انجليكاني بعد عامين . فكان ذلك بداية للتنافس بين الكنيستين الكاثوليكية والانجيلية في فلسطين ، والذي كان مظهراً من مظاهر الصراع الدولي على هذه البقعة المهمة من ممتلكات الدولة العثمانية . ومنذ وصول أول بطريرك لاتيني الى بيت المقدس اهتمت بافاريا ، الدولة الكاثوليكية الألمانية ، بفلسطين والأماكن المقدسة . فبدأت في عام ١٨٤٣ حملة لجمع التبرعات لصالح كنيسة القيامة . وتعاونت مع الامبراطورية النمسوية في هذا المجال . فأوفدتا بعثة خاصة الى فلسطين في عام ١٨٤٥ لدراسة امكانية التبشير الكاثوليكي في هذه البلاد . وعادت البعثة وقدمت مشروعاً لشراء الأراضي والأبنية اللازمة لاقامة المؤسسات التبشيرية الكاثوليكية . غير أن ثورات عام ١٨٤٨ في ألمانيا والنمسا حالت دون المضي في تنفيذ المشروع . وفي العام التالي أنشأت النمسا قنصلية لها في القدس تولت تمثيل الدول والامارات الكاثوليكية في ألمانيا واستمر هذا الوضع حتى قيام الوحدة الألمانية عام ١٨٧١(١١٢) .

واذا كانت بروسيا ، في بداية الأمر ، وألمانيا الموحدة ، فيما بعد ، قد شجعتا التبشير الانجيلي في فلسطين طمعاً في مد النفوذ الألماني الى هذه البلاد ، فلم تتوان ألمانيا الموحدة عن دعم المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في هذا الميدان أيضاً . وفي أعقاب الوحدة الألمانية قرر الحزب الوطني الحر Ereie Nationale Partei الحاكم في البلاد ، والذي كان يتمتع بشعبية كبيرة ، أن يعزز الوحدة الألمانية بازالة كل معارضة وكل خلاف بين الكاثوليك والبروتستانت في البلاد . فواجه معارضة شديدة من الكاثوليك اضطرت المستشار الألماني الأمير فون بسمارك Von Bismarck الى استصدار عدة أوامر ملكية وقوانين لمناهضة الكاثوليك . وعرفت هذه الحركة في ألمانيا « بالكفاح الثقافي Kultur Kampf . ففي ٨ تموز ١٨٧٠ صدر أمر ملكي في برلين بالغاء القسم الكاثوليكي في وزارة الأديان . وتلاه

أمر ملكي صدر في ١١ آذار عام ١٨٧٢ تضمن الغاء الاشراف الديني على التعليم ، وفرض التفتيش الرسمي على المؤسسات التعليمية الدينية ، وفي ١٥ آذار ١٨٧٣ صدر أمر ملكي بالغاء مناصب رجال الدين الكاثوليك في الجيش البروسي · كما صدر قانون في ٥ نيسان من العام نفسه يؤكد تطبيق ما جاء في المادتين ١٥ و ١٨ من الدستور البروسي الصادر عام ١٨٥٠ · وتنص هاتان المادتان على الحد من الحريات الممنوحة للطوائف الدينية ·

وكان قد صدر قانون في ٤ تموز ١٨٧٢ نص على ملاحقة جمعية « رفاق المسيح » الكاثوليكية وكافة الفروع التابعة لها في ألمانيا وفي ٦ شباط ١٨٧٥ صدر قانون يبيح الزواج المدني · وبلغت هذه التدابير لملاحقة الكاثوليك أوجها عام ١٨٨٠ حينما أصدر برلمان بروسيا Land tag قانوناً في ٩ أيار منح الحكومة الملكية البروسية صلاحية استصدار الأنظمة واتخاذ الاجراءات اللازمة بحق الرهبان الكاثوليك لما فيه صالح الدولة · ونصت المادة الرابعة من هذا القانون على أن تتولى الحكومة المذكورة اعادة تعيين أو تثبيت الأساقفة الكاثوليك الذين لم تتخذ المحكمة الدينية العليا قراراً ضدهم ·

أثارت هذه الاجراءات والأنظمة حفيظة البابا والكنيسة الكاثوليكية ، فشنت على حكومة بروسيا حملة شعواء · ومنذ عام ١٨٨٠ سعى القيصر الألماني الى التفاهم مع البابا غير أن مسعاه باء بالفشل · وحاول القيصر انتهاز أية فرصة مناسبة لتحسين علاقات ألمانيا بالكرسي البابوي ، وحصل أن نشب خلاف ، في ايلول ١٨٨٧ ، بين ألمانيا والنمسا حول جزر كارولين · فاختارت الدولتان البابا حكماً بينهما ، فوضع حلا أرضى الطرفين · كانت هذه هي الفرصة السانحة للتقارب بين الفاتيكان وبرلين · وكانت قد أصدرت الحكومة البروسية قانوناً في ٢١ أيار ١٨٨٦ أنهى « الكفاح الثقافي » وملاحقة الرهبان الكاثوليك والمؤسسات الكاثوليكية في بروسيا(١١٣) · وتعزيزاً لهذا الاتجاه قام القيصر فيلهلم الثاني بزيارة روما عام ١٨٨٩ ·

وقد أثارت هذه الزيارة مخاوف فرنسا من تقارب ألماني ــ بابوي قد ينتهي باعتراف البابا بحق ألمانيا في حماية كاثوليك الشرق ، وتأكدت هذه المخاوف منذ أن أعلنت ألمانيا في ٥ أيار ١٨٧٥ عدم اعترافها بحق أية دولة في حماية المؤسسات الكاثوليكية في الشرق · ولم تهدأ مخاوف

فرنسا الا بعد أن أدلى البابا ليون الثالث عشر Leon XIII بتصريح في ٢٠ آب ١٨٩٣ أكد فيه الحماية التقليدية الفرنسية لكاثوليك الشرق . غير أن الصحف الألمانية ضربت بهذه التصريحات عرض الحائط ، وأخذت تتحدث عن أهداف زيارة فيلهلم الثاني للقدس التي ستتم في عام ١٨٩٨ ، ومنها تأمين الحماية الألمانية للمسيحيين هناك . وقد أسهبت الصحف الألمانية، وبخاصة صحيفة Germania الكاثوليكية البرلينية وصحف National Zeitung, Kolnische Volkzeitung, Norddeutsche Allgemeine Zeitung. في الحديث عن هذا الموضوع(١١٤) .

ولما بدأت الزيارة ، ونزل القيصر الألماني في حيفا في تشرين الأول ١٨٩٨ ألقى الراهب الألماني بيفر Biewer مدير المؤسسة الكاثوليكية في الطبغة خطاباً أمامه أعرب فيه عن شكر الكاثوليك الألمان وامتنانهم لحماية القيصر لهم ، وقال : « اننا نأمل أن تعطى لنا حرية العمل في المستقبل في فلسطين تحت حماية أجنحة النسر الألماني القوية ، وأن نتمكن من نشر الثقافة الألمانية والعمل الألماني ... » ورد عليه القيصر بقوله : « يسرني أن أنتهز هذه المناسبة لأعلن بصورة حاسمة أن بامكان رعاياي الكاثوليك أن يتأكدوا من حمايتي لهم أينما كانوا وفي أي وقت يحتاجون فيه الى هذه الحماية »(١١٥) .

وهكذا نرى أنه منذ أن انتهى « الكفاح الثقافي » الذي شنته الحكومة القيصرية الألمانية على الكاثوليك ، لم تتوان ألمانيا عن دعم المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في فلسطين واستخدامها كأداة لبسط النفوذ الألماني في البلاد ومنافسة فرنسا في حماية الكاثوليك .

ويمكننا أن نقيم النفوذ الألماني في هذا الميدان من خلال المؤسسات والمنشآت الكاثوليكية الألمانية في فلسطين وهي :

١ ـ دير القديس كارلوس بوروماوس St. Borromeos .

في القدس . تأسس على يد جمعية أخوات باويرا التي بدأت نشاطها في القدس عام ١٨٨٧ (وعرفن فيما بعد باسم « راهبات باويرا » أو « الأخوات الألمانيات ») ويقع الى الغرب من مقبرة ماملا . وقد خصص لنزول الحجاج من الألمان الكاثوليك(١١٦) .

٢ ـ كنيسة نياحة العذراء Die Dormition Kirche :

تقع على جبل صهيون الى الغرب من مقام النبي داود الى الجنوب من سور القدس ، على بعد بضعة أمتار من باب النبي داود . وقد أهديت

الأرض التي أقيمت عليها هذه الكنيسة من السلطان عبدالحميد الثاني الى القيصر الألماني فيلهلم الثاني حين زيارته للقدس في ٣١ تشرين الأول ١٨٩٨ · ولما قدم متصرف القدس سند التملك الى القيصر الألماني خاطبه قائلا : « بناء على الصداقة بين جلالتكم وعظمة متبوعنا الأعظم فاننا نقدم لجلالتكم هذه الأرض ونحملكم على الراحات » : فأجابه القيصر : « ان المرحوم السلطان عبدالعزيز خان أهدى المرحوم والدي الأرض التي بنيت عليها كنيسة المخلص التي تم تدشينها اليوم · وعظمة صديقي السلطان عبدالحميد خان أهداني هذه الأرض · وكما أننا بنينا على الأولى كنيسة للألمان الانجيليين ، فسنبني على هذه كنيسة للألمان الكاثوليك · فشكراً لعظمته ولآل عثمان العظام » · وقام القيصر بمنح قطعة الأرض « للجمعية الألمانية في الأرض المقدسة Der Deutsche Verein Vom Heiligen Lande

هذا وقد شرع في بناء الكنيسة عام ١٩٠٠ ، وتم بناؤها عام ١٩١٠ ودشنت بحضور الأمير ايتل فريتس Eitel Fritz الابن الثاني للقيصر(١١٧) ·

٣ ـ نزل القديس بولس St. Paulus Hospiz :

بدىء ببناء هذا النزل عام ١٩٠٢ على قطعة من الأرض تبعد مئة متر الى الشمال من باب العمود في القدس · وتم البناء عام ١٩٠٨ وخصص جانب منه لاستقبال الحجاج والسياح الألمان الكاثوليك · واستعمل الجانب الآخر منه مدرسة لتدريب المعلمين · وكان يحتوي على خمسة صفوف ثانوية · هذا وقد احتلته القوات البريطانية عام ١٩١٧ واتخذته مقراً لحاكم القدس(١١٨) ·

٤ ـ نزل أوغستا فكتور Augusta Victoria Hospiz :

شرع الألمان الكاثوليك ببناء هذا النزل على جبل الزيتون عام ١٩٠٥ باعانات جمعت باشراف الوزير الألماني ميرباخ Mirbach الذي رافق القيصر في زيارته للقدس عام ١٨٩٨ · وقد اتخذ نزلا للحجاج الألمان بين عامي ١٩١٠ و ١٩١٤ · ثم اتخذته القوات العثمانية ـ الألمانية مقراً لقيادتها بين عامي ١٩١٤ ـ ١٩١٧ · ولما سقطت القدس في أيدي القوات الانكليزية في ٩ كانون الأول ١٩١٧ تحول النزل الى مقر للحكومة العسكرية · كما اتخذه المندوب السامي البريطاني منزلا له بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢٧(١١٩) ·

٥ ـ المستوصف الصحي في عمواس ـ قبية :

اشتريت أرض المستوصف عام ١٨٧٦ لبناء مستوصف للراهبات والرهبان العاملين في مدرسة شميدت للبنات ونزل القديس بولس · وكانت تشرف عليه راهبات القديس بورميوس ·

٦ ـ مدرسة شميدت للبنات Schmidt Schule :

أنشئت في القدس بتمويل من أسقفية كولون بألمانيا عام ١٨٨٦ · أما الأرض التي بنيت عليها فقد تم شراؤها عام ١٨٧٧ · وسميت المدرسة باسم أول مدير لها الأب اللعازري فيلهلم شميدت Wilhelm Schmidt .

٧ ـ نزل الطبغة :

بني هذا النزل على أرض زراعية اشترتها أسقفية كولون الكاثوليكية بين عامي ١٨٨٦ و ١٨٩٦ في منطقة الطبغة الواقعة الى الغرب من بحيرة طبريا ·

٨ ـ مستشفى راهبات القديس بوروميوس في حيفا

St. Borromeus Schwestern Krankenhaus

اشتريت الأرض التي أقيم عليها هذا المستشفى لحساب أسقفية كولون الكاثوليكية عام ١٨٨٦ ، وتم بناء المستشفى عام ١٨٨٨ · وأنشئت الى جانبه دار للأيتام ، واستراحة الياس للراهبات عام ١٩٠٢ ، التي تحولت فيما بعد الى نزل ومدرسة(١٢٠) ·

٩ ـ ملجأ العجزة في القدس :

أنشىء عام ١٨٩٣ واستمر يستقبل العجزة حتى عام ١٩٣٨ حينما تحول الى مدرسة داخلية للأطفال المشردين ·

١٠ ـ المركز التبشيري الثقافي في عمواس :

أنشأه اللعازريون وراهبات القديس شارل · وتطور المركز على يد الأب لاديزلاو شنايدر Ladislao Schneider الفرنسيسكاني الذي كوّن جماعة كاثوليكية ألمانية في هذه القرية · غير أن المركز قارب على الافلاس عام ١٨٧٨ ، وحاول الأب شنايدر تقديمه هدية للرهبان الفرنسيسكان فلم ينجح في ذلك(١٢١)

١١ ـ جمعية فلسطين الألمانية Deutsche Palaestina Verein :

تأسست عام ١٨٨٥ في كولون (ألمانيا) تحت رعاية أسقفها بهدف

اكتشاف فلسطين ودراسة أحوالها • وكانت تصدر مجلة علمية فصلية تتناول دراسة تاريخ فلسطين وآثارها وجغرافيتها وكل ما يتعلق بها • وقد أدمجت فيما بعد مع جمعية القبر المقدس St. Sepulcre - Verein التي تولت جمع التبرعات في ألمانيا وتوزيعها على المؤسسات الكاثوليكية في فلسطين • وأشرفت هذه الجمعية على التعليم والمؤسسات الطبية الألمانية في فلسطين • ومن انجازاتها بناء مأوى للحجاج في القدس في عام ١٨٨٦ وكانت تديره أربع راهبات ، وبناء مأوى آخر في المدينة نفسها تحت اشراف اللعازاريين الألمان تولى الأب شميت Schmitt ادارته(١٢٢) •

ويلاحظ أن النشاط التبشيري الكاثوليكي الألماني بدأ يشتد في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، أي في الفترة التي أخذت فيها ألمانيا تسعى بكل ما لديها من وسائل لتعزيز نفوذها في الدولة العثمانية • وهي الفترة التي دخلت فيها في تنافس شديد مع فرنسا في الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية ، وسعت ألمانيا في هذه الفترة الى أن تنتزع من فرنسا حق حماية الكاثوليك في الشرق • ولما حاول البابا نقل بطريرك اللاتين في القدس المنسينيور بيافي Mgr. Piavi في بداية عام ١٨٩٨ احتجت الطائفة الكاثوليكية الألمانية في فلسطين على ذلك لأنها كانت ترى فيه حامياً لمصالحها في البلاد(١٢٣) • وتدخل القيصر الألماني لدى البابا ليون الثالث عشر ورجاه أن يبقى على البطريرك بيافي حتى تتم زيارة القيصر للشرق في تشرين الأول ١٨٩٨(١٢٤) • كما انتهز القيصر هذه المناسبة ليؤكد حمايته للبعثات التبشيرية الكاثوليكية الألمانية في الشرق ، بما في ذلك منحهم حق رفع العلم الألماني على مؤسساتهم(١٢٥) •

التبشير والأهداف السياسية الألمانية :

مثلما شهدت أوروبا في أعقاب الثورة الفرنسية ميلاد العديد من الحركات السياسية الثورية وعاشت نشاطاً ثورياً عنيفاً ، شهد أيضا تجديداً دينياً عميقاً • ذلك أن زوال المؤسسات القديمة، بما فيها المؤسسات الدينية والكنسية ، أدى الى بعث ديني • وبرزت حركة البعث الديني هذه في أجلى مظاهرها في بريطانيا وألمانيا • فقد تأسست جمعيتان دينيتان في لندن هما جمعية التبشير الكنائسية C.M.S. عام ١٧٩٩ ، وجمعية يهود لندن L. J. S. عام ١٨٠٩ ، كان لهما دور مهم في تنمية الوعي الديني بين الانكليز وتسخير التبشير الديني لأغراض السياسة الخارجية البريطانية •

كما تشكلت في ألمانيا ، نتيجة حركة البعث الروحي Erweckungsbewegung جمعيات دينية مماثلة . وكانت برلين وبازل قطبي هذه الحركة . ففي ٢٥ كانون الثاني عام ١٨٢٢ تأسست في برلين « جمعية نشر المسيحية بين اليهود « Gesellshaft zur Befoerderung des Christentums unter den Juden ». تحت رعاية البارون فون فيتسليبن Von Witzleben الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية في مملكة بروسيا . وجرت العادة على أن يتولى رئاسة هذه الجمعية أحد كبار الضباط في الجيش البروسي(١٢٦) . وهذا يدل على الأهمية العسكرية التي كانت مملكة بروسيا تعلقها على هذه الجمعية التبشيرية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الجمعية قد وثقت صلاتها بجمعية يهود لندن التي بدأت نشاطها التبشيري بين اليهود في فلسطين منذ عام ١٨٢٦(١٢٧) .

أما بازل فقد كانت مركز الاشعاع الديني في جنوبي ألمانيا . فمنذ عام ١٧٨٠ أسس يوهانس أوغست أورلشبرغر Johannes August Urlsperger « الجمعية المسيحية الألمانية Deutsche Christentums Gesellschaft » التي ما لبثت أن أنشأت لها فروعاً في مختلف امارات جنوب ألمانيا . وقد تدرب في هذه الجمعية القسان كريستيان غوتليب بلومهاردت Christian Gottlieb Blumhardt وكريستيان فريدريش شبتلر Christian Friedrich Spittler (من مملكة فورتمبرغ) . وهما اللذان أسسا جمعية بازل التبشيرية Baseler Mission Gesellschaft بين ١٨ و ٢٧ تموز ١٨١٥(١٢٨) . وبعد عشر سنوات من تأسيسها أبرمت اتفاقية مع جمعية التبشير الكنائسية في لندن نصت على تآخيهما وعلى المشاركة في التبشير الانجيلي في الشرق(١٢٩) .

لقد كانت فكرة استعمار فلسطين واستيطانها تهيمن على تفكير مؤسسي هذه الجمعيات ، وبخاصة مع انتهاء حكم محمد علي ١٨٤٠ ، واعتقاد الكثيرين من الأوروبيين أن الدولة العثمانية قد أوشكت على الانهيار وأن لا بد من اقتسام ممتلكاتها الآسيوية والسيطرة على فلسطين التي تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً بين هذه الممتلكات بالاضافة الى أهميتها الدينية . وبينما كانت قوات محمد علي تنسحب من فلسطين طلب شبتلر في ١٩ نيسان ١٨٤٠ من البارون بونزن Bunsen وزير بروسيا المفوض في بيرن لدى زيارته لمقر الجمعية في بازل السعي لاقامة مستعمرة بروتستانتية أنموذجية في الأرض المقدسة(١٣٠) . وقدم بونزن في

٢٩ نيسان ١٨٤٠ مذكرة الى وزير الخارجية البروسي فيرتر Werther تتضمن مشروعاً حول مستقبل فلسطين ٠ وينص المشروع على فصل فلسطين عن بقية الولايات العثمانية وربطها مباشرة بالباب العالي ، ووضع سكانها المسيحيين تحت حماية الدول الأوروبية بحيث تتولى فرنسا والنمسا حماية الكاثوليك ، وروسيا حماية الأرثوذكس ، وانجلترا وبروسيا حماية البروتستانت ٠ وأن تصبح القدس وبيت لحم والناصرة ممتلكات (مستعمرات) مسيحية(١٣١) ٠ وكان هذا المشروع وراء فكرة انشاء مطرانية بروتستانتية بروسية ـ انكليزية مشتركة في بيت المقدس ٠

ولعل أبرز ما يميز التبشير الألماني في فلسطين أنه بدأ بمبادرة من الدولة ونتيجة لمفاوضات رسمية بين الحكومتين البروسية والبريطانية ٠ وحظي هذا النشاط التبشيري بدعم المملكة البروسية ٠ وبعد قيام الوحدة الألمانية ازداد اهتمام ألمانيا القيصرية بالتبشير ، وسعيا منها الى تسخيره لخدمة أهدافها السياسية والاقتصادية في الشرق ، اعترضت على الاتفاقية البروسية ـ الانكليزية لعام ١٨٤١ ، وشجعت الرهبان الألمان على الانفصال عن الكنيسة الانجليكانية في فلسطين حتى انتهى الأمر بالانفصال التام عام ١٨٨٦ ٠ ومنذئذ لم يقتصر الدعم الرسمي الألماني على المؤسسات التبشيرية الانجيلية وانما امتد الى المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في البلاد ٠

لقد كان النشاط التبشيري مبرراً لتدخل قناصل ألمانيا في الشؤون الداخلية للبلاد ٠ اذ لم ينفك هؤلاء عن حماية المبشرين وحماية اليهود المهاجرين من ألمانيا أو الراغبين في الحماية الألمانية(١٣٢) ٠ واذا قارنا النشاط التبشيري الألماني ، والنشاط التعليمي منه بوجه خاص ، بالنشاط المماثل للدول الأوروبية وجدنا أن هذا النشاط كان ضعيفاً ومحدوداً ٠ اذ لم يتجاوز عدد المدارس الألمانية في بلاد الشام والعراق قبيل الحرب العالمية الأولى ٢٢ مدرسة ، بينما بلغ عدد المدارس الفرنسية ٦٠٠ مدرسة ، وعدد المدارس البريطانية والأمريكية ٥٠٠ مدرسة ، وعدد المدارس الايطالية ٢٠٠ مدرسة، وعدد المدارس الروسية ٦٠ مدرسة(١٣٣) ٠ واذا أخذنا بعين الاعتبار الخدمات الانسانية التي قدمتها هذه المؤسسات التبشيرية فلا يغيب عن بالنا أنها ساهمت في تعميق الخلافات الطائفية في البلاد ، كما أنها أضعفت الشعور الوطني والقومي بتنمية الولاء الطائفي وتعزيزه ٠

المصـــــادر

١ ـ رستم ، أسد : الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . بيروت ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ٨٧ ـ ٨٩ ·

أبو عزالدين ، سليمان · ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٢٠ ، ص ٧٦ ·

Carmel, Alex; Geschichte Haifas in der Tuerkischen Zeit, 1516-1918, otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975, pp. 76-7.

٢ ـ تأسست جمعية يهود لندن في العاصمة البريطانية عام ١٨٠٩ بقصد نشر المذهب الانجليكاني بين اليهود في فلسطين · لمعلومات وافية عن الجمعية انظر :

Tibawi, A. L. : British Interests in Palestine, Oxford University Press, London, 1961.

Geschichte der deutschen evangaelische Kirche und Mission im Heiligen Land, Guetersloh, 1898, P. 3.

العارف ، عارف · المسيحية في القدس . مطبعة دير الروم الأرثوذكس ، ١٩٥١ . ص ١٥٨ ·

٣ ـ Richter, J. : A History of Protestant Missions in the Near East, A.M.S. Press, New York 1970 (Reprinted from Edition of 1910) p. 237.

Tibawi, A. L. : op. cit., pp. 44-5,

Geschichte der deutschen evangaelischen Kirche und Mission im Heiligen Lande, p. 4.

وسيشار اليه فيما يلي بـ Geschichte .

٤ ـ كريستيان بونزن ابن جندي هولندي عاش في امارة فالديك Waldeck الألمانية · درس اللغات الكلاسيكية في جامعة غوتنجن وفي معهد اللغات الشرقية في باريس · ثم التحق بالسلك السياسي البروسي حتى بلغ رتبة وزير مفوض في روما · وأصبح بعد ذلك مستشاراً للملك بروسيا ·

Schmitz, L. : The late Baron Bunsen, London, 1862, pp. 32-9.

Bunsen, F. : A Memoir of Baron Bunsen, London, 1868, Vol. I, pp. 593.

٥ ـ Alonzo, A. d' : Les Allemands en Orient, Oscar Schepens et cie, Bruxelles, 1904, pp. 11-12.

٦ ـ نص الرسالة باللغتين الألمانية والانكليزية في :

Helcher, W. H. : The Jerusalem Bishopric, London, 1883, Pt. 11 (Documents), pp. 20-27.

٧ ـ نص التعليمات الموجهة الى بونزن في : Alonzo, A. d' : op. cit., pp. 11-18

٨ ـ Tibawi, A. L. : op. cit., p. 46. Alonzo, A. d', op. cit, pp. 18-19

٩ ـ Tibawi, A. L. : op. cit., p. 49, Geschichte ...., p. 6

١٠ ـ نص رسالة رئيس أساقفة كانتربري في : Alonzo, A. d, : op. cit, pp. 29-30

١١ ـ Richter, J. : op. cit, p. 239

١٢ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 48

١٣ ـ هو يهودي بولندي اسمه الحقيقي فولف Wolf من مواليد شينلاكه Schoenlake في دوقية بوزن Bosen الألمانية . جاء الى بريطانيا عام ١٨٢٠ وهو في الحادية والعشرين من عمره . وتولى تعليم التلمود واللغة العبرية . ثم عين حاخاماً في بلايموث Plymouth تنصر عام ١٨٢٥ وعمل في جمعية يهود لندن مبشراً في دانتسغ Danzig . ثم عاد الى لندن عام ١٨٣٠ وبقي فيها حتى تاريخ اختياره لأسقفية القدس . وتولى أثناء اقامته في لندن تعليم اللغة العبرية في Kings College .

Tibawi, A. L. : op. cit, p. 50, Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 22-3
Richter, J. : op. cit, p. 239.

١٤ ـ Alonzo, A. d' : op. cit, p. 23

١٥ ـ النص الكامل للرسالة في : Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 23-24

١٦ ـ Geschichte...., p. 11, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 51

١٧ ـ Geschichte...., p. 12, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 58

١٨ ـ Helcher, W. H. : op. cit. (Documents), pp. 128-9
Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 61-74

١٩ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 75

٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

٢١ ـ Smith, H. : The Protestant Bishopric in Jerusalem, pp. 124-5

٢٢ ـ Alonzo, A. d' : op. cit., p. 32, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 80

٢٣ ـ ولد صموئيل غوبات في ٢٦ كانون الثاني ١٧٩٩ في قرية صغيرة في منطقة جورا Jura الفرنسية التي ضمت بعد سقوط نابليون الى كانتون برن السويسرية . درس في مدرسة القرية حتى بلغ سن الخامسة عشرة . وتربى في أحضان الكنيسة الاصلاحية في سويسرا وتدرب على التبشير في معهد بازل Basel وتعلم اللغة العربية في باريس على يد المستشرق الفرنسي دوساسي de Sacy ثم سيم في الكنيسة الموحدة في مملكة بادن الكبرى حيث اتحدت الكنيستان اللوثرية والاصلاحية في كنيسة واحدة . رحل غوبات الى انكلترا عام ١٨٢٥ حيث عينته جمعية التبشير الكنانسية C. M. S. مبشراً في الحبشة . وقبل أن

أن يتولى مهمته الجديدة دخل كلية اسلنجتون Islington للتدرب فيها لبضعة أشـهر وفي طريقه الى مركز عمله الجديد ، قضى غوبات ما يزيد عن ثلاث سنوات في زيارة لمالطـة وفلسطين وجبل لبنان ومصر حيث تمكّن من تحسين لغته العربية • ونقل من الحبشة الـى مالطة حيث شارك في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية ، وفي كتابة المنشورات التبشيرية التي كانت تصدرهـا مطبعة جمعية التبشـير الكنائسية في مالطة • ولما أنشئت الكليـة البروتستانتية في مالطة • سيم غوبات قسيساً في كنيسة انكلترا ، وعيّن نائباً لمدير الكلية • وبعد شهر واحد من افتتاح الكلية عام ١٨٤٦ تلقى غوبات دعوة من ملك بروسيا لتسميتـه مطرانـاً للقـدس •

Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 86-7. Geschichte .... pp. 12-13,
Alonzo, A. d' : op. cit, p. 33

لمزيد من التفاصيل عن حياة غوبات انظر مذكراته التي نشرت في لندن عام ١٨٨٨ بعنوان :

Samuel Gobat, Bishop of Jerusalem, His Life and Work

٢٤ ـ Geschichte .... p. 13, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 88 •

٢٥ ـ Richter, J. : op. cit, p. 239, Tibawi, A. L., op. cit, p. 90

٢٦ ـ Geschichte .... p. 17

٢٧ ـ انظر تفاصيل الخلاف بين البطريركية الأرثوذكسية ورعاياها العرب في كتاب خليل قزاقيا : تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ١٩٢٤ •

٢٨ ـ Geschichte .... p. 34, Richter, J. : op. cit, p. 240

٢٩ ـ Geschichte .... p. 36, Richter, p. 241

٣٠ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 108

٣١ ـ Geschichte .... p. 35

٣٢ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 108

٣٣ ـ Geschichte....p. 37, Richter, J. : op. cit, p. 241, Tibawi, A.L. : op. cit. p. 93

٣٤ ـ Geschichte .... p. 38

٣٥ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 131

٣٦ ـ Geschichte .... p. 29

٣٧ ـ Geschichte .... p. 27, Tibawi, A.L. op. cit, p. 99

٣٨ ـ ترجم الفرمان المذكور الى الانكليزية ونشر في صحيفة :

The Missionary Herald, Boston, U.S.A., April 1951

٣٩ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 104

٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ٠

٤١ ـ Geschichte ...., p. 29

٤٢ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 136

٤٣ ـ F. O. 78/1448, letter of Malmesbury of 28.4.1959

٤٤ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 91

٤٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٣ ٠

٤٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٧ ٠

٤٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٠ ٠

٤٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ٠

٤٩ ـ المصدر نفسه . ص ١٦٣ ٠

٥٠ ـ Geschichte .... p. 39

٥١ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ٠

٥٢ ـ كان جوزيف باركلي مبشراً في جمعية يهود لندن في اسطنبول ثم نقل رئيساً لبعثتها التبشيرية في القدس وأصبح المسؤول الأول في « كنيسة المسيح » فيها ٠ وهو مؤلف كتاب :

Jerusalem, The city of Great King

Tibawi, A. L. : op. cit, p. 215, Alonzo, A. d', op. cit, p. 33

٥٣ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 215-6

٥٤ ـ Benson, A. C. : The life of Edward White Benson, London, 1899, vol. 2, p. 163.

٥٥ ـ Geschichte .... pp. 126-7, Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 216-9 Alonzo, A. d' : op. cit, p. 34.

لمزيد من التفاصيل عن موضوع المفاوضات البروسية ـ الانكليزية انظر كتابي :

Anglican Bishopric in Jerusalem and the East, 1883-7. Benson's Diary, Bensons letters, Notes and Memoranda.

٥٦ ـ ولد شبتلر في فورتمبرغ وتلقى تعليمه فيها ثم رحل الى بازل في سويسرا عام ١٨٠١ حيث عمل سكرتيراً للجمعية الألمانية المسيحية عام ١٨٠٧ ٠ وسعى شبتلر منذ انشاء دار البعثة البازلية عام ١٨٥١ الى نشر نشاط البعثة في ألمانيا ٠

٥٧ - Geschichte .... pp. 42-3 Richter, J. : op. cit, p. 261

٥٨ - Geschichte .... p. 43, Richter, p. 262

٥٩ - Geschichte .... p. 44

٦٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

٦١ - المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

٦٢ - Richter, J. : op. cit, p. 263, Geschichte .... pp. 46, 48

٦٣ - Geschichte .... pp. 49-50

٦٤ - المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

٦٥ - Richter, J. : op. cit, p. 244

٦٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

٦٧ - Geschichte .... p. 94, Richter, J. : op. cit, p. 264

٦٨ - Geschichte .... pp. 95-7

٦٩ - المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

٧٠ - المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

٧١ - المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

٧٢ - Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, po. 25, Palaestina, Bd. 1
Richter, J. : op. cit, p. 265

٧٣ - Geschichte...., p. 97

٧٤ - Richter, J. : op. cit, p. 267

٧٥ - Geschichte .... p. 51

٧٦ - المصدر نفسه ، ص ٥٢ - ٥٦ .

٧٧ - المصدر نفسه ، ص ٥٦ - ٦٢ .

٧٨ - Richter, J. : op. cit, p. 259, Geschichte .... p. 64

٧٩ - Geschichte, pp. 65-6

٨٠ - Richter, J. : op. cit, p. 260

٨١ ـ Geschichte ....pp. 67-69

٨٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠ ـ ٧٢ .
لم يتجاوز عدد سكان بيت جالا في نهاية القرن التاسع عشر أربعة آلاف نسمة .
Richter J. : op. cit, p. 260.

٨٣ ـ Geschichte .... pp. 73-5.

٨٤ ـ Richter, J. : op. cit, p. 260.

٨٥ ـ Geschichte .... pp. 77-8.

٨٦ ـ طاليا قومي كلمتان سريانيتان وردتا في الانجيل وتعنيان : « يا صبية قومي » . فقد جاء في انجيل مرقس (الاصحاح الخامس : ٤١) « وأمسك بيد الصبية وقال لها طليثا قومي ، الذي تفسيره يا صبية لك أقول قومي » .

٨٧ ـ العارف . عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٧٨ .

٨٨ ـ Geschichte .... p. 79.

٨٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

٩٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

٩١ ـ العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ٧٩ .

٩٢ ـ Geschichte .... pp. 83-4.

٩٣ ـ حول المستشفى المذكور الى مستشفى عسكري بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين عام ١٩١٨ ثم أعيد الى الألمان عام ١٩٢٤ ، العارف ، عارف : المسيحية في القدس ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

٩٥ ـ Geschichte .... pp. 127-8, Alonzo, A. d' : op. cit, p. 36

٩٦ ـ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, PO. 25, Palaestina, Bd. 1, Deutsche Propst Rhein, Jerusalem, 12.4.1938.

٩٧ ـ كان قساً في مدينة توييننغ Toenning التابعة لدوقية شيلزفيج في شمال المانيا .

٩٨ ـ Geschichte .... pp. 124-5

٩٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

١٠٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

١٠١ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٤ ـ ١١٨ .

١٠٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٠١ ـ ١٠٧ ·

١٠٣ ـ Richter, J. : op. cit., pp. 269-270, Geschichte .... pp. 110-111

١٠٤ ـ Richter, p. 269, Geschichte .... pp. 112-3

١٠٥ ـ سوف نأتي على دراسة هذه الجمعية والمستعمرات التي انشأتها في فلسطين في بحث مستقل لأن عملها اقتصر على الاستيطان ولم يمتد الى التبشير ·

١٠٦ ـ Geschichte .... pp. 136-7

١٠٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ·

١٠٨ ـ Richter, J. : op. cit., p. 270, Geschichte .... p. 119

١٠٩ ـ Richter, J. : op. cit, p. 270

١١٠ ـ Die Diplomatische Akten des Auswaertiges Amt, Bd. 12, Zweite Teil, Akt Nr. 3354, pp. 591-2.

انظر نص المعاهدة الفرنسية ـ العثمانية لعام ١٧٤٠ في :

Hurewitz, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, D. van Nostrand, Princeton, New Jersey, 1956, vol. I, pp. 1-5.

١١١ ـ Geschichte .... pp. 25-26

١١٢ ـ Meinertz, G. : Ein Jahrhundert Kampf um den Besitz und die Erhaltung der Heiligen Staetten, Das Heilige Land, vol. III, 1914, p. 25, Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, p. 428

١١٣ ـ Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 43-6

١١٤ ـ L'Allemagne et le Proctectorat Francais, pp. 5, 10, 14, 23.

١١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨ ، ١٩ ·

١١٦ ـ العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ·

١١٧ ـ Die Diplomatische Akten des Auswaertiges Amt 1871-1914, Bd. 12, Zweite Haefte, Akt Nr. 3345, pp. 575-6.

١١٨ ـ العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٨٧ ·

١١٩ ـ اعيد النزل للألمان بين عامي ١٩٢٧ ، ١٩٣٩ ، فاصبح داراً لاستراحة الرهبان · وتحول أثناء الحرب العالمية الثانية الى مستشفى للجنود الانكليز ·
المصدر السابق ، ص ١٨٢ ·

١٢٠ _ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, PO. 25, Palaestina, Bd. 1.

١٢١ _ Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 50-51.

١٢٢ _ المصدر نفسه ص ٥٣ _ ٥٤ .

١٢٣ _ Die Diplomatische Akten des Auswaertiges Amt, Bd. 12/2 Akt Nr. 3352, pp. 590-591.

رسالة من وزير الدولة البروسي Bernard von Buelow الى الوزير المفوض البروسي لدى الكرسي البابوي Otton von Buelow برلين ، ٢٢ شباط ١٨٩٨ .

١٢٤ _ المصدر نفسه ، ص ٦١٨ _ ٦١٩ : رسالة سكرتير الدولة في وزارة الخارجية الألمانية Bernhard von Buelow الى وزارةالخارجية من Semmering من ١٨ايلول١٨٩٨ .

١٢٦ _ Hajjar, J. : L'Europe et les destinées du Proche Orient, Blond et Gay, Tournai (Belgique), 1970, p. 8

١٢٧ _ حول نشاط الجمعية انظر :

Schaefer, E. : Die Juden Vornemmlich. Eine geschichtlicher Ueberblick ueber die Arbeit des Gesellschaft zur Befoerderung des christentums unter den Juden zu Berlin, Berlin, 1913.

١٢٨ _ Hajjar, J. : op. cit, p. 9

١٢٩ _ المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

١٣٠ _ المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ .

١٣١ _ المصدر نفسه ٣٧٦ _ ٣٧٧ .

١٣٢ _ Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, in « Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem, 1975, p. 427.

١٣٣ _ Watti, M. : Analyse des Nationales Interesses am Beispiel der Deutsch-Arabische Beziehung, Bochum, 1976, p. 56.

★ ★ ★

التشريع الاقتصادي الإسلامي

ودور الإمام محمد بن الحسن الشيباني في إرساء دعائمه

د . سهـــيل زكـــار

جامعــة دمشــق

تميز المجتمع الأول الذي قام الاسلام في وسطه بسيطرة الروح التجارية عليه ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه شارك قبل البعثة بالأعمال التجارية ، ويلاحظ من قراءة السور المكية في القرآن مع مختلف مصادر تاريخ مكة قبل الاسلام وأثناء الدعوة اليه قبل الهجرة ، مدى انغماس المكيين في أعمال التجارة ، وكيف أن السعي وراء الكسب كان هدف جل رجالاتهم ، وذلك بلا ضوابط أو روادع ، ولهذا يمكن القول بأن الفترة المكية من تاريخ الاسلام كانت فترة صراع ضد التجار أكثر منها صراعاً دينياً ، ذلك أن مكة لم يكن فيها رجال دين ، ولا حكومة منظمة بل أديرت من قبل التجار وأصحاب الأموال •

هذا وقد أسهم المكيون في عدد من الأعمال ذات الصلة المباشرة بالتجارة ، مثل بعض الأعمال الزراعية خارج مكة ، وبعض الأعمال الصناعية مثل دباغة الجلود ، كما عقدوا المعاهدات التجارية واتفاقات للمرور •

وبعد الهجرة الى المدينة تغيرت طبيعة الأجواء التي عاشها المسلمون ، فالمدينة تميزت بطبيعتها الزراعية مع وجود بعض الحرف فيها التي مارسها اليهود من حدادة وصياغة وما ناظرها •

وعلى هذا الأساس عاش الاسلام في تاريخه المبكر تجربة اقتصادية شبه كاملة ، فيها تجارة وصناعة وزراعة وتربية مواشي وحيوانات ، وقام هذا الدين الحنيف بالتشريع لهذه الجوانب الاقتصادية ، ودون الوقوف طويلا عند مدى التجديد في التشريع الجديد ومدى الفوارق بينه وبين الأعراف التي كانت سائدة من قبل ، يكفينا القول أنه وجد في الاسلام أسس تشريع كامل منظم للحياة الاقتصادية ، كما أن قانون الحرب في

الاسلام قد تولى مسألة توزيع الغنائم وموارد الحرب ، ثم ان النظام الضرائبي قد عالج مسائل الجباية مع أوجه الصرف ٠

وهكذا عندما تأسست نواة الأمة الاسلامية الأولى في التاريخ ، وقام لها دولة الاسلام المركزية الأولى في المدينة كان هناك نظام اقتصادي شامل منظم لجميع أوجه الحياة ، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، ألم بهذا النظام بعض التطور ، خاصة اثر نجاح أعمال الفتوحات الكبرى ، فقد أزالت هذه الفتوحات الامبراطورية الساسانية من الوجود ، وحررت الشام ومصر ثم الشمال الافريقي من الحكم البيزنطي ، ونتيجة لهذا تبدلت صورة العالم سياسياً وعسكرياً ، وتغيرت معالمه الاقتصادية ، حيث تغيرت طرق التجارة ، وتبدلت مقاصد التجار وغاياتهم مع أنواع البضائع المتاجر بها ، فلم تعد كل الطرق تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام ٠

لقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الحدث من أخطر ما وقع في التاريخ الانساني ، وعده هنري بيرين البداية الحقة لقيام العصور الوسطى في أوربة ، ذلك أن أوزوبة طوقت الآن بحزام امتد عبر البحر المتوسط من الشرق الى الغرب ، وكانت طبيعة هذا الحزام جديدة من كافة الجوانب : الاقتصادية ، والثقافية ، والقانونية ، والبشرية ، واللغوية والحضارية العامة ٠

★ ★ ★

ومن المعلوم أن النظام البيزنطي كان قد اعتمد في العمل التجاري والاقتصادي على قواعد اختلفت عما كان موجوداً لدى الامبراطورية الساسانية ، ثم ان البيزنطيين تعاملوا بالوحدة النقدية الذهبية ، وفي المقابل تعامل الساسانيون بالوحدة النقدية الفضية ، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وبداية الاستقرار خاصة مع عصر عبدالملك بن مروان ظهرت الحاجة الى وحدة نقدية رسمية اسلامية ، وهكذا قام عبدالملك بن مروان بتعريب الدنانير مع الدواوين ٠

فعبد الملك بن مروان الذي يعد عن جدارة المؤسس الثاني للخلافة الأموية ، أدرك أن دولته التي أعاد توحيدها سياسياً ينبغي أن ترتبط بوحدة نقدية ، ونظام اداري واحد ، لهذا شرع في تعريب الدواوين ، وبهذا العمل يمكن القول بأن الدولة العربية المستقلة، أو بالحري المتميزة ،

جاءت فعلا الى الوجود ، وأن عمليات الفتح العسكري قد بدأت تتحول الى تغيير للأرض والانسان ، وهكذا حلت العربية الشمالية محل الاغريقية واللاتينية والفارسية ، وبذلك طويت صفحة طويلة من صفحات التاريخ القديم ، وبدأت صفحة جديدة ، هي صفحة العروبة وحضارة الاسلام ٠

وتعريب الدواوين كان من معانيه أيضاً ايجاد طبقة ادارية عربية مثقفة وآذن ذلك ببداية عصر التدوين للآثار العربية والثقافة الاسلامية ، كما آذن بتعريب البلدان الاسلامية ، وساعد على ترويج دعوات المساواة واقامة الأمة الاسلامية الجديدة ٠

وتوحيد المعاملات النقدية ، وايجاد صيغة تعادلية ثابتة بين الذهب والفضة وهو ما عرف عادة باسم « تعريب الدنانير » لا يقل أهمية عن مسألة تعريب الدواوين ، فالبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين انتهى فيها الآن العمل بالأنظمة النقدية المختلفة ، ولقد كان لهذه الأنظمة قبل الغائها أسوأ الآثار على المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية عامة ، كما كانت حائلا دون زوال الحواجز الاقتصادية وبالتالي معيقاً دون قيام وحدة اقتصادية للبلاد الاسلامية ، كما كان للاختلاف بالتعامل النقدي آثار سيئة على عمليات الجباية والصرف داخل الدولة ، ثم ان توضع معالم الاستقرار في الدولة الاسلامية ، والشروع في التميز الحضاري كشرط لنجاح التميز الديني فرض عدم متابعة ضرب النقود حسب طرائق الحكومات البائدة ، فالاسلام يجبُّ ما قبله ٠ ثم ان تحديد التعامل النقدي، وضرب الدينار من قبل الدولة أنهى فترة من الفوضى والاستغلال قامت بسبب الأعمال العسكرية ونتيجة لها ٠

من هنا يمكن أن نرى بداية تغير الصورة الاقتصادية والحضارية للعالم القديم ، وتطويق أوربة الغربية حيث غرقت في ظلام العصور الوسطى ، بينما عاش سواها في ظل الحضارة العربية الاسلامية الوارف ٠

ولقد فرض تطور الدولة الاسلامية ، واتساع رقعتها تطوير النظام الاقتصادي فيها ، ولا شك أن الخلفاء مع الفقهاء ورجال الشريعة والادارة قد تعاونوا في هذه المجالات ، وفي نفس الوقت حدثت تجاوزات اقتصادية كبيرة لروح الشريعة الاسلامية ، وقف الفقهاء منها موقف الناقد والمقوم ، وهكذا تجمع مع الأيام لدى المسلمين تراث تشريعي اقتصادي كبير ، ومع قيام حركة جمع التراث الاسلامي والعربي وتدوينه نالت المواد المتعلقة

بالجوانب الاقتصادية حظها ، وصنفت في أبواب خاصة في داخل المدونات من كتب الحديث وسواها، ومع قيام مدارس التشريع الاسلامية في القرن الثاني للهجرة وما رافق ذلك من انقلابات اقتصادية ، اهتم بعض المحدثين والفقهاء من هذه المدارس بالجوانب المتعلقة بالحياة الاقتصادية ككل أو جزء ، وهكذا جاء الى الوجود كتب الخراج والأموال ، مثل خراج يحيى بن آدم القرشي ، وخراج أبي يوسف ، والأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والصبغة العامة التي اتسمت هذه الكتب بها هي سمة مصنفات الحديث ، ورواية الآثار ، وارتبطت بالمواضيع الجبائية للدولة ، ولهذا نجد الحاجة كانت قائمة للتصنيف في ميادين الاقتصاد العامة ذات المساس بحياة الناس بشكل عام ، ولعل أشهر من كتب في هذا الميدان محمد بن الحسن الشيباني ، الذي قام في أواخر حياته بتصنيف رسالة في ميدان الاقتصاد العام ، عرفت فيما بعد باسم « كتاب الكسب » ٠ وجاءت هذه الرسالة كأول محاولة في هذا الميدان باللغة العربية ٠

★ ★ ★

محمد بن الحسن الشيباني : وهو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ولاءاً ، كان أصل والده من منطقة الجزيرة حيث كانت ديار شيبان ، لكنه لم يعش في الجزيرة ، بل في بلدة حرستا في أحواز مدينة دمشق ، ذلك أنه كان من الجند الشامي ٠ وفي أواخر العصر الأموي انتقل الى مدينة واسط عاصمة العراق الأموي الأخيرة ، وفيها ولد له ولده محمد سنة اثنتين وثلاثين ومائة (٧٥٠ م) ٠

ويبدو أن والد محمد بن الحسن كان ثرياً ، وقد ترك سكنى مدينة واسط ، واستقر في مدينة الكوفة ، ويبدو أن ذلك كان اثر سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، وفي كوفة النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة ، كوفة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وكبار العلماء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والحديث نشأ محمد بن الحسن الشيباني ، فلقي كبار رجال الفكر فأخذ عنهم ، ويروى أنه عندما «بلغت سنه أربع عشرة سنة حضر مجلس الامام أبي حنيفة ، ليسأله عن مسألة نزلت به ، فسأله قائلا : ما تقول في غلام احتلم بالليل بعدما صلى العشاء ، هل يعيد العشاء ؟ قال : نعم ، فقام وأخذ نعله ، وأعاد العشاء في زاوية المسجد » وكان هذا أول شيء تعلمه من أبي حنيفة ، ويروى بأن الامام عندما رآه يعيد الصلاة

أعجبه ذلك ، وقال : « ان هذا الصبي يفلح ان شاء الله تعالى » وكان الأمر كما قال ...

حيث « ألقى الله تعالى في قلبه حب التفقه في دين الاسلام » ودخل في روعه جلال مجلس الفقه ، فعاد الى حلقة أبي حنيفة يريد التفقه والتعلم ، فقال له أبو حنيفة : « استظهر القرآن أولا » لأن المتفقه في الشريعة الاسلامية في حاجة ماسة للقرآن والاحتجاج بآياته لأن للقرآن المنزلة الأولى في العقيدة الاسلامية .

وغاب محمد بن الحسن عدة أيام عاد بعدها الى مجلس الامام أبي حنيقة وقد استظهر القرآن ، وابتدأ حظه بتوجيه سؤال جديد الى الامام ، فقال له الامام : أخذت هذه المسألة من غيرك أم أنشأتها من نفسك ؟ فقال محمد بن الحسن : بل من عندي فقال له أبو حنيفة : سألت سؤال الرجال ، أدم الاختلاف الينا والى الحلقة .

من ذلك الحين بدأ محمد بن الحسن حياته العلمية ، فأقبل بكليته على فقه أبي حنيفة ، ووقف جل وقته على ملازمة حلقته يكتب المسائل وأجوبتها ، واستمر في حاله هذا أربع سنوات حتى توفي الامام أبو حنيفة ، وبعد ذلك تابع نيله لفقه أبي حنيفة على تلميذه وخليفته من بعده أبو يوسف .

وكان أثناء هذا كله يختلف الى حلقات المحدثين وسواهم في الكوفة ، ويأخذ عنهم ، وعندما شعر بأنه استنفذ تحصيل معارف أهل الكوفة ، قرر الرحلة في طلب العلم ، وكانت شهرة امام أهل المدينة مالك بن أنس قد طارت ومعها شهرة كتابه الموطأ ، لذلك اتجه نحو شبه الجزيرة ، وفي المدينة تعرف الى الامام مالك وأخذ عنه ، وسمع منه الموطأ ودونه من سماعه ، وتعتبر رواية محمد بن الحسن للموطأ من أفضل الروايات له قدماً وصحة وضبطاً ، وحين دوّن محمد بن الحسن الموطأ دوّنه بترو في مدة ثلاث سنوات ، وذكر بعد كل حديث أو فقرة فقهية ما اذا كان ذلك يتفق مع فقه أبي حنيفة أم يختلف ــ وقد أتيح لي تفحص هذا العمل الجليل في نسخة خطية شبه كاملة من هذا الموطأ هي في حوزتي حيث يمكن وصف عمل محمد بن الحسن فيها بأنه محاولة رائدة في باب الخلاف الفقهي العالي .

ومفيد أن نشير هنا أنه أثناء أخذ محمد بن الحسن على الامام مالك

جاء محمد بن ادريس الشافعي للأخذ على الامام مالك ، وبذلك حدث التعارف الأول بين الشيباني والشافعي ·

وحج الشيباني الى مكة ، وهناك لزم كبار العلماء ، وأخذ عنهم مثل سفيان ابن عيينة وسواه ، كما أنه رحل الى الشام فأخذ عن الامام الأوزاعي ، وزار البصرة وخراسان آخذاً عن كبار العلماء ·

وبعدما استكمل رحلاته عاد الى عراق الخلافة العباسية فاستقر في بغداد ، وطارت شهرته ، واختلف التلاميذ اليه ينهلون من علمه ، وقام الخليفة الرشيد بتوليته القضاء ، وأثناء ولايته لهذا المنصب لقيه الامام الشافعي ثانية ، حيث حدث أن الشافعي حمل من نجران الى الرشيد مكبلا بالحديد متهماً بالتآمر السياسي ، وجرت محاكمته بحضرة الخليفة وحضور القاضي محمد بن الحسن الشيباني مما سهل أمر اطلاق سراحه ، وانقاذه من ظلام الوظيفة واعادته الى نور العلم حيث أن الشافعي قام بالتزام الشيباني لمدة عامين تقريباً أخذ عنه فيهما فقه أهل العراق ·

ويبدو أن الامام محمد بن الحسن لم يمكث في القضاء طويلا حيث تخلى عنه واعتزل العمل الاداري ، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً ، وبعمله هذا بنى عملياً مذهب أبي حنيفة ، ذلك أن التراث الفكري المدون لفقه أهل العراق جله من انتاج الامام الشيباني الذي يمكن اعتباره لهذا الباني الفعلي للمذهب الحنفي ·

لقد جاء طلاب العلم الى الامام الشيباني من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه، وكان أبرز من أخذ عليه من أهل الغرب الاسلامي أسدبن الفرات، فاتح صقلية ، وصاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي ، حيث أن مدونته هي أصل مدونة الامام سحنون الشهيرة ·

لقد تحدث أسد بن الفرات عن اتصاله بالامام مالك ثم سفره الى العراق حيث لزم محمد بن الحسن الشيباني ، وذكر أنه قال في احدى المناسبات : « اني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر والطلب عندك كثير فما حيلتي » ؟ فقال لي : « اسمع من العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتأتي فتبيت عندي وأسمعك » قال أسد : « فكنت أبيت عنده، وكنت (معه) في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل الي ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه ماء ثم يأخذ في القراءة ، فاذا طال عليه الليل

ورآني قد نعست ، ملأ يده ونضح به في وجهي ، فانتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه » ٠

في هذا الحديث صورة رائعة تعبر عن مدى حرص الامام محمد بن الحسن الشيباني على مساعدة طلاب العلم خاصة الغرباء منهم ، وتكتمل بعض جوانب هذه الصورة وتزداد روعة فيما ذكره أيضاً أسد بن الفرات بقوله : وكنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن ، حتى صاح صائح الماء للسبيل ، فقمت مبادراً فشربت من الماء ، ثم رجعت الى الحلقة ، فقال لي محمد بن الحسن : يا مغربي شربت ماء السبيل ؟ فقلت : أصلحك الله ، وأنا ابن سبيل ، قال : ثم انصرفت ، فلما كان الليل اذا بانسان يدق الباب فخرجت اليه ، فاذا خادم محمد بن الحسن ، فقال : مولاي يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما علمت أنك ابن سبيل الا في يومي ، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك ، ثم دفع الي صرة ثقيلة ، فقلت في نفسي : هذه كلها دراهم ، ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فاذا فيها ثمانون ديناراً(١) ٠

لا يعلم بين سير الأئمة الا ندرة صبروا صبر محمد بن الحسن في تعليم تلاميذه ، وآثروهم في الانفاق والوقت ، ولا عجب ، فالشيباني كان اماماً عاملا آمن بالاسلام عن فهم وعقل، واتخذ سيرة النبي المصطفى مثله الأعلى٠

لقد زق محمد بن الحسن أسد بن الفرات بالعلم زقاً ، وكان الامام مالك قد توفي ٠ وفي طريق عودته الى القيروان حمل معه زاداً عظيماً دونه في كتاب عُرف بالمدونة الأسدية ، وهي كما أشرت أصل مدونة سحنون، وعليها قام فقه المالكية ، وهكذا نرى الأثر العظيم لمحمد بن الحسن اسلامياً شاملا ، فهو الباني الفعلي للمذهب الحنفي ، وهو من جهة ثانية آستاذ الامام الشافعي ، ومن طرف ثالث أستاذ أسد بن الفرات ، ولا عجب أن قال عنه الامام الشافعي : « لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت ، لفصاحته، وقد حملت عنه وقر بختي كتباً» وقال : «مارأيت أحداً يُسأل عن مسألة فيها نظر الا تبينت الكراهة في وجهه الا محمد بن الحسن »(٢) ٠

١ ـ رياض النفوس للمالكي ـ ط ٠ القاهرة : ١/١٧٣ ـ ١٧٦ ٠
٢ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٢/١٧٥ ٠ فوات الوفيات لابن أيبك : ٢/٣٣٣ ٠

وكما سلفت الاشارة عمل الامام محمد بن الحسن في القضاء فترة وجيزة ، وكان له علاقات بالخليفة الرشيد ، انما يلاحظ أن هذه العلاقات ظلت متوازنة ، حافظ فيها على رونق العلم ، وجلالة العلماء ، فقد ذكر أحد معاصريه قال : « كنا مع محمد بن الحسن ، اذ أقبل الرشيد ، فقام اليه الناس كلهم الا محمد بن الحسن ، فانه لم يقم ، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب ، ممتلىء البطن على محمد بن الحسن ، فقام ودخل الناس من أصحاب الخليفة ، فأمهل الرشيد يسيراً ، ثم خرج الآذن ، فقال : محمد بن الحسن ، فجزع أصحابه له ، فأدخل فأمهل ، ثم خرج طيب النفس مسروراً ، فقال : قال لي : مالك لم تقم مع الناس ؟ قلت كرهت أن آخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها ، انك أهلتني للعلم ، فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار » وأنه انما أراد بذلك العلماء ، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك فهو هيبة للعدو ، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم أخذت ، فهو زين لكم ، قال : صدقت يا محمد » .

كان محمد بن الحسن قوي الذاكرة ، شديد الوعي ، سريع البديهة ، أتقن صناعة القياس واستخدام الرأي بشكل بارع للغاية ، انما في حدود الشريعة وفي نطاق معطياتها ، قبل بأنه لما اتصل بالامام مالك سأله : « ما تقول في جنب لا يجد الماء الا في المسجد ؟ فقال مالك : لا يدخل الجنب المسجد ، قال : فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة ، وهو يرى الماء ؟ قال : فجعل مالك يكرر : لا يدخل الجنب المسجد ، فلما أكثر عليه : قال له مالك : فما تقول أنت في هذا ؟ قال : يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ، ويخرج فيغتسل . قال : من أين أنت ؟ قال : من أهل هذه ـ وأشار الى الأرض ـ فقال : ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه ، فقال : ما أكثر من لا تعرف ، ثم نهض ، قالوا لمالك : هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فقال مالك : محمد بن الحسن كيف يكذب ، وقد ذكر أنه من أهل المدينة ؟ فقالوا : انما قال : من أهل هذه ، وأشار الى الأرض ، قال : هذا أشد علي من ذاك »(٣) .

توفي محمد بن الحسن سنة تسع وثمانين ومائة (٨٠٤ م) في مدينة الري ـ قرب طهران الحالية ـ وقد كان خصب الانتاج ، وهو بسبب ذلك

٣ ـ تاريخ بغداد : ١٧٤ ـ ١٧٥ .

اعتبر فقيه مدرسة العراق الأعظم مكانة ، ومدون تراث هذه المدرسة ، وقد كتب محمد بن الحسن عدداً كبيراً من الكتب وقفها على مواضيع فقهية عامة متعددة ، كما كتب بعض الرسائل وقف كل منها لموضوع فقهي خاص ، وكان آخر ما كتبه قبيل وفاته كتاب الكسب .

* * *

كتاب الكسب

روى هذا الكتاب عن محمد بن الحسن تلميذه محمد بن سماعة التميمي ، كما شرحه فيما بعد الامام السرخسي كما شرح غيره من كتب الشيباني ، لكن جاء شرحه منفصلا ولم يدخله في مجموعة المبسوط العملاقة .

لقد جاء هذا الكتاب بالأصل صغير الحجم ، أملاه صاحبه على طريقة الآثار ، وكان من دوافعه الى تصنيفه ، وذلك بالاضافة الى تلبية الحاجة ، الرد على حركة الزهد الأعجمي التي نشطت في القرن الثاني للهجرة مع نشاط الديانة المنانية (حركة الزندقة) والحركة الشعوبية ، كما حوى بعض الردود على جماعة القدرية ، وفي مسار الردود هذه استعرض الشيباني مشكلة الكسب وموقف الشريعة منها ، مبينا أوجه الحلال والحرام مع طرائق وقوانين الكسب ، مستشهداً خلال ذلك كله بالعديد من الآيات والأحاديث والآثار المروية .

ولعل من الأفضل قبل الاستطراد في الحديث عن محتويات هذا الكتاب بشكل مفصل أن نبين ، أن كتاب الشيباني هذا عظيم القيمة ، لأنه يحوي خلاصة فكر باني المذهب الحنفي ، ومواقفه خاصة مشكلة الحرية في التصرف الاقتصادي وحق السلطة في التدخل والتسعير ، ثم كما قلت سابقا هذا الكتاب المبكر التاريخ هو المحاولة الأولى في العربية في بابه .

لقد صنف هذا الكتاب في مرحلة مبكرة للغاية في تاريخ الأدب العربي، لهذا تميز بعدة مزايا ، فجاء عرض موضوعاته ككتلة واحدة ، ثم ان المصنف لم يقم بتقسيم الكتاب الى عدة أقسام يتناول في كل منها واحداً من المواضيع ، بل نراه يقوم بتناول الموضوع الواحد في أكثر من مكان ، وعدة مرات بشكل موجز أو واسع .



الصفحة الأولى من المخطوط

في مطلع الكتاب تعرض المصنف الى تعريف « الكسب » فقال : الاكتساب « تحصيل المال بما يحل من الأسباب » وهنا تحدث بشكل عام عن جوانب الاكتساب وضرورة القيام به ، كما بين أنواع المكتسبات بشكل عام ، ودعم ما ذهب اليه بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مبيناً أن لفظ « الاكتساب » بشكل عام يتناول المال ، ولكن الانسان قد يكسب أشياء كثيرة غير المال منها ما يفيد بها نفسه ، ومنها ما يضرها به ٠

ان العصر الذي عاش فيه محمد بن الحسن الشيباني قد تميز بالصراعات بين عدة تيارات دينية وفكرية ، فقد شهد هذا العصر محاولات الديانات التي كانت موجودة قبل الاسلام للعودة الى النشاط بشكل صريح ومباشر أو شكل غير مباشر ، وكان من أهم هذه الديانات « الديانة المنانية »

التي جاء بها ماني في القرن الثالث للميلاد ، والتي مزج فيها بين تعاليم الزرادشتية والمسيحية والغنوصية واليهودية وسواها ، وعرف نشاط هذه الديانة عند المسلمين باسم حركة الزندقة ، وحاربت الزندقة ضد الاسلام بشكل مباشر ، أو عن طريق الشعوبية ، أو بواسطة ايجاد حركة زهد منانية المحتوى ، اسلامية المظهر ، سلبية السلوك ، تريد انهاء الحياة بالغاء العمل والكسب ، وبالأخذ بعدم الحركة والخمول الى غير ذلك ٠٠٠

وقد تجرد عدد كبير من علماء العرب للرد على « المنانية » والتصدي لما قدمته بشكل مباشر أو غير مباشر من أفكار ، ويمكن أن ننظر الى كتاب الكسب ومشكلة المحرض على تصنيفه من هذه الزاوية ٠

روى المصنف في مطلع الكتاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلب الكسب فريضة على كل مسلم كما أن طلب العلم فريضة » وبين بشكل فيه نظرة اجتماعية واسعة قائمة على المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية فقال : طلب الكسب يمكن من أداء الفرائض بقوة البدن ، لأن الكسب يجلب القوت ، ولتحصيل القوت طرق هي : « الاكتساب ، أو التغالب أو الانتهاب » وبالانتهاب يستوجب الانسان العقاب ، وفي التغالب فساد ، وعلى هذا « في الكسب نظام العالم » « وفي تركه تخريب نظامه » ٠

ويتم الاكتساب بالكد والتعب ، وهنا تأتي منافع الاكتساب عامة وضرورية ، فالزارع يكسب لنفسه ، لكنه يفيد بانتاجه الجماعة ، والصانع يفعل نفس الشيء ، ولا يمكن أداء العبادات بدون كسب ، فالصلاة مثلا تقتضي الوضوء ، والمتوضيء يحتاج الى الماء ، والماء لا بد له من وعاء يوضع به ، كما أن المصلي يحتاج الى الثوب لأنه لا يمكنه أداء الصلاة عارياً ، وعلى هذا كان العمل للكسب فرضاً « لأن مالا يتأتى اقامة الفرض الا به يكون فرضاً في نفسه » ٠

والكسب يكون بواسطة أربعة أصناف من العمل هي « الاجارة ، والتجارة ، والزراعة والصناعة » وقد بين ابن الحسن أن بعض الناس يفاضل بين هذه الأصناف ، والبعض الآخر يراها متساوية ، ومسألة المفاضلة هذه يمكن أن نرى فيها صدى للصراع بين طبقات المجتمع أيام تصنيف الكتاب ٠

وقد أوضح الامام الشيباني بأن المجتمع بحاجة الى جميع الأصناف ،

ونظرا لذلك فالمفاضلة باطلة ، وهنا تعرض المصنف الى مسألة خطيرة ، وخاصة على صعيد الحرية المطلقة في المذهب الحنفي ٠

فأبو حنيفة مؤسس هذا المذهب كان بالأصل تاجراً ، ولهذا آمن بالحرية التجارية ، وبعدم جواز تدخل الدولة في أي جانب من جوانب العمل التجاري ، خاصة قضية التسعير حيث أن المسعر هو الله ٠

بعدما بين الامام الشيباني أن الكسب مباح ، لا بل هو فرض ، طرح سؤالا محتواه : الى أي حد على الانسان أن يعمل ليكسب ؟ فقال : ان البعض يرى أن الكسب مباح بلا حدود ، وقام هو برفض هذا الرأي ، وبين أن رأي جمهور الفقهاء آن الكسب ينبغي أن يكون فقط في حدود الحاجة والمنفعة الخاصة العامة ، وأوضح أن في انصراف الانسان في جميع أوقاته للكسب خروج على أوامر الله وما تحتاجه الحياة من توازن وتوزيع للجهود والوقت ، فالانسان مندوب للعبادة مفروض عليه التفرغ للعلم ، والاقبال على العلم فيه عظيم المنافع للناس جميعاً ٠

وفقط « الكسب بقدر ما لا بد منه فريضة » وما تجاوز الحاجة يغدو جناية ، وما لا بد منه هو تأمين الكفاية للنفس والعيال والأهل ، بما يقيم الأود ويسد الحاجة ، ويزيل الدَّين ، وفي هذا المقصد روى المصنف عن أبي ذر الغفاري قوله : « أفضل الأعمال بعد الايمان الصلاة وأكل الخبز ، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى » ٠

ان الانصراف المطلق الى الكسب أي تحصيل المال وجمعه فيه اخلال بنظام الحياة ، ذلك أن ثروات الدنيا تكفي فقط الناس جميعاً ، واحتكار البعض زيادة عن الآخرين فيه اخلال بالتوازن لا يجوز الرضى به والسكوت عنه ، وبعد هذا استطرد الامام الشيباني ليوازن بين الفقر والغنى ، فبين أن كثيراً من الناس يفضل الغنى والأغنياء ، وهنا أوضح أن هذا انحراف ذلك أن في الغنى طغيان ، واستشهد بقوله تعالى : « كلا ان الانسان ليطغى » (العلق : ٦) وقوله سبحانه : «الذين طغوا في البلاد»(الفجر: ١١) وقال : ان القناعة خير من الفقر والغنى « ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا الى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم كان خيراً لهم » ذلك أن « ما زاد على ما لا بد منه يحاسب المرء عليه » وفي جميع الأحوال في الكسب لتحصيل الغنى استرسال في اتباع الشهوات ، وصحيح أنه « زين للناس حب الشهوات » (آل عمران : ١٤) ولكن الذين « اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » (مريم : ٥٩) ٠

ان في هذا التفكير ليس عدول منهجي عظيم في فقه المذهب الحنفي وانما ريادة مبكرة في التشريع الاجتماعي ـ أو ما يدعى حالياً باسم النظرة الاشتراكية ـ وهي نظرة اسلامية أصيلة ، قدم المصنف بعض جوانبها الأخرى حين تحدث عن أن المجتمع لا بد من أن يوجد فيه من يحتاج الى اطعام وكساء وغير ذلك ، نظراً لعجزه لاقعاد السن له ، أو لمرض معوق ، وهنا قال كما يفترض على امة فداء من يقع من أفرادها في آسر الأعداء عليها « اطعام المحتاج في الوقت الذي يعجز عن الخروج والطلب » وأوضح ابن الحسن في هذا المجال أنه « لا يجوز للقادر السؤال ولا الأخذ » بل عليه الكسب ·

وبعد ما عرض لمسائل الكسب ، تعرض الامام الشيباني لقضايا الانفاق ، فالله تعالى بعد ما حض على الكسب ، أمر عباده بالانفاق بقوله : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » (البقرة : ٢٦٧) وهنا على الانسان عدم الاسراف في الطعام والاستكثار من المباحات والألوان ، فمن « الاسراف أن يضع المرء على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج اليه للأكل ··· ومن الاسراف أن يأكل وسط الخبز ويدع حواشيه ، أو يأكل ما انتفخ من الخبز ··· ومن الاسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام » ···

وكما يتصرف المرء تجاه الطعام عليه أن يفعل في الملبس والمسكن وغير ذلك مما يرتبط بالحياة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد « نهى آن يلبس نهاية ما يكون من الحسن والجودة في الثياب على وجه يشار اليه بالأصابع » بل أوصى بلبس الثوب الجيد وترك السيء لأن الأصل في الثوب ستر العورة ودفع أذى الحر والبرد ، وكان صلى الله عليه وسلم يهتم في عامة أوقاته بالنظافة والانسجام ، ويرتدي في المناسبات من آعياد ومواسم بعض الثياب الرائعة ·

وأثناء عرض المؤلف لمشكلة الطعام واللباس يمكن استخلاص بعض الصور الحضارية عن حال المسلمين في القرن الثاني للهجرة والتعرف الى أنماط من مشاكلهم آنذاك ، فهم مثلا كانوا يتجادلون حول بناء المساجد وزخرفتها والتأنق في المآذن مع مشاكل التجصيص للبيوت والمساجد ومشاكل استخدام الأثاث وأنواعه الى غير ذلك مما هو ثمين للغاية للمؤرخ الحضاري ·

وكما سلفت الاشارة ان جميع ما عرضه الامام ابن الحسن جاء من آحد الجوانب رداً على أصحاب تيار الزهد الأعجمي ، لم يكتف بهذا بل قام بالرد المباشر وذلك بعد عرض لأقوالهم وأفكارهم بقوله : « وقال قوم من جهال أهل التقشف وحماقى أهل التصوف : ان الكسب حرام لا يحل الا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة ... » .

ولقد جاءت ردوده المباشرة مفحمة اعتمد فيها النقل والعقل حيث قدم عدداً من الآيات والأحاديث النبوية التي تأمر بالكسب وتحض عليه ، ثم ذكر بأن الكسب هو طريق المرسلين ، ونحن قد أمرنا بالاقتداء بهم ، فآدم كان مزارعاً ، ونوح كان نجاراً ، وابراهيم كان بزازاً ، وداود عمل في صناعة الدروع ، وزكريا كان نجاراً ، وعيسى كان يأكل من أجر غزل أمه ، والنبي محمد عمل في التجارة وغير ذلك مثل رعاية الأغنام ، ثم ان الصحابة جميعاً كانوا يكسبون ، فأبو بكر كان بزازاً ، وكان عمر يعمل بالأدم (الجلد) وعثمان كان تاجراً ، وقد أجر عليّ نفسه أكثر من مرة ليكسب قوت يومه .

والانسان على الرغم من الاقرار بأن الله قد قدر رزقه ، ولاراد لقدر الله ، يفترض عليه الكسب ، فالمؤمن مطلوب منه الدعاء مع القدر ، والنبي كان يدعو الله لنفسه ولأصحابه بالمغفرة والجنة رغم معرفته بأنه سيدخل الجنة ، ومعلوم أننا مطلوب منا استعمال الدواء أثناء المرض ، رغم آن الشافي هو الله جلت قدرته .

وبعد هذا التفت الى أهل الزهد الأعجمي وخاطبهم بهزء وازدراء ونعى عليهم قبولهم طعام من أطعمهم من أهل الكسب ، كل هذا رغم آن الكاسب قد اقترف الحرام بكسبه ... المسألة ليست كذلك ، انها كسل وذل ، وسعي ليدخل الى الاسلام ما ليس منه .

★ ★ ★

ومن قراءة أواخر رسالة الكسب يلاحظ أن الامام ابن الحسن بعدما فرغ من تصنيف رسالته في « الكسب » أراد أن يصنف رسالة خاصة في الورع ، وبالفعل شرع بذلك لكن بعدما مضى في عمله قليلا « اعترض له داء فجف دماغه ولم يتم مراده » ...

بين التاريخ الجغرافي والجغرافية التاريخية للوطن العربي

مصطفى الحاج إبراهيم
الموجه الأول للجغرافية في وزارة التربية

مفهوم الوطن العربي : كان مفهوم الوطن العربي أو مصطلحه ، حتى عهد ليس ببعيد ، غريباً حتى على بعض المثقفين ، الذين لم يكونوا ليدركوا حدوداً له ، أو مضموناً واضحاً ! هل هو الجزيرة العربية ؟ أو المشرق العربي أو آسية العربية ، أو دول الجامعة العربية التي نما عددها فاصبح ثلاثة أمثاله منذ انشاء الجامعة عام ١٩٤٥ ٠٠٠؟

صحيح أن الوطن يعني أرضاً من جهة ، وشعباً معيناً يقطنها ، من جهة أخرى ٠ ولكن وعي حدود تلك الأرض كان من ثمرات السنوات القليلة الماضية ، مع تصاعد الوعي القومي العربي ، رغم أنه كان معروفاً منذ عهد بعيد ، أن هناك شعباً ، أو أمة تدعى العرب ، غير أن مدى انتشار تلك الأمة جغرافياً في الأرض ظل غامضاً ، وظلت معه حدود الوطن العربي غامضة أيضاً ومتباينة في درجة وعيها بين قطر عربي وآخر ٠ وساعد في اختلاط تلك الحدود ، وجود نطاق محيط بالوطن العربي ، يشارك سكانه العرب في الاسلام الذي كتابه القرآن ولغته العربية ، والذي عمل العرب أنفسهم على نشره فيما حولهم قريباً أو بعيداً ٠

لذا وحتى الحرب العالمية الأولى ، وكان قد مضى على النهضة القومية العربية الحديثة في المشرق العربي قرابة نصف قرن ، كان مسمى « البلاد العربية » هو السائد بين أهل المشرق ، لكنه كان قاصر المدلول ٠ ففي المراسلات المتبادلة بين شريف الحجاز حسين ، نائبا عن العرب ، وبين بريطانية الممثلة لدول الحلفاء ، كانت حدود البلاد العربية ، المطالب

★ لا مجال هنا لشرح قد يقتضي الاسهاب لمدلولي التاريخ الجغرافي ، والجغرافية التاريخية المختلفين ، ويكفي ان اقول هنا ان البحث محاولة للجمع بين النظرتين : الجغرافية والحضارية ، للوطن العربي ٠

باستقلالها ، تشمل فقط جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ؛ اذ جعلت حدودها المحيط الهندي جنوبا ، وجبال طوروس شمالا ، والبحر المتوسط غرباً ، وجبال زاغروس شرقاً • وهكذا تركت افريقية العربية بكاملها خارج الحدود المقترحة ، وعلى الأقل منها وادي النيل (مصر والسودان)، وأقطار المغرب العربي •

زد على ذلك أن الثورة العربية الكبرى على العثمانيين ـ وفي اطار العزلة التي كانت مفروضة على الأقطار العربية المختلفة ـ لم تلق صدى تجاوب كبير في تلك الأقطار الواقعة في افريقية • ومرد ذلك الى الاختلاط الآنف الذكر بين ما هو عربي وما هو مسلم • ولذا ظل ما وجد من تعاطف محصوراً في بعض الأوساط المستنيرة ، حتى أننا وجدنا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهزيمة الدولة العثمانية ، وبين عرب مصر والمغرب العربي ، من ينشد لمصطفى كمال أتاتورك « يا خالد الترك جدد خالد العرب » • ويبدو أنه لم يكن قد وصل الى علمهم أو وعيهم ، أن ذلك الرجل كان من غلاة المتعصبين ضد العرب في جمعية الاتحاد والترقي ، والمخطط للطغيان على الحدود العربية في كيليكية والجزيرة العليا ، والخالع عن نفسه رداء الحضارة الاسلامية ، لأن نسيجه كان عربياً •

ورغم مرور وقت غير قصير على ذلك العهد ، فما زالت آثار الاختلاط قائمة بين ما هو عربي ، وما هو مسلم ، لدرجة أن العربي اعتبر مسلماً ، والمسلم عربياً في كثير من الأقطار العربية ، وحتى الأجنبية •

أما في مجال المصورات الجغرافية للوطن العربي ، فكانت تعكس من قريب أو بعيد الأوضاع آنفة الذكر ، فتختلط مع خرائط العالم الاسلامي• ويجدر التنويه هنا بالجهود العلمية والتربوية التي بذلك في سورية ، على مستوى التعليم الجامعي وما قبل الجامعي ، لوضع الملامح الأولى لمصور حدود الوطن العربي خلال الخمسينات من هذا القرن ، وفي نطاق انبعاث الوعي القومي العربي ، والذي جرى تبنيه في الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر ، ثم أخذ ينتشر الى الأقطار العربية الأخرى بدرجات متفاوتة من الوعي ، • ولذا فما زال مطلوباً من المؤسسات القومية والسياسة في الوطن العربي ، اصدار مصور معتمد للحدود العربية ، ما دام الهدف القومي الرئيسي للعرب اقامة وحدة عربية شاملة ، في نطاق دولة عربية كبرى • نقول ذلك لأننا ، حتى هذا اليوم ، نجد بعض الخرائط الخاصة بالوطن العربي لا تدخل موريتانية والصومال واريترية ضمن

حدود ذلك الوطن ، مع أن الأولى والثانية دخلتا الجامعة العربية ، وكثير من تلك الخرائط يتجاهل أيضاً أن مناطق الجزيرة العليا وكيليكية والاسكندرونة وعربستان « الأحواز » ، كلها واقعة ضمن حدود الوطن العربي ٠ ونسي العرب تاريخهم الذي يؤكد أن أهم مدن الجزيرة العليا وكيليكية ، مثل مرعش وطرسوس والمصيصة والهارونية وديار بكر ، وغيرها ، كان أجدادهم قد أسسوها لحراسة التخوم ، التي كانت حمايتها احدى الواجبات الأساسية للدولة العربية ، سواء في المشرق أم المغرب ٠

من هنا كان الهدف الأساسي لهذه الدراسة القاء أضواء على الحدود العربية عبر المكان والزمان ، على أساس من المعطيات العلمية ، لأننا نعتقد أن هذه الدراسة للحدود تقدم الاطار الضروري لجغرافية الوطن العربي وتاريخه ، كما تجعل مفهوم الوحدة أرسخ جذوراً ، اذ يستمد نسغه من تراب الأرض وحضارة الانسان في هذا الجزء الخطير من العالم ٠

حدود الوطن العربي :

سوف لا تنظر الى الحدود من حيث كونها خطوطاً مرسومة على الخرائط السياسية ، بل معالم وجود طبيعي وثقافي حضاري ، أسهمت في تكوينه عبر التاريخ ـ بمفهومه الزمني الواسع ، أي تاريخ الأرض ، وليس بمفهومه التاريخي الضيق ـ مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التي يمكن أن تقدم تفسيراً لكثير من الأمور الثقافية الغامضة للمنطقة العربية ، لا انطلاقاً من مذهب سياسي أو احساس عاطفي ، بل من وقائع جغرافية وتاريخية موضوعية ، كان مسرحها الأربعة عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة التي تشكل المساحة الراهنة للوطن العربي ٠

١ ـ العوامل الطبيعية :

لسنا من أنصار نظرية الحتم الجغرافي التي تجعل الانسان أسير العوامل الطبيعية ، ولكن يلاحظ ، من خلال التاريخ الجيولوجي المتأخر للرقعة العربية ، وما رافقه من تحولات في الأرض وفي المناخ ، ان هذين العاملين لعبا الدور الممهد للمسرح البيئي الذي نشط فيه الانسان حضارياً في المنطقة ٠

آ ـ ظهور الأرض الحادة أو الحدود الجغرافية : وقد حدثت نتيجة للتطورات الجيولوجية التي حدث معظمها في عصور سابقة لظهور الانسان (الذي لا يرجع وجوده حسب المعلومات الأخيرة الى أكثر من ثلاثة

ملايين عام) حيث توافر للعتبة القديمة المنبسطة التي تتألف منها أرض الوطن العربي اليوم ، والممتدة من هضبة ايران شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً ، اطار جبلي وبحري في معظم الجهات ، في تناسق وتكامل ملفتين للنظر في مثاليتهما ٠ ففي الشمال والشمال الغربي يمتد البحر المتوسط من مضيق جبل طارق حتى خليج مرسين، حيث تؤلف جبال طوروس، في الشمال منه ومن سهول كيليكية الساحلية مغلاقاً على شكل قوس يفصل بين الأناضول وباقي العتبة العربية ، يتعذر اجتيازه الا من الممرات المسماة بوابات كيليكية ٠ ثم تستمر أقواس الجبال الطوروسية حتى منطقة كردستان ، بصورة تحجز شمالي بلاد الشام والعراق عن الأناضول وهضبة أرمينية ، ويكتمل القوس الهلالي الشكل ، بامتدادات جبال زاغروس وفارس ، بين العراق والخليج العربي من جهة ، وايران من جهة أخرى ، حتى نبلغ مضيق باب السلام (هرمز) حيث تنغلق الجبال من جديد على الساحل وتصبح مياه المحيط الهندي حداً طبيعياً من الجنوب الشرقي للوطن العربي ٠

تلك العوائق الجبلية آنفة الذكر شكلت في الواقع حداً قلما تعدته الدول أو الامبراطوريات التي قامت عند التخوم الشمالية للوطن العربي ،



الوضع التضريسي العام للوطن العربي

أو التي بلغته في توسعها من الجنوب الى الشمال أو من الشمال الى الجنوب، مثل الآشوريين والبابليين والتدمريين والدولة العربية الاسلامية ، وما تفرع عنها ، وحتى الدول الخارجية الأجنبية مثل الحثيين ينطبق عليها الشيىء نفسه • وعندما تعدى العرب المسلمون هذه الحدود في نشر دعوتهم ، لم يستقروا وراءها الا لفترة قصيرة ، وبأعداد غير كبيرة •

أما من الغرب ، فالمحيط الأطلسي ما زال يشكل الحدود منذ أواخر الزمن الجيولوجي الثالث ، من مضيق جبل طارق (رغم أن هذا المضيق أحدث عهداً) الى مصب نهر السنغال ، الذي ينبىء ببداية المنطقة المدارية، الى الجنوب من منطقة الصحراء الكبرى الافريقية •

أما الحدود الجنوبية للوطن العربي في القارة الافريقية ، فهي ذات وضع خاص، اذتتأثر بالدرجة الأولى بالوضع المناخي الذي ساعد على خلق شريط انتقالي بين منطقة الصحراء الكبرى والمنطقة المدارية ، ويتمثل في نطاق نباتي سهوبي أو سبسبي ، جاف ، ممتد من مصب نهر السنغال الى سفوح الهضبة الحبشية بحيث يطوقها من الغرب والشمال والشرق باعتبارها حداً أو عقبة تضريسية وعرة وشاهقة ، والقسم الأكبر من هذا النطاق الواقع في الاقليم السوداني الافريقي ،يدعى الساحل ، تشبيهاً له بالحد الفاصل بين البر والبحر ، لأنه هنا يفصل بين الأرض الصحراوية الجرداء ، والنطاق المداري الأخضر • ولا تخرج حدود الساحل عن هذا النطاق الا في حوض النيل حيث تندفع جنوباً مع النهر العظيم وروافده باعتبارها طريق اتصال وعبور ، حتى سفوح هضبة البحيرات الاستوائية ، وبذا اتصلت حدود سفوح هضبة البحيرات بحدود سفوح الهضبة الحبشية المذكورة آنفاً ، ويستمر خط الحدود مع السفوح الشرقية والجنوبية الشرقية لهضبة الحبشة حتى المحيط الهندي ، عند خط الاستواء ونهاية القرن الافريقي • وهنا يمكن القول أن الصحراء تلتقي عند هذا الحد بالمنطقة الاستوائية ، وهي التي تفسر اندفاع الحدود العربية حتى هذا الجزء النائي نحو الجنوب •

هذا النوع الافريقي من الحدود العربية ذات الطابع العشبي الجاف سهلت على سكان الصحراء من القبائل العربية التعمق في القارة جنوباً في اثر حيواناتهم من الجمال والأغنام والخيول ، حتى اذا اشتدت عليها الرطوبة المدارية أصبح اعتمادهم على الأبقار والماعز ، الى أن يبلغوا حد الغابة المدارية الاستوائية •

أما البحار الداخلية العربية التي تمتد بشكل أذرع داخل الأرض

العربية ، فتشكل عنصراً من عناصر الحدود العربية • وقد أخذت طابعها العربي عبر العصور ، رغم التسميات التاريخية المختلفة التي أطلقت عليها ، كالخليج العربي (الذي أطلق عليه العرب القدماء اسم خليج فارس أو بحر فارس ، باعتباره مؤدياً الى تلك البلاد وليس باعتباره جزءاً منها) ، والبحر الأحمر الذي أطلق عليه اليونانيون قبل الاسلام اسم « الخليج العربي » أيضاً • ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك ، لأن القبائل والشعوب العربية ما زالت تنتشر على شواطئها منذ عصور مغرقة في القدم• ويزيد الأمر وضوحاً أن تلك البحار كانت في الماضي بحيرات أو بحاراً داخلية مغلقة باليابسة ، وكان الانسان يعبر حولها من مكان الى آخر على معابر برية ، أو برازخ ، كما في باب المندب ، وباب السلام (مضيق هرمز) ، وبرزخ السويس •

ب ـ توافر شروط فلكية مناخية مميزة : يمتد الوطن العربي حالياً بين درجة عرض ١° جنوب خط الاستواء ودرجة عرض ٣٨° في شماله ، ويقع في غربي الكتلة القارية للعالم القديم (أوراسية وافريقية) ضمن عروض متوسطة هامشية بين منطقتين مناخيتين رئيسيتين : المعتدلة في الشمال والحارة في الجنوب ، مما جعله يتعرض في فترة العصر الجليدي الى حادثة مناخية هامة ، لا سيما في الفترة الواقعة بين عشرين وعشرةآلاف عام قبل الميلاد • ففي الوقت الذي كان فيه الجليد يغطي نطاقاً واسعاً من شمال قارة أوراسية وأواسطها حدث نوع من التزحزح في الأقاليم المناخية الكبرى للأرض ، وأصبح المناخ المسيطر على منطقة الوطن العربي شبيهاً بالمناخ المحيطي الحالي المتمثل في أوربة الغربية والوسطى • ويدعو الجيولوجيون العصر الذي ساد فيه هذا المناخ على العروض الوسطى بالعصر المطير ـ المقابل للعصر الجليدي في العروض العليا ـ حيث كان فيه المطر مدراراً والأودية الجافة الحالية أنهاراً والسهول والهضاب مروجاً وسفوح الجبال غابات والمنخفضات بحيرات • والى ذلك العصر المطير يرجع الماء الباطني الذي اختزن في المناطق الصحراوية الراهنة والذي يدعى أحياناً بالماء الجيولوجي ، وقد دلت التحريات على أن سبعة عشر ألف عام انقضت مثلا على المياه التي تختزنها صحاري شبه الجزيرة العربية ، كما أكد ذلك الوضع المناخي والمائي العثور في قلب الصحراء الكبرى على بقايا القواقع والأحياء المائية التي كانت تعيش في مياهها العذبة ؛ كالتماسيح وأفراس البحر •

وما أن بدأ الجليد بالذوبان والانحسار قبل نحو عشرة آلاف عام

نتيجة ارتفاع درجة الحرارة حتى وجدت منطقة الوطن العربي ربيعها الأول ، حيث قلت الأمطار وزاد الدفء ، وبدأت بوادر الجفاف الأولى التي تطورت بالتدريج الى الوضع الراهن حيث تحولت الأودية الجرارة المطرية النظام في داخل الوطن العربي الى أودية جافة سيلية النظام ، وجفت البحيرات بالتدريج وتحولت عذوبتها الى ملوحة ، وتشكلت سهول الهلال الخصيب في أوسع مدلول لها من شمال الخليج العربي حتى شواطىء دلتا النيل ، كما تشكلت السهول الوسطى والدنيا من حوض النيل ، وتراجعت الخلجان البحرية الضحلة وحلت محلها السهول الساحلية والسهول الدلتاوية ، وتقهقرت الغابات وجفت السباسب العشبية ، وسادت في البقاع الداخلية الكثبان الرملية ، وانسحبت قطعان الحيوانات نحو الجنوب تحت تهديد الجفاف ، وأخذت ترتسم المعالم المميزة الراهنة لجغرافية الوطن العربي ، وأصبح الانسان في هذه المنطقة الواسعة على أعتاب عصر جديد بعد أن واجه أكبر عملية تحد بيئي ، وهو يشهد تحول اقليمه من بيئة الغنى والوفرة الى بيئة الصعوبات الناشئة المتزايدة ، وأصبح الجهد البشري هو العنصر الأول في البيئة الجديدة ٠

٢ ـ العوامل البشرية :

آ ـ **الثورة الانتاجية** : في ذلك الوقت بدأ التحول الحاسم في حياة المنطقة العربية ؛ فالانسان المبعثر الذي كان يعيش في العراء على الجمع والالتقاط وعلى الصيد والقنص أخذ تحت تهديد الجفاف يقترب من المناطق الأوفر حظاً بشروطها المائية ؛ وهي ضفاف الأنهار الكبرى التي تتغذى منابعها من مناطق خارجية كالنيل ودجلة والفرات ، والتي تمثل العمود الفقري لسهول الهلال الخصيب ٠ وغير بعيد عنها أيضاً استقر الانسان عند سفوح الاطار الجبلي الخارجي للوطن العربي سيما في الشمال الشرقي منه ، اعتباراً من الألف الثامنة قبل الميلاد ٠ وفي الوقت الذي كان يتم فيه هذا التجمع والاستقرار البشري بعد التبعثر والتنقل الدائم بدأت حياة حضارية جديدة ، يمكن اعتبارها الثورة الانتاجية الأولى في التاريخ ، وهي حياة الزراعة والرعي أو تربية النبات والحيوان ، عند مواقع جديدة استقر فيها الانسان مثل أريدو ـ عبيد ـ أوروك ـ علي كوش ـ تل الصوان ـ جرمو ـ حسونة ـ أم الدباجية ـ (في الذراع الشرقي للهلال الخصيب) ومريبط ـ وتل الرماد ـ النطوف ـ أريحا ـ البيضة ـ الفيوم (في الذراع الغربي للهلال الخصيب) ٠

وتلا تلك المرحلة من نشوء القرى الزراعية اقامة المدن الكبرى في

الألف الثالثة قبل الميلاد : أور ـ لكش ـ سوزا ـ اشور ـ ماري ـ ايبلا ـ حماه ـ جبيل ـ مجدو ـ بيسان ـ عراد ـ تل ايراني ـ منف . وبعد ذلك بدأت تتشكل الامبراطوريات الكبرى في التاريخ : اكاد ـ عيلام ـ بابل «العمورية» اشور ، في الذراع الشرقي للهلال الخصيب، وايبلا « العمورية» وامبراطورية الفراعنة في الذراع الغربي للهلال الخصيب . هذا عدا المراكز الحضارية الأخرى المتفرقة عند سفوح الجبال والهضاب أو عند المنافذ الجغرافية البرية والبحرية ، و مواقع الانتقال بين منطقتين انتاجيتين متمايزتين ، أو في السهول الصغرى ذات الترب الزراعية الغنية . ففي هذه المراكز قامت حضارات اليمن وبلاد الشام الداخلية والساحلية والمغرب ، وبلاد بونت ، وكوش .

ب ـ الثورة العمرانية ورسوخ الهوية الثقافية : أدت الثورة الانتاجية في مجالات الزراعة وتربية الحيوان وما رافقها من استقرار ، الى قيام ثورة في العمران البشري ، هي الثورة الحضارية الأولى في تاريخ البشرية ، تمثلت في نهوض صناعة الانشاء والبناء والأدوات ، ولغات التعبير والكتابة ، والعلم والفنون الأخرى من هندسة وفلك وتشريع ، وتأكد من خلالها الوجود الثقافي العربي القديم في كامل المنطقة التي يشغلها الوطن العربي اليوم ، وارتسمت بالتالي معالم حدود ثقافية مطابقة للحدود الطبيعية التي سبقت الاشارة اليها ، حيث أصبح الاطار الجبلي حدا فاصلا بين اللغة العربية (السامية) ومجموعة اللغات الهندية الأوربية الواقعة فيما وراء ذلك الاطار . ويدل غنى اللغة العربية التي تمثل الجذر اللغوي لجميع اللهجات التي قامت فوق أرض الوطن العربي في الماضي ، على صلتها الوثيقة المزمنة بالبؤر الثقافية آنفة الذكر ، ان لم تكن هناك بؤر حضارية أخرى مندثرة لا سيما داخل الجزيرة العربية نفسها حيث لم يكشف النقاب عنها بعد . كما يؤكد ذلك الغنى من جهة أخرى التطور المستقل للغة العربية عن اللغات الهندية الأوربية واللغات الأخرى ، التي ظلت تقتبس منذ عصور بعيدة أساليب الكتابة المعتمدة في المنطقة العربية سواء منها المسمارية والآرامية « السريانية » والكنعانية « الفينيقية » والسبئية ، قبل الاسلام، والعربية بعده، حيث استخدمت الأبجدية العربية لكتابة الفارسية والتركية والأردية ، وبذلك امتد أثرها شمالا وشرقاً حتى الهند وتخوم

الصين ، بل استعيرت مفردات العربيــة بنسبة عاليــة لاستعمالها في تلــك اللغات • ولم يقتصر الأمر على ما وراء الحدود الشرقية للوطن العربي ، بل حدث شيىء مماثل ابان الدفع الحضاري العربي غرباً حتى بلغ حــد كتابة اللغة الاسبانية اللاتينية الأصل بأحــرف عربية ، كمــا اقتبست الاسبانية من العربية نسبة عالية أيضاً من مفرادتها تقدر بنحو خمس عشرة بالمائة • أما في القارة الافريقية فلم تواجه العربية لغة أجنبية مكتوبــة الا في حــالات نادرة ، كمــا في الحبشة ، ولــذا ظلت علــى طول افريقيــة السودانية والشرقية لغة العلم والسياسة والادارة ، وتطابقت في حدودها مــع حــدود اندفــاع القبائــل الرعويــة العربيــة جنوباً علــى عــرض القارة بين مصب السنغال ومصب الزمبيزي عبر القرن الافريقي •

وان انتشار الاسلام السريع يدل على أنه وجد المسرح ممهداً أمامه من الناحية الثقافية فوق رقعة الوطن العربي سواء في المشرق أو المغرب ، حيث كــان الطراز الاجتماعــي الرعوي ـ الزراعي سائداً لــدى البربر والعناصر المغربية الأخرى سيادته لدى عرب المشرق ، هذا اضافة الــى الأصول السلالية المشتركة للعرب وللبربر • ومن ذلك يمكن أن نفهــم كيف أن العرب المسلمين أمرّوا عليهم قائداً بربرياً لفتــح الأندلس هــو طارق بن زياد ولما يكد يمضي قرن من الزمن على ظهور الاسلام ، وكيف ازدهرت قرطاجة ، الكنعانية الأصل الفينيقيــة المنبت ، وسط البيئــة البربرية في الشمال الافريقي ، ولماذا رد ابن خلــدون مؤرخ المغــرب في القرون الوسطى أصول قبيلة من أكبر قبائل البربر ، وهي قبيلة صنهاجة ، الى جنوبي الجزيرة العربية •

وتأتي أهمية الاسلام الثقافية للعرب لا في تقديمه نظاماً متكامــلا للحياة الانسانية فحسب ، بل في ترسيخه الثقافة العربية في مختلف المجالات، وسيادة اللغة العربية ، التي نزل بها القرآن الكريم • وأدى انتشار الاسلام خارج رقعة الوطن العربي الى تكوين حزام وقائي للمنطقة العربية كان بمثابة ردء لها ، خفف من أخطار التسرب الثقافي الأجنبي عبر الحدود بعد الاسلام ، مثلما خففت اللغة والثقافة الآرامية من تلك الأخطار قبل الاسلام ، وعلى الأخص في مناطق الاحتكاك القديمة مثل ؛ عيلام قديماً ـ عربستان ، الأحواز حديثاً ، الكاشيون قديماً ـ الأكراد حديثاً ، أورارتو قديماً ـ الأرمن حديثاً ، الحثيون والبيزنطيون قديماً ـ الأتراك حديثا ، ولم تمنع الرقعة البحرية المحيطة بالوطن العربي شمالا من الاحتكاك بين سكان الوطن العربي والشعوب الأجنبية ، وعن طريقها حدث أخطر خرق

للحدود الثقافية العربية في العصور الحديثة حيث لم يكن يوجد مثل ذلك الحزام الواقي ، ونقصد به الصهيونيين في فلسطين والفرنسيين والايطاليين في المغرب العربي وليبية • وفي هذه الحالات حدث الغزو المباشر للأرض العربية على نطاق أوسع وأعمق مما حدث في عهود سابقة عندما وصل الفلسطينيون الى جنوب فلسطين الساحلي ، واليونان والرومان والفاندال الى سواحل افريقية العربية • ومن هنا فان الاستعمار الصهيوني في فلسطين الآن يمثل أكبر تحد واجهته المنطقة في تاريخها •

هذا ولما كان ما أشرنا اليه من تحولات أثرت في التاريخ العربي القديم والحديث يعود بقدر كبير الى موقع الوطن العربي وطرقه الطبيعية ، فاننا سنعمد الى تحليل أهمية هذا الموقع ومعابره كيما تكتمل عناصر الصورة في ماضي هذا الوطن وحاضره •

أهمية موقع الوطن العربي (جغرافياً وحضارياً) :

يعتبر عامل الموقع أبرز العوامل التي أثرت في تاريخ المنطقة • فأرض الوطن العربي جسر عظيم بين القارات الثلاث ، آسية وافريقية وأوربة ، متعدد المعابر والمنافذ ، ظلت له وظيفة مستمرة عبر التاريخ الطويل لأنها مستمدة من موقعه الطبيعي ، رغم أن تلك الوظيفة اتخذت أشكالا ودلالات مختلفة حسب تغير الشروط البشرية فيه ومن حوله• ويمكن تحليل عناصر الموقع المؤثرة أولا ، والطرق والمنافذ ثانياً ، على النحو التالي :

١ ـ الموقع الجغرافي وآثاره :

ان امتداد الوطن العربي كما سبقت الاشارة من المنطقة الاستوائية (درجة ١° جنوب خط الاستواء ، الى درجة ٣٨° شماله) أدى الى وقوعه ضمن المنطقتين الحارة والمعتدلة الحارة الشمالية ، وعلى عدد من درجات العرض يؤلف نصف عروض المنطقة المعمورة من نصف الكرة الشمالي • ورغم أن الصحراوات الحارة تشغل قسماً كبيراً من تلك العروض ، الا أن الشروط الطبيعية للعيش في الصحراء على حرجها مكنت من استغلال بواديها وأوديتها وجبالها وحمادها ودهنائها ، بوسائل ملائمة تكيفت مع تلك الشروط ، اذ كانت تعتمد على نوع حيوان مختار لبيئة معينة ، وعلى مزروعات يتفاوت اعتمادها على الري أو على المطر مستفيدة من أحواض نهرية توافرت لها شروط الماء والتربة الغنية ، والجو الصالح للانتاج في جميع الفصول • كما وظف موقع الصحراء ـ ضمن الموقع العام

للوطن العربي وسط اتجاهات الطرق الطبيعية للنقل والتجارة براً وبحراً في الوصل بين مراكز النشاط البشري في الجنوب والشمال أو في الشرق والغرب ضمن نظام اتخذت فيه واحات الصحراء قواعد على طول الطرق، حيث برز التعاون والتناسق بين الحضر أصحاب التجارة وأهل المدر، وبين البدو أصحاب الجمال والخيول أو أهل الوبر، سادة الصحراء وخريطوها الذين يتولون نقل البضائع وحماية الطرق العابرة . وكنا نرى الجمل يتوقف حيث تبدأ السفينة أو يبدأ حيث تتوقف . ولم يكن عبثاً ما قيل عن الجمل من أنه سفينة الصحراء عند العرب، اذ أن البحار العربية أيضاً وظفت خير توظيف في خدمة البيئة العربية، ليس في النقل فحسب بل في استغلال مواردها من الأسماك واللؤلؤ والمرجان وغيرها، في انسجام تام مع حياة البداوة الرعوية والواحة الزراعية في قلب الصحراء . وكثيراً ما كنا نرى البدوي أو ساكن الواحة ممن يقودون الجمال يستنبتون ثمرات الأرض في موسم من العام ويقودون مركباً أو يستخرجون ثمرات البحر من الأعماق في موسم آخر في رحلة صيف وشتاء أخرى، قبل أن يعودوا أدراجهم محملين بها الى داخل الصحراء . والشواهد على دور البحر في حياة العرب، الذين عرفوا بأنهم من سكان الصحراء، كثيرة في القرآن الكريم . ولكن الذين كتبوا عن حياة العرب لم يدرسوا ذلك النشاط المتنوع الوجوه الرائع التناسق .

لذا نستطيع القول أن البيئة العربية، على فقر قسم كبير من أجزائها استغلت استغلالا واسعاً، ولم يبق منها غير أجزاء محدودة من الصحراوات تفاداها الانسان ولم تشهد نشاطه بسبب كثرة رمالها وشدة جفافها، كالربع الخالي وبحار الرمال والعروق في الصحراء الكبرى .

وفي الواقع لو عدنا الى العوامل المؤثرة في تشكيل تلك الصورة آنفة الذكر لوجدنا، من الناحية الجغرافية، أن الوطن العربي يتألف من هضاب واسعة منبسطة قليلة الارتفاع تنتشر بينها الممار والسهول والمنخفضات والحفر التي تحتضن الأودية الكبرى والبحار الداخلية شبه المغلقة، مما يخرجه بصورة واضحة عن تضاريس آسية الصغرى والوسطى المعقدة العالية، كما يخرجه عن منطقتين أخريين معقدتين هما أدربة في الشمال، والمناطق المدارية الرطبة في الجنوب، وعما يصيب تلك المناطق من منخفضات جوية وأعاصير عنيفة عاصفة أو قاصفة، ويخرجه فوق ذلك أيضاً عن مناطق المياه المتجمدة . وهذا ما جعله يلعب دور الجسر السهل المكشوف الحر بين القارات الثلاث براً وبحراً وجواً .

ويمكن تبين ذلك من الصور التي التقطتها المركبات الفضائية أو الأقمار الصناعية لمجمل الكرة الأرضية حيث ترتسم عليها بحدودها منطقة الوطن العربي كنافذة بين السماء والأرض ، في حين تلف الأجواء الأخرى تلبدات الغيوم ومراكز الاضطرابات الجوية ٠

من هنا نعلم لماذا اصطرعت على هذا الموقع ، الذي أصبح موقعاً استراتيجياً من الطراز الأول ، جميع القوى الخارجية منذ القديم ؛ من حثيين ويونان ورومان وفرس ، حتى العصر الحديث الاستعماري الذي ظهرت فيه القوى الغربية الأوربية والأمريكية المعروفة ٠ فجميعها سعت وتسعى للسيطرة على الطرق والمنافذ من جهة ، والثروات الباطنية ، ولا سيما النفطية منها ، التي دخلت كعامل رئيسي جديد بين العوامل المستجدة الأخرى ، والتي كان أهمها بروز المعسكر الاشتراكي على مسرح السياسة العالمية في مواجهة المعسكر الرأسمالي والامبريالي ، وكون الحدود الشمالية الشرقية للوطن العربي لا تبعد أكثر من أربعمائة كيلو متر عن حدود الاتحاد السوفييتي رأس المعسكر الاشتراكي ، بالاضافة الى تحرر المغرب العربي الكبير الواقع على أطراف الجناح الجنوبي للمعسكر الرأسمالي الغربي ٠ ونضرب أمثلة على تلك الأهمية الاستراتيجية من أحداث هذا القرن العشرين :

آ ــ المعارك الفاصلة التي دارت رحاها فوق أرض الوطن العربي ؛ كمعارك قناة السويس في الحرب العالمية الأولى بين العثمانيين والانكليز ، ومعركة العلمين ومعارك ليبية وتونس بين دول المحور والحلفاء، الذين حولوا الوطن العربي بعدها الى قاعدة جغرافية وبشرية للهجوم على الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية الايطالية ، واستعانة الحلفاء بالكتائب المغربية العربية للاستيلاء على المواقع الحصينة في زحفهم شمالا نحو روما بعد أن فشلت جيوشهم في الاستيلاء عليها ٠

ب ــ الحرص الدائم للقوى الاستعمارية والامبريالية على اقامة القواعد البرية والبحرية والجوية على امتداد الوطن العربي أو من حوله بين المحيط والخليج ، بغض النظر عما ألغي منها أو بقي أو جُدد ؛ مثل القواعد الأمريكية السابقة في المغرب الأقصى وطرابلس الغرب والظهران ، والقواعد الأخرى كمصيرة في عمان ، وقاعدة الاسكندرونة البحرية ، والقواعد البريطانية في مالطة وطبرق وقناة السويس وقبرص وعدن والبحرين والحبانية ، والقواعد الفرنسية في وهران وبنزرت والصحراء الجزائرية وجيبوتي ٠ ويمكن اعتبار انشاء دولة اسرائيل فوق أرض

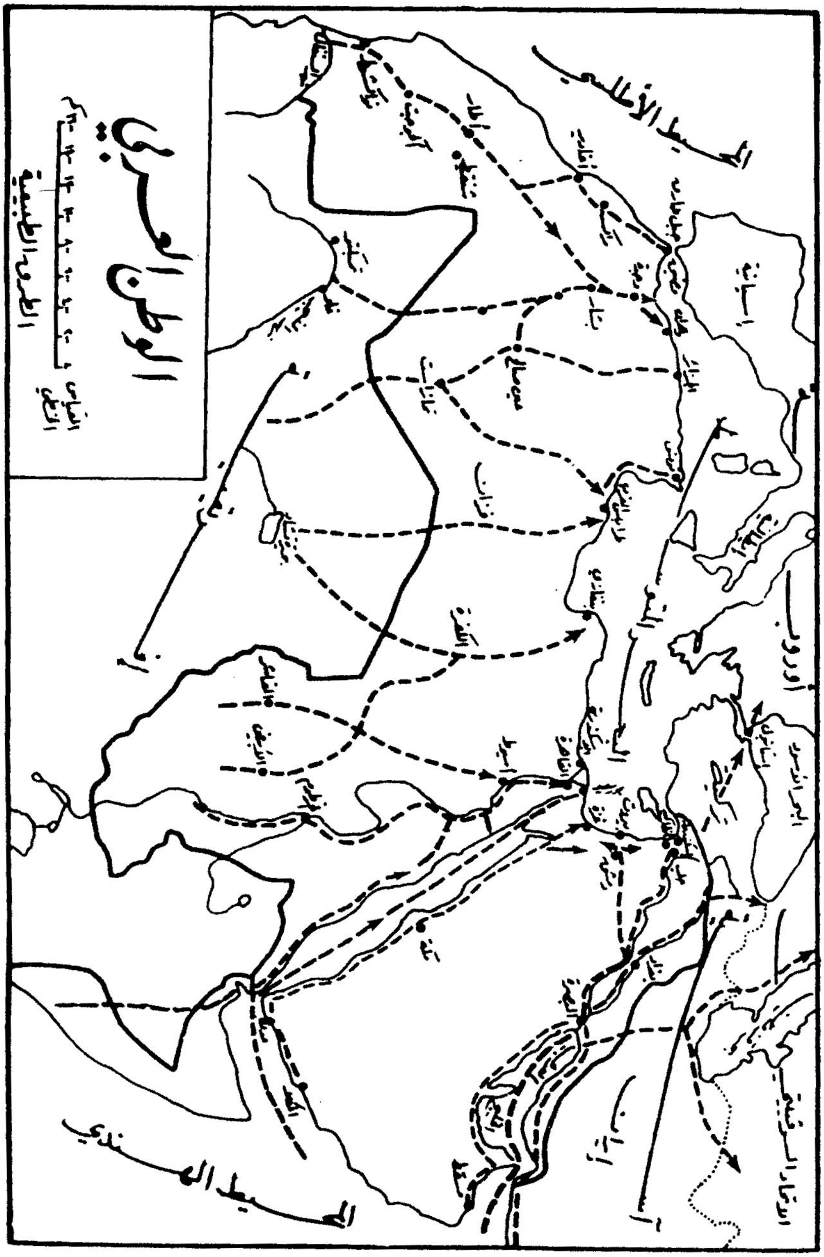
فلسطين احدى تلك القواعد الكبرى للقوى الاستعمارية وفي طليعتها الولايات المتحدة التي ما تزال تبحث عن قواعد جديدة وتسهيلات تستهدف ترسيخ وجودها الاسرائيلي الأمريكي ، وخاصة بعد اتفاق الصلح المنفرد بين مصر واسرائيل وأحداث ايران وافغانستان ، حيث عادت للسعي للفوز بقواعد جديدة في منطقة قناة السويس وسيناء ومصر العليا والصومال وكينية وعمان ، التي تشرف على مضيق باب السلام (هرمز) ، والبحرين. وهكذا نرى أن المسرح هو هو لم يتغير.. الأرض العربية، والهدف هو هو لم يتغير .. تثبيت الوجود الأجنبي والاستعماري الصهيوني في الوطن العربي رغم اختلاف الأساليب واختلاف الممثلين.

٢ ـ الطرق الطبيعية :

وهي تلقي أضواء على مجمل الموقع الوظيفي للوطن العربي ، تخطه بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وكان دورها بارزاً في جميع العصور ، وبرز فيها التكامل بين الطرق البرية والبحرية والنهرية ، سواء في الاتجاه أو المنحى أو التفرع أو الالتقاء. وأهم تلك الطرق من الشرق باتجاه الغرب :

آ ـ طريق الخليج العربي ـ ما بين النهرين « دجلة والفرات » :

ومحور اتجاهه جنوب شرقي ـ شمال غربي ، واصلا بين أقطار المحيط الهندي « بحر العرب » وآسية الصغرى والبحر المتوسط ، عبر العراق وشمالي سورية. ويمثل مع تفرعاته مدخلا الى الجزيرة العربية وايران والقوقاز وأوربة الجنوبية الشرقية. وقد كان هذا الطريق ، البحري ـ النهري ، وما زال ، أهم الطرق المطروقة في العالم ، وأكبر ملتقى للقوافل البرية والبحرية والنهرية (كل ثلاث دقائق تمر باخرة في مضيق باب السلام « هرمز ») ، وظل محط الأبصار عبر العصور ، وبوتقة حضارية أينعت ثماراً رائعة في العصور القديمة والوسطى كما أشرنا ، وفي العصر الحديث أصبح طريق القطارات والسيارات وأنابيب النفط ، وعليه يقع أقصر طريق بري بين أوربة والخليج العربي والمحيط الهندي. وقد حاول الألمان قبل الحرب العالمية الأولى جعله منافساً لقناة السويس التي يسيطر عليها الانكليز ، بل وضع مشروع قناة لربط الفرات بالبحر المتوسط ، بين مسكنة على الفرات وانطاكية على العاصي. وكان هذا التنافس أحد الأسباب التي دفعت الانكليز لاحتلال العراق في الحرب العالمية الأولى. وفي السنوات الأخيرة تزايدت أهمية هذا الطريق كطريق للسيارات ، بعد تعطل قناة السويس اثر العدوان الاسرائيلي ، واختناق الموانيء البحرية


الوطن العربي
الطرق الطبيعية
المحيط الأطلسي
المحيط الهندي
أوروبا

التي تنتهي اليها السفن القادمة من أوربة ، بسبب التطور الكبير في العلاقات التجارية ·

وقد عرقل من تطور هذا الطريق ، ضم تركية للجزيرة العليا وكيليكية ولواء الاسكندرونة في الشمال ، وضم ايران لعربستان وبعض جزر الخليج في أجزائه الجنوبية ·

ومن أبرز الأمثلة على الأهمية الاستراتيجية لهذا الطريق قيام الحلفاء، خلال الحرب العالمية الثانية ، بنقل ما زنته خمسة ملايين طن من العتاد والمؤن الى الاتحاد السوفييتي ، بين موانيء عربستان وشواطيء بحر قزوين وبلاد القفقاس · كما أنه مؤهل بصورة مثالية لنقل نفط الخليج العربي والعراق وسورية الى شواطيء البحر المتوسط وأوربة · وقد تم فعلا تمديد عدة أنابيب لنقل النفط من العراق خاصة الى الاسكندرونة وبانياس وطرطوس وطرابلس ، وكان حرياً بالكويت والعربية السعودية أن تمدد أيضاً أنابيب نفط جديدة ، لنقل كميات أكبر من نفطها الى البحر المتوسط ، ضمن استراتيجية عربية خاصة ·

ب ـ طريق البحر الأحمر ـ قناة السويس :

ويصل المحيط الهندي بالبحر المتوسط عبر البحر الأحمر وقناة السويس · وكان حرياً بالعرب أن يسبغوا عليه طابعاً عربياً داخليا لأنه يمتد بكامله داخل الأرض العربية ، بين شبه الجزيرة العربية والقرن الافريقي وحوض النيل · وهو مكمل للطريق الأول في اتجاهه من شرق البحر الأحمر مع سهول تهامة وحول خليج العقبة ، نحو جنوب بلاد الشام وسيناء ، حيث كانت تتم رحلات الصيف والشتاء بين الشام واليمن ، وحتى شاطيء البحر المتوسط · وفي غربه ينفذ الى طريق وادي النيل (بور سودان ـ القصير ـ السويس) المؤدي الى مصر والبحر المتوسط أيضاً ·

وقبل شق قناة السويس ، وقبل تسلط القوى البحرية الأجنبية على البحر الأحمر كان الطريق برياً · وكان البحر الأحمر يستعمل غالباً في النقل والانتقال بين شواطئه الشرقية والغربية · وكان النشاط كبيراً لدرجة أطلق معها اسم الصحراء العربية على الهضبة الواقعة بين وادي النيل والبحر الأحمر ، ثم غلب الطريق البحري خلال القرن التاسع عشر · وهو لم يقض على الطريق البري فحسب بل سدد ضربة قاسية لطريق رأس الرجاء الصالح البحري ، اذ يختصر ٥٥ ـ ٧٠٪ من المسافة بين أقطار المحيط الهندي من جهة ، وأقطار البحر المتوسط من جهة أخرى ، ونسبة

٢٤ ـ ٤٢٪ من المسافة بين الشرق الأقصى وأقطار المحيط الهندي ، وأوربة الغربية ٠

والدليل على الأهمية الاستراتيجية لهذا الطريق أن اغلاق قناة السويس بسبب العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ كان يكلف بريطانية وحدها خسارة قدرها عشرون مليون جنيه استرليني شهرياً ، في حين أن الفائدة التي كان يجنيها القطر المصري من القناة لم تكن تتجاوز عشرة ملايين جنيه استرليني شهرياً ٠ وقد تعرض هذا الطريق للتهديد المباشر باحتلال اسرائيل لفلسطين ومداخل خليج العقبة وسيناء وقناة السويس ، وتمديدها انبوباً كبيراً لنقل النفط بين ايلة وشاطىء البحر المتوسط في عسقلان بطاقة أربعين مليون طن ، ردت عليه مصر بتمديد خط أنابيب بين شاطىء خليج السويس وغربي الاسكندرية بطاقة مماثلة ، كما تحاول تعميق قناة السويس لاستقبال حاملات نفط متوسطة الحمولة رداً على منافسة طريق رأس الرجاء الصالح الذي تستخدمه ناقلات نفط عملاقة ، تصل حمولتها الى نصف مليون طن ٠

جـ ـ طريق وادي النيل :

وهو طريق طبيعي بين افريقية الاستوائية والشرقية والبحر المتوسط، وكان لهذا الطريق وظيفتان ؛ الأولى تجارية والثانية حضارية ، ففيه أينعت الحضارة المصرية القديمة ، ومنه ولج العرب قلب القارة حاملين ثقافتهم وتجارتهم قبل الاسلام وبعده ٠ وقد اتبع المستعمرون ومستكشفو القارة الافريقية الطريق نفسه ، الذي يعتبر رديفاً لطريق البحر الأحمر ـ المتوسط ، كما كان أحد الطرق الآمنة للحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، والحلقة الرئيسية في مشروع بريطانية القديم القاهرة ـ رأس الرجاء الصالح ٠

د ـ الطرق العابرة للصحراء الكبرى :

وتصل بين افريقية السودانية وشواطىء البحر المتوسط في اتجاه عام شمالي ـ جنوبي ٠ وهي تعتمد على قواعد الواحات المبعثرة داخل الصحراء الكبرى ٠ وتوفر هذه الطرق مشقة السير على طول افريقية السودانية حتى شاطىء المحيط الأطلسي لتنتقل الى أوربة ، وتعتمد على توسطها بين اقليمين انتاجيين مختلفين تماماً ؛ الاقليم المداري في الجنوب ، والمتوسطي والمعتدل في الشمال (الفواكه المدارية ، العاج ، ريش النعام ، الذهب ، الرقيق ، القمح ، الملح ، البلح ، المواد المصنوعة عامة) ٠

وأهم تلك الطـرق :

ـ طريق كردفـان ـ الكفرة ـ برقـه ، أو كردفـان ـ اسـيوط في وادي النيـل .

ـ طريق تشاد ـ طرابلس الغرب أو برقة ، عبر فزان أو الكفرة . وهـو أقصرهـا .

ـ طريـق غـاو ـ تمبكتو (نهر النيجـر) ـ المغـرب العربـي بأقطاره الثلاثـة .

وكانت لتلك الطرق ، منذ القديم وحتى العصور الوسطى ، آهمية حضارية وتجارية ، أدت الى نهضة مناطق غانة ومالي والنيجر وتشاد ، وعلى أثرها شقت طرق حديثة : النيجر ـ الجزائر ، تشاد ـ طرابلس الغرب . وقد استغلت الأهمية الاستراتيجية لهذه الطرق ، وبخاصة عندما تكون الطـرق البحرية مهـددة ، كما في الحركـة التكتيكيـة التي قـام بها الجنرال ليكلرك الفرنسي خلال الحرب العالميـة الثانية ، التي عبر فيها بقطعاته الصحراء من تشاد الى فزان فالشمال الليبي ليهدد الجناح الجنوبي لجيوش المحور .

وازدادت أهمية هذه الطرق في الآونة الأخيرة لوجود أحواض نفط وثروات معدنية كبيرة عند محاورهـا ؛ في ليبية والجزائر وموريتانيـة والمغـرب .

* * *

أضواء على العلاقات التجارية
بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية
١١٧١ - ١٣٥٠م

د. عــادل زيتــون
جامعة دمشق

تعتبر مسألة العلاقات التجارية ، بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية، من الموضوعات ذات الأهمية البالغة في تاريخ العصور الوسطى. خاصة وأن هذه العلاقات قد قامت في فترة اشتد فيها الصراع العربي ـ الفرنجي (الصليبي) من ناحية ، واحتدم فيها التنافس والنزاع بين القوى البحرية والتجارية الأوربية ، للسيطرة على التجارة الشرقية ، من ناحية أخرى . وفي غمرة هذا الصراع السياسي والعسكري ، وفي زحمة الاتصال الاقتصادي والثقافي ، الذي نتج عن الاحتكاك بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية ،قامت العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية، التي تصدت بنجاح كبير للخطر الصليبي ، وبين جمهورية البندقية ، التي لعبت دوراً كبيراً في الحركة الصليبية(١) . ومن هنا تأتي أهمية هذه العلاقات ، التي تضاربت فيها المصالح والأهواء مرة ، والتقت وتقاربت مرات ، وتآلفت واندمجت في بعض الأحيان ، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال ، وتبعاً لتغير ميزان القوى في الصراع العربي ـ الصليبي ، في الشرق الأدنى .

الأهمية الاقتصادية لمصر والشام في العصور الوسطى

امتلكت مصر والشام ، في العصور الوسطى ، عوامل جذب للتجار الفرنجة بصفة عامة ، وللتجار البنادقة بصفة خاصة ؛ فموقع مصر جعلها حلقة وصل بين الشرق والغرب ، وسوقاً للتبادل التجاري بين افريقية وآسية وأوربة . وقبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، كان طريق البحر الأحمر أهم الطرق التجارية

التي تدفقت من خلاله سلع ومتاجر الشرق الأقصى الى موانيء الغرب الأوربي . وفضلا عن ذلك كله فقد فضل التجار الفرنجة التوجه الى أسواق مصر للحصول على التوابل الهندية والحرير الصيني ، بدلا من الارتحال الى شواطىء الخليج العربي عبر مسافات طويلة وغير آمنة(٢) .

ولم تقتصر أهمية مصر على موقعها في حركة التجارة الدولية ، وانما امتدت هذه الأهمية لتشمل الثروة الاقتصادية التي امتلكتها ، وبخاصة الشب(٣) والسكر والنطرون والبلسم ، وغيرها من السلع والمتاجر التي كانت موضع اهتمام التجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الفرنجة ، في العصور الوسطى . كما شكلت الموانىء المصرية ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط ، أسواقاً رئيسية لتصريف العديد من السلع ، التي حملها التجار البنادقة من الغرب الأوربي ، وبخاصة الخشب والحديد والقار والرقيق ، وغيرها من المواد التي كان العرب المسلمون بحاجة ماسة اليها . ولهذا كله كان المؤرخ اللاتيني ، وليام الصوري ، الذي عاش في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، على حق في قوله ان الاسكندرية « سون العالمين »(٤) .

أما بالنسبة الى بلاد الشام فانها لم تكن تقل في أهميتها التجارية عن مصر في العصور الوسطى ؛ فقد تدفقت متاجر الشرق الأقصى الى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسية الصغرى ومصر ؛ وشكلت هذه المدن بدورها محطات تجارية بالغة الأهمية ما بين الشرق والغرب . وفضلا عن ذلك كله فان ثروات بلاد الشام ، وبخاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع والمتاجر ، كانت موضع اهتمام التجار الفرنجة بصفة عامة وتجار جمهورية البندقية بصفة خاصة(٥) .

وعلى الرغم من أننا لا نعرف البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين جمهورية البندقية ومصر والشام ، الا أنه من المؤكد أن هذه العلاقات تعود الى القرن التاسع الميلادي ، حيث حمل البنادقة ، خلال ذلك القرن ، الى موانىء هذين البلدين المنتجات المتوفرة في المناطق المحيطة بمدينتهم مثل الأخشاب والحديد(٦) . وفي القرن العاشر الميلادي أقامت البندقية علاقات ودية مع الفاطميين (٣٥٨/٥٦٧ هـ ٩٦٩/١١٧١ م) ، ونقلت الى مصر والشام الخشب اللازم لبناء السفن . وقد استشاطت الدولة البيزنطية غضباً من جمهورية البندقية ، وأخذت توعز اليها بألا تحمل سفنها الأخشاب الى أسواق مصر ، وهدد الامبراطور البيزنطي حنا تزيمسكيس (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) بالانتقام من البندقية اذا لم تمتنع

عن مد الفاطميين بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن ، وذلك كله حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمي الذي كان يقف للبحرية البيزنطية بالمرصاد(٧) ·

الا أن الجمهورية رأت ألا تضحي بمصالحها الاقتصادية الكبرى في مصر والشام في سبيل ارضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، ولهذا أجازت لتجارها نقل خشب اللبخ والسنديان ،الى دور الصناعة المصرية ، على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام ؛.كما أرسل دوج البندقية ، بطرس أورسيلو ، سفارات متعددة الى مصر ، عام ٩٩١ ـ ٩٩٢ م ، تمكنت من الحصول على امتيازات تجارية واسعة ، لتجار البندقية ، في الموانىء المصرية(٨) ·

واستمرت العلاقات التجارية بين الفاطميين والبندقية ، خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، وكسب البنادقة موطىء قدم لهم في أسواق الاسكندرية وانطاكية وطرابلس الشام ، وقامت سفنهم برحلات تجارية منظمة ما بين البندقية وانطاكية والاسكندرية · ويبدو أن هذه التجارة المربحة التي تحققت للبندقية في مصر والشام ، وقتذاك ، تفسر لنا الأسباب التي جعلت جمهورية البندقية تتريث في تقديم المساعدة للصليبيين في الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ ـ ١٠٩٩ م)(٩) ·

سياسة صلاح الدين التجارية :

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ ـ ٥٨٩ هـ ـ ١١٧١/١١٩٣ م) قد وضع قواعد أساسية لسياسته التجارية ، استهدفت اقصاء التجار الأوروبيين جميعاً عن التجارة الداخلية في دولته ؛ والتزم سلاطين الأيوبيين والمماليك بهذه السياسة ، من بعده ، عدة قرون · وتؤكد المصادر العربية المعاصرة أن السلطان صلاح الدين كان يدرك تماماً بأن محاولات الفرنجة الصليبيين ، تحت قيادة أرناط (رينود دي شاتيون)(١٠)، للنفاذ الى منطقة البحر الأحمر ، عام ١١٨٢ ـ ١١٨٣ م ، تعني بأن الصليبيين لا يرغبون في الاستيلاء على الأراضي المقدسة في بلاد الشام فحسب وانما يطمعون أيضاً بتوسيع نفوذهم الى الحجاز والاستيلاء على البحر الأحمر ومحطاته التجارية · ويشرح صلاح الدين ، في رسالة بعثها الى الخليفة العباسي في بغداد ، أهداف الفرنجة من محاولاتهم غزو منطقة البحر الأحمر ، قائلا : « وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة ،

التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين : فاما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فانهقدَّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، أما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن ، فقدَّر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن(١١) ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح ـ والعياذ بالله ـ المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم »(١٢) . ومن هذه الفقرة من الرسالة يتضح أن الصليبيين استهدفوا وراء تلك المحاولات الحربية تحقيق هدفين خطيرين ، أولهما قطع طريق الحج الاسلامي الى مكة والمدينة ، وثانيهما الاستيلاء على عدن في جنوب البحر الأحمر ، وبذلك يتمكنون ، بفضل السيطرة على أيلة في الشمال وعدن في الجنوب ، من اغلاق البحر الأحمر في وجه العرب المسلمين واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي . ومن هنا جاء حرص صلاح الدين ، ومن بعده سلاطين الأيوبيين والمماليك ، على حماية البحر الأحمر ، الذي يطل على الحرمين الشريفين ، والابقاء عليه ، كبحر اسلامي خالص ، في خدمة التجار العرب المسلمين . ولهذا كله فانه لم يكن يحق للتجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الفرنجة ، العمل في التجارة الداخلية، أو الاقتراب من منطقة البحر الأحمر ، وبالتالي فقد اقتصر نشاطهم التجاري ، في زمن الأيوبيين ، على القيام بعمليات الاستيراد والتصدير في الموانىء العربية الاسلامية المطلة على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط .

وفي عهد السلطان صلاح الدين لعبت جمهورية البندقية دوراً مزدوجاً في علاقتها مع الأيوبيين والصليبيين ، فمن جهة كانت تمد يد العون للصليبيين لمواجهة صلاح الدين ، وذلك حرصاً على امتيازاتها التجارية في المدن والامارات الصليبية ؛ ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع والمتاجر ، وبخاصة الأسلحة وأدوات القتال ، الى الأيوبيين في مصر والشام . ولقد أشار صلاح الدين الى هذه الحقيقة في الرسالة التي بعثها الى الخليفة العباسي ، الناصر لدين الله ، في بغداد ، عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢م، والتي جاء فيها : « ومن هؤلاء : البنادقة والبياشنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبة ونقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة . وما منهم الآن الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب

الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة ، وانظمت معه المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون »(١٣) . وربما هذا يفسر لنا السياسة السمحة ، التي عامل بها السلطان صلاح الدين الجالية البندقية في عكا عندما افتتحها عام ٥٨٣هـ/١١٨٧ م .

وفي أعقاب فتوحات صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة في استرداد بيت المقدس ، ضعفت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين، وذلك نتيجة ضغط البابوية ، والرأي العام الصليبي والأوروبي ، على الجمهورية لقطع علاقاتها التجارية مع العرب المسلمين في مصر والشام(١٤) . فمن المعروف أن البابوية حرصت أشد الحرص ، وبخاصة منذ قيام الحركة الصليبية ، على منع القوى البحرية والتجارية الأوروبية من المتاجرة مع القوى العربية الاسلامية ، وكان هذا الموقف ينبع أساساً من حرص البابوية على عدم تزويد العرب المسلمين ، في مصر والشام ، بالمواد «الاستراتيجية»، كالأخشاب والحديد والقار والرقيق ، التي تعزز قوة الجيش والبحرية العربية وبالتالي تدعم قدرة العرب المسلمين وجهادهم ضد الصليبيين . وقد استخدمت البابوية ، لتحقيق هذا الهدف ، أسلحة عديدة ، في مقدمتها سلاح الحرمان الكنسي لكل من يتعامل مع العرب المسلمين ، وينقل اليهم أدوات القتال(١٥) .

والواقع ان المراسيم البابوية لم تفلح في قطع العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين ، في أعقاب فتوحات صلاح الدين ؛ فكثرة الأوامر والمراسيم البابوية المتعلقة بتحريم المتاجرة مع العرب المسلمين ، التي صدرت وقتذاك ، تدل دلالة قاطعة أن العلاقات التجارية بين الجمهورية والأيوبيين لم تتوقف بتاتاً ، والا لما كانت الحاجة تدعو الى تكرار مثل هذه المراسيم وتلك الأوامر . وفضلا عن ذلك فقد أثبت هايد أنه خلال شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨ م (أي في العام التالي على فتح صلاح الدين لبيت المقدس) كان في ميناء الاسكندرية حوالي سبعة وثلاثين مركباً تجارياً من جنوه وبيزا والبندقية ، ومن المعروف أن أكثر التجار الفرنجة كانوا يأتون الى مصر في فصلي الربيع والخريف ، كما أن قادة السفن كانوا يفضلون أن يقضوا الشتاء بين أهلهم ، فلا بد من القول بأن ما كان يأتي الى مصر في فصول الربيع والصيف والخريف ، لم يقتصر على سبع وثلاثين سفينة بل جاء الى الاسكندرية مئات من السفن(١٦) . ومهما يكن من أمر فان جمهورية البندقية كانت تدرك أن مصالحها الاقتصادية والتجارية

الكبرى في مصر والشام أكثر أهمية من أي اعتبار آخر ، واذا كانت البندقية قد استجابت ، في بعض الأحيان ، لنداءات البابوية ومراسيمها بشأن تحريم المتاجرة مع العرب المسلمين ، فانها لم تفعل ذلك خوفاً من الحرمان الكنسي أو الرأي العام الصليبي والأوروبي ، وانما رغبة منها في توسيع امتيازاتها التجارية في المدن والامارات الصليبية ؛ هذه الامتيازات التي كانت تمنح للبنادقة كلما قدموا مساعدات للصليبيين ووقفوا الى جانبهم في القتال ضد الأيوبيين ·

المعاهدات التجارية :

احتفظت البندقية بعلاقات ودية مع السلطان الملك العادل الأيوبي (١١٩٩ ـ ١٢١٨ م) خاصة وأن الملك العادل كان يرغب في تعزيز العلاقات التجارية بين دولته وجمهورية البندقية ، فاحدى الوثائق ، التي تعود الى عام ١٢٠٠ م ، تؤكد استمرار نقل البنادقة ، على سفنهم التجارية ، للأسلحة والأخشاب الى الموانىء المصرية(١٧) · كما أنه من المعروف أن البندقية أبرمت مع السلطان الملك العادل الأيوبي أقدم معاهدة تجارية ، وصلت الينا ، مع مصر ، وذلك عام ١٢٠٨ ، على يد السفيرين مارينو داندولو وبطرس ميخائيل(١٨) · واشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانىء المصرية ، وعلى تعهد السلطان بحماية البنادقة في المناطق التابعة له ، ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة ، وعدم اجبارهم على دفع أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب والرسوم في الموانىء المصرية · كما منحت المعاهدة البنادقة فندقاً ثانياً لهم في الاسكندرية ، اضافة الى الفندق الذي كانوا يملكونه في هذه المدينة نفسها · ومن ناحية أخرى انطوت المعاهدة على تعهد البنادقة بألا يقدموا أية مساعدة لأي مشروع صليبي ضد مصر ، ووعدوا بالعمل على كبح جماح الصليبيين ومنعهم من التوجه الى الديار المصرية(١٩) ·

وأرسلت البندقية ، عام ١٢٠٧ ـ ١٢٠٨ م ، سفيراً من قبلها الى حلب ، يدعى مارينياني Miariniani ، حيث أبرم هذا السفير معاهدة تجارية مع صاحب حلب آنذاك ، وهو الأمير غياث الدين غازي بن صلاح الدين الأيوبي · وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة ، وتحددت فيها الرسوم التي يتوجب على التجار البنادقة دفعها في حلب بواقع ١٢٪ من قيمة السلع والمتاجر ؛ كما تعهد الأمير الأيوبي بتقديم كافة المساعدات للتجار البنادقة في مدينته(٢٠) ·

ويلاحظ نشاط غير عادي للبنادقة ، في هذه الفترة مع الأيوبيين في مصر والشام • ويبدو أن تفسير هذا النشاط يرتبط بأحوال التجار البنادقة في الامبراطورية البيزنطية بصفة عامة وفي القسطنطينية بصفة خاصة ، ففي هذه الفترة بالذات كانت هناك محاولة لتقويض نفوذ البنادقة في القسطنطينية من قبل أباطرة نيقيه ؛ ولهذا ربما شعرت البندقية بأن نفوذها ومصالحها التجارية مهددة في القسطنطينية وبالتالي كان عليها أن تبحث عن البديل والتعويض في ميدان آخر ، ولهذا قامت باتصالاتها الآنفة الذكر مع حلب والقاهرة(٢١) •

أخذ التجار البنادقة يتدفقون الى الموانىء المصرية ، على اثر توقيع معاهدة عام ١٢٠٨ م ، بين البندقية والملك العادل الأيوبي ، حتى أن الأيوبيين أخذوا يشعرون بالقلق ازاء التزايد المستمر للتجار البنادقة في الاسكندرية • والدليل على ذلك ما رواه الحنبلي من أنه في عام ٦١٢ م/١٢١٥ م « توجه العادل الى الاسكندرية ، لأنه اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاثة آلاف رجل وملكان من ملوكهم ، وعزموا أن يثوروا بأهل الاسكندرية ، فأمسك العادل التجار وصادر أموالهم واعتقل الملكين وعاد الى القاهرة »(٢٢) • وعلى الرغم من أن المقريزي نقل هذا الحادث عن الحنبلي(٢٣) ، الا أن كلا المؤرخين لا يذكر اسم هذين الملكين أو الرئيسين ، وان كانا يشيران الى اعتقاد السلطات المصرية بوجود خطة تستهدف احتلال الاسكندرية بالتعاون مع التجار الفرنجة المقيمين فيها • وطالما أن البنادقة كانوا يشكلون غالبية هؤلاء التجار ، كما يعتقد أحد الباحثين المحدثين(٢٤) ، فان الأضرار التي لحقت بهم من جراء عملية الاعتقال والمصادرة ، التي قام بها العادل ، كانت كبيرة •

ومع أن المصادر العربية لا تحدد التاريخ الذي أفرج فيه العادل عن التجار البنادقة ولا تذكر ما اذا كانت السلطات الأيوبية قد أعادت اليهم أموالهم وبضائعهم التي صودرت الا أنه يبدو أن البندقية حاولت ايجاد تسوية لهذه المسألة • والدليل على ذلك أن الملك الكامل ، ابن السلطان العادل ونائبه في مصر ، قد استقبل سفيراً بندقياً عام ١٢١٧ م ، وقد رحب الكامل بكل المطالب التي تقدم بها السفير البندقي ، وأعرب عن رغبته في تفضيل البنادقة على بقية الأمم الفرنجية الأخرى(٢٥) • واذا كانت هذه السفارة لا تشير الى الكيفية التي تمت فيها معالجة حادثة الاسكندرية (١٢١٥ م) ولا الى مصير التجار البنادقة وأموالهم ، الا أنها تدل على

عودة العلاقات الودية بين البندقية والأيوبيين ، وبالتالي استئناف البنادقة نشاطهم التجاري في مصر ٠

ولكن سرعان ما ساءت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين ، مرة ثانية ، وذلك نتيجة مشاركة البنادقة في الحملة الصليبية الخامسة التي قادها جان دي برين على مصر (٦١٥هـ-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م)٠ فعندما احتلت هذه الحملة مدينة دمياط رحب البنادقة ، الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة ، بقدوم الصليبيين واستيلائهم عليها (١٢١٩ م)؛ وذلك لأن البنادقة نظروا الى سقوط دمياط في أيدي الصليبيين على أنه انتصار تجاري أكثر من كونه انتصاراً عسكرياً ٠ يضاف الى ذلك أن البنادقة كانوا من المتحمسين لرفض شروط الصلح التي تقدم بها السلطان الملك الكامل للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط ، وذلك لأن التجار البنادقة كانوا يرغبون في جعل دمياط مركزاً تجارياً لهم ٠ وعندما أخذ العرب المسلمون يقاتلون لاسترداد دمياط من أيدي الصليبيين وقف التجار البنادقة الى جانب الصليبيين يحاربون دفاعاً عنها(٢٦) ٠

وبعد أن استرد العرب المسلمون مدينة دمياط وطردوا الصليبيين منها ، لم تتخذ الحكومة الأيوبية أية اجراءات ضد التجار البنادقة في مصر والشام ، على الرغم من الدور الذي قامت به البندقية في الحملة الصليبية الخامسة ٠ في حين اتخذت جمهورية البندقية ذاتها اجراءات معينة ، نتيجة اخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط ؛ وذلك بأن منعت رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار الى مصر ، وقامت بمراقبة تجارها وسفنها وفرضت عقوبات على أي تاجر أو سفينة تنقل هذه المواد « الاستراتيجية » الى الموانىء المصرية ٠ ولا شك أن البندقية كانت تدرك أن مثل هذه الاجراءات تلحق بمصالحها التجارية في مصر أبلغ الأضرار وأفدحها ، الا أنها ربما اضطرت الى ذلك تحت ضغط البابوية والامراء الصليبيين في الشام(٢٧) ٠

ويبدو أن البندقية رغبت في أن تعوض عما لحق بتجارتها من خسائر نتيجة اخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط من جهة ، والاجراءات التي اتخذتها لمنع المتاجرة مع مصر من جهة أخرى ، لهذا نجد مجلس الشيوخ (السناتو) البندقي يبعث ، عام ١٢٢٥ م ، سفارة الى مدينة حلب برئاسة توماس فوسكاريني Thomas Fosscarini ٠ ونجحت السفارة في توقيع معاهدة تجارية مع الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب ،

اشتملت على منح البنادقة تسهيلات تجارية في المدينة وتخفيض الرسوم الجمركية ، بحيث أصبحت ٦٪ بدلا من ١٢٪ ، كما اشتملت المعاهدة على ضمانات بشأن سلامة ممتلكات البنادقة في حلب في حالة الوفاة أو الغرق • ولم تمض أربع سنوات (١٢٢٩ م) حتى وصلت سفارة بندقية أخرى الى حلب ، وعقدت معاهدة تجارية أخرى مع الملك العزيز نفسه انطوت على تجديد للامتيازات التي حصل عليها البنادقة في معاهدة عام ١٢٢٥ م(٢٨) •

وفي عام ٦٣٦ هـ/١٢٣٨ م بعث دوج البندقية سفارة الى القاهرة برئاسة روموس كيورينو Romous Quirino ويعقوب باروشيو Jacebus Barocio . ووقعت هذه السفارة معاهدة تجارية مع السلطان الأيوبي العادل الثاني • وتعتبر هذه المعاهدة على جانب كبير من الأهمية لأنها كانت أساساً لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها جمهورية البندقية مع السلاطين الأيوبيين والمماليك حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي• وذلك لأنها حددت أشكال الحماية التي تعهدت السلطات الأيوبية بمنحها للبنادقة وسفنهم في مصر وموانئها ؛ كما أنها حددت أشكال المعاملات التجارية والمالية التي يجب على البنادقة ممارستها في الأسواق المصرية ؛ فضلا عن أنها حددت حقوق البنادقة وواجباتهم(٢٩) •

وانتظمت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين ، في ظل المعاهدة السابقة ، وازداد النشاط التجاري للبنادقة في مصر ، وأخذت الأساطيل التجارية التابعة للجمهورية تصل بانتظام الى الاسكندرية ، وأخذت الجالية التجارية البندقية في الاسكندرية تمارس نشاطها وفق المعاملات التجارية التي حددتها هذه المعاهدة • ولم تمض سنوات قليلة حتى تمكنت سفارة بندقية أخرى من توقيع معاهدة تجارية أخرى من السلطان الأيوبي ، الصالح نجم الدين أيوب ، عام ٦٤١ هـ/١٢٤٤ م ، انطوت على تجديد الامتيازات التجارية التي مُنحت للبنادقة في معاهدة عام ١٢٣٨ م ، وأضافت اليها امتيازاً آخر ينص على تعهد السلطان بحماية البنادقة وممتلكاتهم من الاعتقال والمصادرة(٣٠) •

ويبدو أن العلاقات التجارية بين الأيوبيين والبنادقة ، في السنوات الأخيرة من حياة الدولة الأيوبية ، كانت مزدهرة ؛ والدليل على ذلك عدم اشتراك جمهورية البندقية في حملة الملك الفرنسي ، لويس التاسع ، على مصر والشام ، وهي الحملة التي أطلق عليها اسم الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٠ م)(٣١) • فقد كان على لويس التاسع ، ليضمن نجاح

حملته الصليبية على مصر ، أن يستعين بالبندقية ، التي تمتلك بحرية قوية في حوض البحر المتوسط • فبعث لويس بسفارة من قبله الى جمهورية البندقية ، وأبدى دوج البندقية استعداده لمساعدة الحملة • غير أن الشروط التي قدمتها البندقية كفيلة بأن تُظهر مقدار استجابتها لرغبة فرنسا ، وهي تدل دلالة قاطعة على أن الدوج كان قد بالغ في الشروط التي قدمها للوفد الفرنسي ، مقابل تقديم البندقية مساعدتها للحملة ، وذلك ليكون الرفض من جانب فرنسا ، وليضمن ، في الوقت ذاته ، بقاء علاقاته الودية مع الأيوبيين ، وتعزيز الامتيازات التجارية التي يتمتع بها البنادقة في الدولة الأيوبية ، والحفاظ على المصالح الاقتصادية والتجارية الكبرى لجمهورية البندقية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط • وعلى الرغم من أننا لا نعرف الدواعي الحقيقية التي حملت سفراء لويس التاسع على قطع المفاوضات مع الحكومة البندقية ، ولا يوجد بين الوثائق ما يميط اللثام عن حقيقة هذه المسألة ، فانه من المؤكد أن البندقية عارضت فكرة مهاجمة مصر ، نظراً للمعاهدات التجارية التي ربطتهم بالأيوبيين ، فضلا عن مصالحهم الاقتصادية الضخمة في مصر والشام(٣٢) •

البنادقة في مصر والشام :

وعاش التجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الفرنجة ، في المدن المصرية والشامية ، على هيئة جاليات تجارية ، الا أنه لم يكن لهذه الجاليات أحياء أو مناطق خاصة بها داخل هذه المدن ، كما هو الحال بالنسبة الى الجاليات التجارية البندقية في القسطنطينية والمدن الصليبية ؛ وانما عاش التجار البنادقة داخل فنادق وضعتها السلطات تحت تصرفهم • وقد أشار الرحالة بنيامين التطيلي ، الذي زار مصر في بداية عهد صلاح الدين ، الى الفنادق التي كان يأوي اليها التجار ويقول : « ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم ، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشترون » (٣٣) • ويلاحظ أن فنادق الايطاليين جميعاً في مصر والشام ، كانت عبارة عن أبنية مربعة الشكل ومحاطة بسور متين ، وتتألف من عدة أدوار تشرف على ساحة داخلية تستخدم لتعبئة السلع والمتاجر وتفريغها • وكانت مستودعات التجار وحوانيتهم في الدور الأرضي ، في حين استخدمت غرف الأدوار العليا لسكن التجار واقامتهم فيها • واشتمل الفندق أيضاً على حمامات وأفران خاصة بالتجار المقيمين في الفندق ، وكان يحيط بالفندق حدائق

جميلة ؛ وكان يقوم موظف بندقي بادارة كل فندق من فنادق البنادقة في مصر والشام يطلق عليه اسم الفندقي(٣٤) ٠

وبعثت جمهورية البندقية قناصل للاشراف على جالياتها في مصر والشام ، وكانت تستبدلهم بعد سنة أو سنتين أو ريثما تبعث من يحل محلهم ٠ وكان هؤلاء القناصلة يمثلون دولة البندقية وصلة الوصل بين أبناء جلدتهم والسلطات المحلية من جهة وحكومة البندقية من جهة أخرى ٠ وكان القنصل البندقي مسؤولا عن ادارة شؤون الجالية البندقية ورعاية مصالحها ٠ كما كان القنصل مسؤولا أمام السلطات المحلية عن كل ما يصدر عن أفراد جاليته من مخالفات للقوانين والتقاليد العربية الاسلامية في مصر والشام(٣٥) ٠

ويلاحظ أن قناصلة جمهورية البندقية ، في مصر والشام ، اتخذوا من فنادق جالياتهم مقرأ لهم ؛ في حين كان لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية مقر خاص بهم ٠ وفي الوقت الذي كان فيه قناصلة البندقية في الدولة البيزنطية والمدن الصليبية يتمتعون بسلطات مطلقة من قبل حكومتهم ويعقدون المعاهدات التجارية والسياسية مع الأباطرة البيزنطيين والأمراء الصليبيين ، كان قناصلة البندقية في مصر والشام ، في العصر الأيوبي ، يفتقدون لمثل هذه السلطات ، فلا نسمع أن أحداً منهم قد وقع معاهدة مع السلطات الأيوبية ٠ وفضلا عن ذلك فقد كان قناصلة البندقية في مصر والشام يفتقدون للنفوذ السياسي ، في هذين البلدين ، الذي تحقق لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية ٠ وفي الوقت الذي نجد فيه قناصلة البندقية ، في بيزنطة والمملكة الصليبية ، يتدخلون في الشؤون المحلية ويمارسون تأثيراً واسعاً على الشؤون السياسية ويتآمرون للاطاحة بامبراطور أو ملك ، فاننا لا نجد أي تأثير أو نفوذ لقناصلة جمهورية البندقية على سياسة السلاطين والحكومات العربية الاسلامية في مصر والشام٠

وصفوة القول أن الأيوبيين ، في مصر والشام ، قد حرصوا أشد الحرص على اقامة أوثق العلاقات التجارية مع جمهورية البندقية ٠ ويتضح من المعاهدات التجارية، التي وقعها سلاطين الأيوبيين مع حكومات البندقية، أن الأيوبيين قد عملوا على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية من خلال علاقاتهم مع جمهورية البندقية ، وهي :

أولا : الحصول على السلع والمتاجر ، التي كان العرب المسلمون في الشرق الأدنى بحاجة ماسة اليها ، مثل الأخشاب والحديد والرقيق والأسلحة والدروع ، وغيرها من المواد « الاستراتيجية » التي تمكنهم من استمرار الصراع مع الصليبيين ·

ثانياً : زيادة الواردات المالية للدولة عن طريق تشجيع التجار البنادقة على القدوم الى الموانىء المصرية والشامية ، والقيام بعمليات الاستيراد والتصدير ، خاصة وأن الرسوم الجمركية والضرائب ، التي كانت تُفرض على التجار الفرنجة ، قد شكلت مصدراً هاماً من مصادر خزينة الدولة الأيوبية ·

ثالثاً : العمل على دفع جمهورية البندقية ، التي كانت في مقدمة القوى البحرية في عالم البحر المتوسط ، في العصر الأيوبي ، على اتخاذ موقف الحياد ، على الأقل ، ازاء الصراع العربي ـ الصليبي في الشرق الأدنى ·

ولقد حركت جمهورية البندقية سياستها بمهارة فائقة بين الأيوبيين والصليبيين ، لتحقيق مصالحها الاقتصادية الكبرى في مصر والشام ، فعندما كان ميزان القوى في الشرق الأدنى ، خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، يميل لصالح الصليبيين ، كانت البندقية تقف الى جانبهم بغية توسيع امتيازاتها التجارية في المدن والامارات الصليبية · ولكن عندما اعتدل الميزان بشكل واضح وحاسم لصالح العرب المسلمين ، منذ اعتلاء صلاح الدين السلطنة في مصر والشام ، أخذت البندقية توسع علاقاتها التجارية مع الأيوبيين وتمدهم بالمواد الاستراتيجية على الرغم من نداءات البابوية والرأي العام الأوروبي ، وذلك كله حرصاً على مصالحها التجارية الكبرى في مصر والشام ·

الحـــواشـــي

١ ـ لعبت جمهورية البندقية دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية .. سواء في نقل الصليبيين الى الشرق على سفنها واساطيلها ، أو في مساعدتهم على احتلال بعض المدن والمواقع في الساحل الشامي ، أو في تثبيت الوجود الصليبي وحمايته عن طريق تأمين الاتصال البحري بين الامارات الصليبية والغرب الأوروبي من جهة ونقل المؤن والأسلحة والقوات الى هذه الامارات من جهة أخرى • وقد حصل البنادقة ـ مقابل هذه المساعدات ـ على امتيازات تجارية واسعة في المدن الصليبية • انظر في تفصيل ذلك : عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٢٩ وما بعدها •

٢ ـ انظر : عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ١٨٧ •

٣ ـ تطلبت الصناعات النسيجية في الغرب الأوروبي ، في العصور الوسطى ، استخدام أحجار الشب بشكل واسع النطاق ؛ وذكر ابن مماتي « أن الشب حجر معروف يحتاج اليه في أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر ، وللروم فيه الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة .. وهو عندهم ما لا بد منه ولا مندوحة عنه » • انظر : ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ ؛ انظر أيضاً المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٨ •

٤ ـ William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. 11, P. 336.

٥ ـ عادل زيتون : ص ١٨٨ •

٦ ـ Baker, Med. trade routes, P. 8.

٧ ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ ؛ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون . ص٦١٢ •

٨ ـ Heyd, Hist. du Commerce, 1, P. 114, Beazley, op. cit., 11, P. 404.

٩ ـ انظر : عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ١٩٠ •

١٠ـ أرناط فارس صليبي كان في خدمة الملك الفرنسي لويس السابع عندما وصل الأخير الى الشرق في الحملة الصليبية الثانية • تزوج أرناط من وريثة امارة انطاكية الصليبية • ثم أصبح حاكماً لحصن الكرك ، وأخذ بمهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وهم في طريقهم الى الحرمين الشريفين • وفي عام ١١٨٢ أقدم أرناط على مشروع خطير استهدف به تحقيق سيادة الفرنجة الصليبيين على البحر الأحمر وغزو مكة والمدينة • وبالطبع لم يسكت صلاح الدين عن تهديد الحرمين ، وتمكنت بحريته في البحر الأحمر من تحطيم السفن الصليبية وبالتالي مشروع أرناط • وفي معركة حطين وقع أرناط أسيراً وقتله صلاح الدين بسيفه وذلك « وفاء نذره » • انظر تفصيل ذلك عند : المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك . ج ١ ، ص ٧٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٣ وما بعدها •

١١ـ تجار الكارم هم مجموعة من التجار المسلمين الذين قاموا بنقل سلع ومتاجر الشرق الأقصى من اليمن الى مصر . وبخاصة التوابل والفلفل ولهذا عرفوا « بتجار الفلفل والتوابل أو البهار »٠ وقد استمر نشاط تجار الكارم ما بين القرن الثاني عشر وأواخر القرن الخامس عشر ٠ انظر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، ص ١٤٧ ٠

١٢ـ انظر نص الرسالة عند أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ ٠

١٣ـ انظر النص الأصلي للرسالة عند : القلقشندي : صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ج ١٣ ، ص ٨١ ـ ٩٠ ٠

١٤ـ أحدثت هزيمة الصليبيين في حطين ثم فتح صلاح الدين لبيت المقدس عام ١١٨٧ م رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ٠ وسرعان ما قامت الحملة الصليبية الثالثة ، التي اشترك فيها فردريك بربروسا امبراطور المانيا وفيليب اغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ٠ فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها وهو اعادة احتلال بيت المقدس واسترداد ما فتحه صلاح الدين ٠ وانتهت الحملة بتوقيع صلح الرملة عام ١١٩٢ م بين صلاح الدين وزعيم الحملة ريتشارد قلب الأسد ٠ عن دوافع هذه الحملة وظروفها وأحداثها ونتائجها انظر : عاشور : الحركة الصليبية . ج ٢ ص ٨٣٧ وما بعدها ٠

١٥ـ بعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس وفشل الحملة الصليبية الثالثة أخذ البابا انوسنت الثالث ، الذي اعتلى العرش البابوي عام ١١٩٨ م ، يدعو الى حملة صليبية جديدة تتجه هذه المرة الى مصر باعتبارها المركز الرئيسي للقوة العربية الاسلامية في الشرق ٠ واستهل انوسنت عهده بالكتابة الى البنادقة يطلب منهم ألا يبيعوا أو يتبادلوا مع العرب المسلمين «بالمواد الاستراتيجية» والا تعرضوا لغضب الكنيسة وحرمانها ٠ ولكن البنادقة احتجوا على قرارات البابا مما اضطر انوسنت الثالث الى منح البنادقة امتيازاً يحق لهم بموجبه المتاجرة مع العرب المسلمين بجميع المواد ما عدا تلك التي تخدم القوة الحربية العربية كالأخشاب والحديد والأسلحة والقار والرقيق ٠ انظر :

Thatcher, O., A Source book For Med. Hist., PP. 535-37; Heyd. op. cit., I, PP. 404-405.

١٦ـ Heyd, 1, P. 399.

١٧ـ عادل زيتون : المرجع نفسه . ص ١٩١ ٠

١٨ـ لعبت البندقية دوراً كبيراً في تحويل الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م) عن هدفها الأصلي ، وهو مصر ، الى القسطنطينية ٠ وذهب بعض الباحثين المحدثين ، أمثال ماس لا تري وكارل هوبف ، الى القول أن البندقية قامت بتحويل الحملة عن مصر نتيجة اتفاق سري ، كان قد تم توقيعه بين الحكومة البندقية والسلطان الملك العادل الأيوبي وذلك في ١٣ مايو عام ١٢٠٢ م ، اشتمل على منح البنادقة امتيازات تجارية سخية في الاسكندرية ، مقابل أن يقوم البنادقة بتحويل الحملة عن مصر ٠ انظر مناقشة ذلك عند :

Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, 11, PP. 455-58

١٩ـ Mass la Trie, PP. 70-72.

٢٠ـ Heyd, 1, PP. 374-75.

٢١ـ عادل زيتون : ص ١٩٢ ·

٢٢ـ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط ، ورقة ٦١ أ ·

٢٣ـ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٧٥ ·

٢٤ـ Beazley, The dawn of Modern Geography, 11, P. 416.

٢٥ـ Heyd, 1, P. 404.

٢٦ـ انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٥ـ١٩ ، ٣٢ـ٣٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٧٥ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٧٥ ·

٢٧ـ عادل زيتون : ص ١٩٤ ·

٢٨ـ Heyd, op. cit., 1, PP. 373-75; Beazley, op.cit., 11, PP. 416-17.

٢٩ـ Mass la Trie, Traité des paix et de Commerce, PP. 72-74.

٣٠ـ Ibid., PP. 76-77.

٣١ـ ان أهم الدراسات التي صدرت بالعربية عن حملة لويس التاسع بالذات هي : محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ، ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر « هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور » ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام « هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة » ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ؛ حسن حبشي : الشرق العربي بين شقي الرحى.« حملة القديس لويس على مصر والشام » ، القاهرة ، ١٩٤٩ ·

٣٢ـ Heyd, op. cit., 1, P. 409.

٣٣ـ بنيامين التطيلي : رحلته ، الترجمة العربية ، ص ١٧٩ ·

٣٤ـ انظر : عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ ·

٣٥ـ انظر : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ٤١ ·

كتابة تاريخ العرب

مشـــروع اللجنـــة التحضـيريـة

١ ـ هـدف المشروع :

اعادة كتابة تاريخ العرب في موسوعة كاملة واحدة تؤكد الوحـدة العريقة للأمة العربية وغزارة ما قدمت للحضارة الانسانية ، وتكـون وسيلة بين أيدي الأجيال العربية الجديدة لفهم الحاضر (الواقع) العربي في جوانبه المضيئة وجوانبه المظلمة وفي امكاناته الواعدة ، ولتزويد هـذه الأجيال بالثقة بنفسها وبأمتها وبالقدرة على استيعاب منطق التقدم نفسه وبالوعي التاريخي الذي يحرر الماضي من أثقاله ويمنحه وزنه الحقيقي ، والذي يعمل على تكوين بعد أساسي من أبعاد الشخصية العربية ·

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبـع من حاجة قوميـة قائمة وملحـة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقها لصنع التاريخ الجديد ،ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب مـن كتابة التاريخ العربي من جديد أن يبرز خصائصه الكبرى ومنها :

١ ـ انه يحتفظ في جميع مراحله ، بنزوع عميق الى ترسيخ وحدة الأمة العربية · فهو يرسم خطا متصلا على الرغم من التعرجات والالتواءات التي فرضتها عليه التحديات الخارجية وعوامل الوهن الداخلي · فأمراض التخلف والتجزئة التي لحقت أحياناً بجسد الأمة العربية لم تحرف روحها الدفينة عن أمانيها الثابتة · وذلك يؤكد أن الأمة العربية الواحدة لا تملك تاريخاً واحداً فحسب ، ولكنها تنعكس في تاريخ وحدوي أصيل ·

٢ ـ ان التوق الى العـدل في صوره الفردية والاجتماعيـة ، سمة بارزة من سماته : تجسد ذلك في الفترات التي كان العرب فيها سادة أنفسهم ، كما بقي ، في الفترات الأخرى ، مخزوناً في ضمائرهم ، يكشف عن نفسه في حركات القلق المتمرد وفي جملة نتاجهم الروحي ·

٣ ـ ان الحرية ، بكل معانيها ملازمة للوجود العربي في الزمـان

والمكان فهي من مقدسات الأفراد والجماعات لدى العرب ، يدافع عن بقائها ويعتز بها حين تكون ، ويجاهد في سبيل استردادها حين تزول ·

والعبرة هنا ليست في أشكال الحرية التي تحددها مقتضيات العصور وظروف النمو ، وانما في معناها الراسخ القائم على رفض السيطرة والطغيان ، وعلى الايمان بأنها قانون الحياة الانسانية ·

٤ ـ ان العرب لم يتخلوا مطلقاً عن حمل رسالة انسانية ، فهم متفتحون على كل ما هو خير عند الأغيار ، قادرون على الأخذ والعطاء وعلى التفاعل الخصيب مع الانجازات البشرية ، بل ان القيم الكبرى التي تحدوهم للنضال لم يعتبروها حكراً لهم أو مقصورة عليهم بمقدار ما اعتبروها حقوقاً طبيعية للجماعات الانسانية كلها ·

٥ ـ ان رابطة حية تجمع بين مظاهر الحياة العربية فأحداث السياسة لا تنفصل عن نتاج الفكر والوجدان ، ولا عن نزعات الشعب الدائمة · لذلك يجدر بالتاريخ العربي أن يؤكد الصلة بين تجلياته المتعددة بحيث يبرز ما فيها من تأثير متبادل ، ومن تعبير موحد في الوقت نفسه ·

٦ ـ ان التاريخ العربي الذي يكشف عن روح الأمة العربية لا يمكن أن يفسر بهذا العامل وحده أو ذاك ، وانما يفهم في ضوء مجموع العوامل المتآزرة حيناً والمتناقضة حيناً آخر ، بحيث يتضح دور كل من البيئة والتطور الاقتصادي والمؤثرات الأجنبية والتحديات والضعف الداخلي وغير ذلك الى جانب الارادة المصممة على تحقيق القيم المعنوية والرسالة الانسانية ·

٢ ـ مبادىء العمل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بأسلوب البحث العلمي ·

آ ـ ينطلق العمل من الايمان العميق بوحدة الأمة العربية بمر العصور من جهة وفي مختلف أقاليم الوطن العربي من جهة أخرى · والمنطلق الوحدوي يقتضي :

- كشف وحدة التيارات التاريخية والحضارية في مختلف العصور ·
- اظهار ترابط الأقطار العربية وخاصة عند تعرضها للأخطار الخارجية التي تستهدف الوطن العربي أو جزءاً منه ·
- تأكيد استمرار العطاء الحضاري العربي للانسانية بمر العصور وفاعلية هذا العطاء وقيمته الانسانية الرفيعة ·

ـ تجنب مزالق التعصب العنصري ومشاعر التفرقة والعصبيات الدينية أو الطائفية ٠

ب ـ أما الفهم الحضاري للتاريخ فيهدف الى ابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب ، واعطاء هذه الأمة قيمتها الحضارية بين الأمم ٠ لهذا يؤكد على :

ـ ضغط التفاصيل السياسية والأحداث الهامشية قدر الامكان ٠ وبالمقابل يجري التركيز على ابراز الأحداث الحضارية من اجتماعية وفكرية واقتصادية وفنية ٠

ـ تخفيف ما اعتاد المؤرخون من قبل ابرازه من أدوار الأفراد في التاريخ ليبرز بالمقابل دور الشعوب والقواعد الجاهيرية الواسعة ٠

ـ النظر الى التطورات التاريخية على أنها تطور مجتمعات ذات روح حضارية واحدة وحركة ذاتية متصلة واتجاه لا ينقطع نحو الأسمى ٠

ـ كشف ما قدمه العرب من أسس حضارية للانسانية وبيان استمرارية هذه الأسس وفاعليتها ٠

ج ـ وأما التقيد بأسلوب البحث العلمي فهو يقتضي :

ـ اتباع المنهجي التاريخي في أغنى صوره من حيث اعتماده على مختلف العلوم المساعدة ، وعلى المصادر الأصلية ٠ وعلى التوثيق الدقيق ٠

ـ عرض الآراء المختلفة عند الضرورة عرضاً موضوعياً ٠

ـ تحليل الأحداث والوقائع في تطورها الحي وليس سردها المتسلسل السكوني ٠

ـ بحث الأحداث في جذورها الاقتصادية والاجتماعية واظهار دور العوامل الروحية ، وذلك بحسب ما تقتضيه الفترة التاريخية وطبيعة الأحداث ٠

ـ عدم اهمال الصالات العالمية تأثيراً وتأثراً في مختلف العصور ، بمعنى أن يكون المنظور العالمي الشامل حاضراً في الذهن عند التحليل والتفسير ٠

ـ اعتماد القيم الأساسية في الثقافة العربية لتقويم الأحداث الهامة والاشارة الى النقائص والأخطاء ٠

ـ الاهتمام الدائم بشرائط العرض التاريخي من حيث التماسك الداخلي ووضوح العبارة وسلامة الأسلوب ٠

هذا وان الهدف الأول من مبادىء العمل كلها أن تكشف الموسوعة عن روح الأمة العربية وعبقريتها الذاتية، وأن تتخذ الاحداث الكبرى دلالات قومية وانسانية بحيث تفصح عن معنى الوجود العربي ونمائه في التاريخ ٠

★ ★ ★

هذه هي المنطلقات والأنظار التي افتتحت بها اللجنة التحضيرية مشروعها المقترح لكتابة تاريخ العرب ، وهي تمثل الشق الأول من شقي المشروع ، اما شقه الثاني فيمثل تقسيم المسيرة التاريخية العربية الى مراحل او حلقات ، عرضت مشفوعة بطائفة من التوجيهات الأساسية التي هدت اليها النظرة العلمية النقدية في مضمار التاليف التاريخي ، يستنير بها ويستمد منهـا المؤلفون وهم يعالجـون موضوعات التاريخ العربي ٠

لقد أعدت اللجنة التحضيرية مشروعها المقترح بعد لقاءات جمة ، واجتماعات مطولة ، فكان مشروعها الاستجابة العلمية الحصيلة ما اسفرت عنه المناقشات والأحاديث في تلك اللقاءات الخصبة ٠ وانجزت اللجنة مشروعها عام ١٩٧٦ ، وقدمته للعلماء المؤرخين والفلاسفة والمفكرين ودعاة القومية العربية ، للنظر فيه وابداء الراي والمذاكرة حول ما تضمنه ؛ هدفا ، ومبادىء عمل ، ومنهاج تاليف ثم كانت الدعوة لندوة دمشق (٢٠ — ٢٢ كانون الأول ١٩٧٧) التي حضرها علماء مؤرخون وباحثون ومفكرون قوميون من اقطار الوطن العربي ٠ واتخذت الندوة مشروع اللجنة التحضيرية ورقة عمل لها ، ناقشتها مناقشة مستفيضة ، واغنتها بآراء المنتدين وأفكارهم ، واوضحت المعاني التي رمت اليها بمشروعها ايضاحا ينفي أي لبس في فهمها ، واي غموض في مدلولها ، ويعزز الالتزام بالمنهج النقدي التاريخي ، والتقيد بالنظرة العلمية في كتابة موسوعة التاريخ العربي ٠

جرى النقاش حول المنطلق الوحدوي ، وما مرماه وغايته ؟ فبسط ايضاح المراد منه ، وانه لا يعني الخضوع لفكرة مسبقة تقسر الحقائق وتزور الوقائع ، ولكنه الحافز العميق ووجهة النظر للكشف والتقصي ، وابراز هذه الوحدة الثقافية الحضارية التي تجلت بها شخصية الأمة العربية ، مهتدين ومسترشدين في عملنا دائما بالمبدأين الثاني والثالث من مبادىء العمل وهما الفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي وانتهاج الموضوعية في كتابة التاريخ العربي والتمسك بها ٠

وجرى النقاش خصبا حيا منتجا حول مدى التوافق بين المنطلقات النظريـة وفقرات البرنامج المقترح ، لينتهي الى ايثار المقياس الحضاري والنظرة الأفقيـة في تاريخ مسيرة الأمـة العربيـة ، واشتقاق السمة العامة والصفة الغالبة لكل مرحلة من مراحل تاريخها ، وهكذا تابعت الدورة اعمالها، ومضت في مناقشاتها وحوارها ، ثم انتهت الى مقرراتها وتوصياتها ٠

وقد جمعت أعمال اللجنة التحضيرية ومناقشات ندوة دمشق ، وصدر بها العدد التمهيدي من مجلة « دراسات تاريخية » عام ١٩٧٩ ، هذه المجلة التي كان ظهورها تلبية لاحدى توصيات تلك الندوة ، لتتلاقى على صفحاتها أقلام الباحثين والدارسين ، يكملون الحوار ، ويخصبون الفكرة وينضجون بنار الروية منطلقاتها وانظارها ، ونهجها العلمي ، ويتقدمون بالمقترحات التي تعين على تحقيق المشروع العظيم ، وتؤذن باخراجه من القوة الى الفعل ٠